ارنست همنغواي

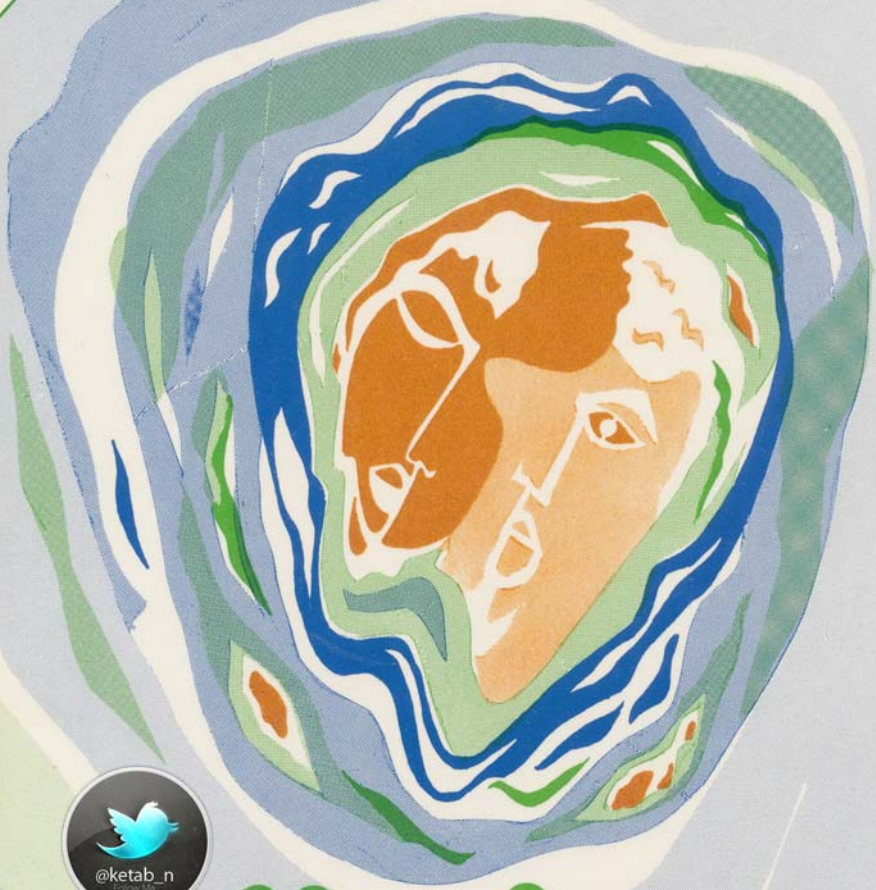

@ketab_n
29.5.2016

جنة عدن

دار الآداب - بيروت

ارنست همنغواي

جنة عدن

ترجمة الشريف خاطر

دار الآداب - بيروت

Twitter: @ketab_n

جنة عدن

Twitter: @ketab_n

جميع الحقوق محفوظة
الطبعة الأولى
١٩٨٧

تصميم الغلاف
مها نصرالله

Twitter: @ketab_n

ملاحظة الناشر الأميركي

لم يكتمل شكل هذه الرواية عند وفاة الكاتب. وفيما كنّا نجهّز هذا الكتاب للنشر، قمنا ببعض التعديلات والتصحيحات الروتينيّة. وباستثناء بعض المداخلات البسيطة والقليلة جداً لهدف التوضيح والتناسق، لم يُضف شيء إلى المخطوطة الأصلية.

إن هذا العمل، على جميع الأصعدة، هو من تأليف الكاتب.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الجزء الأول

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الفصل الأول

كانا يقيمان حينذاك بفندق في «ليجرو دي روا»، يطل على القناة التي تمتدّ من مدينة «أيجس مورتس» ذات المباني العالية، وتنتهي عند البحر. كان بإمكانهما رؤية أبراج مدينة «إيجيس مورتس» عبر سهل «كاراما جيو» المنخفض. وفي وقت ما من كل يوم تقريباً، كانا يركبان دراجتيهما على امتداد الطريق الأبيض المتاخم للقناة. وعند ارتفاع مدّ البحر صباحاً ومساءً، كان سمك القاروس يأتي معه، وكان بإمكانهما رؤية سمك البوري وهو يقفز في هياج، هرباً من سمك القاروس، ومراقبة فقاعات المياه المنتفخة الناجمة عن هجوم سمك القاروس.

وهناك عند الحاجز الذي يمتدّ داخل مياه البحر الزرقاء المبهجة، كانا يقومان بصيد السمك، ويسبحان بالقرب من الشاطىء، ويساعدان الصيادين كل يوم في سحب شباكهم الطويلة المحمّلة بالأسماك إلّى الشاطىء الطويل المنحدر. في ركن مواجه للبحر بأحد المقاهي، كانا يتناولان بعض المشهّيات الخفيفة ويراقبان إبحار قوارب صيد سمك «الأسقمريّ» عبر خليج «ليونز». كان الوقت آخر الربيع وسمك «الأسقمريّ» يهاجر جماعات، وعلى الميناء كان الصيادون منهمكين في عملهم. كانت البلدة تعطي شعوراً بالابتهاج والألفة. وأُعجب الاثنان بالفندق الذي كان يحتوي أربع غرف في الدور العلوي ومطعماً ومنضدتين للبلياردو في الدور الأرضي الذي يواجه القناة والفنار. أما الحجرة التي كانا يقيمان فيها، فكانت تشبه لوحة «فان جوخ» لحجرة في «آرليس»، فيما عدا أنه كان يوجد بها سرير لشخصين ونافذتان كبيرتان، بإمكانك أن تتطلع منهما إلى المدينة البيضاء وشاطىء «بالافاس» المشرق، عبر المياه والمستنقع ومروج البحر الخضراء.

وعلى الرغم من أنهما كانا يأكلان بشهية، فقد كانا يشعران دائماً بالجوع، ويتوقان

Twitter: @ketab_n

إلى طعام الإفطار الذي تناولاه في المقهى، حيث طلبا خبز البريوش وقهوة بالحليب وبيضاً، وأنواع المأكولات المحفوظة التي اختاراها، وكانت الطريقة التي طلبا بها أن يُسلق البيضُ لافتة للنظر. كانا دائماً يشعران بجوع شديد لوجبة الإفطار، لدرجة أن الفتاة كان ينتابها صداع شديد حتى تحتسي القهوة التي تقضي على ذلك الصداع. وقد تناولت قهوتها دون سكّر، بينما كان الشاب يروّض نفسه على تذكّر ذلك.

في هذا الصباح كانت وجبة الإفطار تتكوّن من خبز البريوش والفراولة الحمراء المحفوظة والبيض المسلوق، وقوالب من الزبد سرعان ما كانت تذوب وهما يقلبانها مع البيض داخل الوعاء المخصّص لذلك، مع إضافة قليل من الملح والفلفل المجروش. كان البيض كبيراً وطازجاً، لكن بيض الفتاة لم يكن ناضجاً مثل بيض الشابّ. تذكّر ذلك بلا عناء، وكان سعيداً ببيضه الذي كسر قشرته من أعلى بسهولة بالملعقة، وأكله مع قليل من الزبد وضعه فوقه ليبرّده، هذا بالإضافة إلى جوّ الصباح الباكر المنعش، ومذاق حبّات الفلفل المجروش والقهوة الساخنة، ووعاء القهوة بالحليب ورائحته العبقة.

كانت قوارب الصيد قد انطلقت بالفعل. انطلقت في الظلام مع أول هبّة نسيم، فاستيقظ الشاب والفتاة وسمعا صوت القوارب، فالتفّ كلٌّ منهما في حضن الآخر تحت ملاءة السرير وناما ثانية. وفي حالة ما بين اليقظة والنوم مارسا الحبّ مع غبش الصباح، وإن كانت الحجرة لم تزل معتمة إلى حد ما. بعدها استلقيا في سعادة وإرهاق، ثم مارسا الحب مرة أخرى. بعد ذلك شعرا بالجوع الشديد لدرجة أنهما اعتقدا أنهما لن يظلاّ على قيد الحياة حتى موعد الإفطار، وها هما الآن في المقهى يأكلان ويرقبان البحر والمراكب الشراعية. وكان هذا يوماً جديداً آخر.

سألته الفتاة: «فيمَ تفكر؟».

- «لا شيء».

- «لا بدّ أنك تفكر في شيء ما».

- «كنت أشعر بشيء ما فحسب».

- «ما هو؟».

- «السعادة».

فقالت: «لكنني جوعانة جداً. هذا شيء عاديّ، ألا تعتقد ذلك؟ أتشعر بالجوع الشديد دائماً عندما تمارس الحبّ؟».

- «عندما يحبّ المرء إنساناً ما...».

فقالت: «أوه، أنت تعلم الكثير جداً عن ذلك».

- «لا».

Twitter: @ketab_n

- «لا يهمّني. أنا أحب ذلك الأمر، ولا داعي لأن تقلق بخصوص أيّ شيء، أليس كذلك؟».
- «ولا أيّ شيء».
- «ما الذي تعتقد أنّه ينبغي علينا عمله؟».

قال: «لا أعرف. ما رأيك؟».

- «لا يهمني على الإطلاق. إذا كانت لك رغبة في الصيد فسأكتب أنا خطاباً، أو ربما خطابين، وبعد ذلك يمكننا السباحة قبل تناول الغداء».
- «حتى تشعري بالجوع؟».
- «لا تقل ذلك. فأنا جوعانة بالفعل، ونحن لم ننته من تناول طعام الإفطار بعد».
- «يمكننا التفكير في الغداء».
- «وبعد الغداء؟».
- «ننام قليلاً مثل الأطفال المطيعين».

قالت: «هذه بالفعل فكرة جديدة تماماً. لماذا لم نفكر في ذلك قط؟

قال: «أحياناً تهبط عليّ ومضات مثل هذه، فأنا من النوع المُبْتَكِر».

قالت: «وأنا من النوع المدمِّر. ولسوف أدمِّرك. وسيضعون لوحة تذكارية على حائط المبنى خارج الغرفة. سأستيقظ أثناء الليل وأفعل لك شيئاً لم تسمع عنه أو تتخيّله أبداً، وكنت سأفعل ذلك الليلة الماضية، لكنني كنت شديدة النُّعاس».

- «أنت نعسانة جدّاً، لدرجة لا يخشى معها أن تكوني خطرة».
- «لا تطمئن نفسك من خلال أيّة حماية زائفة. أوه يا عزيزي! دعنا ننتهي من الإفطار بسرعة حتى يحلّ وقت الغداء».

كانا يجلسان هناك يرتديان قمصان الصيادين المقلّمة والبنطلونات القصيرة، التي اشترياها من متجر لبيع لوازم المراكب، وقد أصبح لونهما أسمر للغاية، وتجعّد شعرهما وكلح لونه من أثر الشمس والبحر. اعتقد معظم الناس أنهما أخ وأخت إلى أن قالا إنهما متزوّجان. لم يصدّق البعض أنهما متزوّجان، وأسعد ذلك الفتاة غاية السعادة.

في تلك الأعوام، كان قليلٌ جداً من الناس يقصدون منطقة البحر المتوسّط في الصيف، ولم يأت أحد إلى «لجرودي روا» فيما عدا قلة من الناس من «نيم». لم يكن هناك كازينو ولا وسائل ترفيه، وفيما عدا فترة الشهور الحارّة عندما يأتي بعض الناس

Twitter: @ketab_n

للسباحة، لم يكن يوجد أحد بالفندق. كان الناس لا يرتدون قمصان الصيادين آنذاك، وكانت الفتاة التي تزوّجها هي أول فتاة رآها على الإطلاق ترتدي قميصاً من هذا النوع. لقد اشترت القمصان لهما ثم غسلتها في حوض غرفتها بالفندق لتزيل عنها خشونتها. كانت القمصان صلبة وخشنة ومعدة للارتداء في الظروف الصعبة، لكن الغسيل أكسبها نعومة، والآن أصبحت فضفاضة وخفيفة بما فيه الكفاية، حتى أنه عندما نظر إلى الفتاة في ذلك الوقت، بدا نهداها جميلين تحت القميص الفضفاض.

لم يكن هناك أحد يرتدي البنطلونات القصيرة في المنطقة المحيطة بالقرية، ولذا لم تستطع الفتاة أن ترتديه عند ركوبهما الدراجتين، أما داخل القرية فلم يكن الأمر مهماً، لأن الناس كانوا ودودين جداً، فيما عدا قسيس القرية الذي أبدى تبرّمه. لكن الفتاة ذهبت للصلاة يوم الأحد وهي ترتدي تنّورة وقميصاً من الكشمير ذا كمينّ طويلين، وشعرها مغطّى بوشاح، على حين وقف الشاب في آخر الكنيسة مع الرجال. تبرعا بعشرين فرنكاً، وكانت تزيد على دولار حينذاك، ومنذ أن أخذ القسيس هذا التبرّع بنفسه، عرف وجهة نظرهما تجاه الكنيسة، أما مسألة ارتداء البنطلونات القصيرة في القرية فقد اعتبرت نوعاً من التحرر باعتبارهما أجنبيين أكثر من كونها محاولة للخروج عن أخلاقيات أهل «كاماراجيو». لم يكن القسيس يتحدث إليهما عندما كانا يرتديان البنطلونات القصيرة، ولم يكن يستهجن ذلك منهما، لكن عندما كانا يرتديان البنطلونات الطويلة في المساء، كان كلٌ منهم ينحني للآخر.

قالت الفتاة: «سأذهب لكتابة الخطابات».

نهضت وهي تبتسم للخادم، خارجة من المقهى.

سأله الخادم عندما استدعاه الشاب، واسمه ديفيد بورن، ليدفع له الحساب: «هل سيدي ذاهب للصيد؟».

- «أظن ذلك. كيف حال المدّ؟».

قال الخادم: «هذا المدّ جيّد جداً. لديّ بعض الطعم إذا كنت ترغب».

- «أستطيع الحصول على شيء منه في الطريق».
- «لا. استعمل هذا. إنها ديدان رملية ولديّ منها الكثير».
- «أتستطيع مرافقتي؟».
- «أنا في الخدمة الآن. لكن من المحتمل أن أحضر إليك لأرى ماذا تفعل. هل معك أدوات الصيد؟».

Twitter: @ketab_n

- «إنها في الفندق».
- «انتظر حتى أحضر لك الديدان».

* * *

في الفندق رغب الشابّ في الصعود إلى الحجرة ليرى الفتاة، لكن بدلاً من ذلك، رأى صنارة الصيد البوص ذات العُقَل والسلّة وبها أدوات الصيد خلف مكتب الاستقبال حيثُ تعلّقُ مفاتيح الغرف، فعاد أدراجه إلى الخارج حيث كان الطريق متوهّجاً ثم إلى المقهى ثم إلى نهاية الحاجز الأملس. كانت الشمس ساخنة، لكن النسيم كان منعشاً والمدّ كان قد بدأ ينحسر لتوّه. كان يودّ لو أنه أحضر صنارة آليّة وطعماً معدنياً، حتى يمكنه أن يطرحها بعيداً عبر تدفّق المياه من القناة فوق الصخور على الجانب الآخر، لكن بدلاً من ذلك جهز صنارته الطويلة بفلينة الطفو، وترك الطعم يطفو برقّة في العمق حيث تخيّل أن السمك من الممكن أن يطعمها.

بقي كذلك فترة من الزمن من غير أن يحالفه الحظ، وأخذ يراقب قوارب صيد سمك «الأسقمريّ» وهي تغدو وتروح في عرض البحر الأزرق، وكذلك ظلال السحب العالية على سطح الماء. ثم غطست العوامة إلى أسفل بشكل حادّ، فشدّ الخيط بزاوية حادة، وراح يجذب الصنارة إلى أعلى مقاوماً جذب السمكة التي كانت قوية تناضل بشراسة حتى كان الخيط يصدر صوتاً على صفحة الماء. حاول أن يمسكها برقّة على قدر ما يستطيع، فانثنت الصنارة الطويلة إلى حدٍّ كادت أن تنكسر فيه عند الخيط من أثر مقاومة السمكة التي لم تكف عن محاولتها للذهاب إلى عرض البحر. وسار الشاب مع السمكة بمحاذاة الحاجز ليخفف من الضغط. لكن السمكة ظلّت تجذب، حتى أنه عندما جذب ربع عصا الصنارة أُجبر على أن تكون العصا تحت الماء.

كان الخادم قد حضر من المقهى مبهوراً. كان يتكلم بمحاذاة الرجل قائلاً: «سايرها. سايرها. سايرها برقّة على قدر ما تستطيع. فلسوف تتعب حتماً. لا تدعها تفلت. عاملها برقّة. برقة».

ولم يكن أمام الشاب من وسيلة ليكون أكثر رقّة من ذلك إلا أن ينزل إلى الماء مع السمكة، وهذا غير معقول لأن القناة عميقة. وفكر لو أنّه استطاع فقط أن يسير معها بمحاذاة الشاطىء. لكنهما كانا قد وصلا إلى نهاية الحاجز. وكان أكثر من نصف الصنارة تحت الماء الآن.

وناشده الخادم قائلاً: «سايرها. برفق فقط. إنها مطاردة صعبة».

Twitter: @ketab_n

غطست السمكة إلى العمق، وأخذت تجري بشكل متعرّج، فانثنت عصا الصنّارة الطويلة من أثر ثقلها وقوة اندفاعها. ثم طلعت إلى السطح مندفعة ثم غاصت إلى أسفل مرةً أخرى. واكتشف الشاب أنه على الرغم من أن السمكة شعرت بقوة كتلك التي يبلغ مداها العنف التراجيدي، فإن هذه القوة قد خفّت الآن، واستطاع أن يقودها إلى نهاية الحاجز ومنه إلى القناة.

قال الخادم، «افعل ذلك برقّة. أوه، برقّة الآن، برقّة من أجلنا جميعاً».

ولأكثر من مرتين أجبرته السمكة على تحويل طريقه إلى عرض البحر، لكن الشاب في المرتين أعادها ثانية، وها هو الآن يقودها برقّة عبر الحاجز في اتجاه المقهى.

سأله الخادم: «كيف حال السمكة؟».

- «سمكة رائعة، لكننا تمكنّا منها».

قال الخادم: «لا تقل ذلك. لا تقل ذلك. ينبغي أن ننهكها. ننهكها. ننهكها».

قال الشاب: «لقد اتعبت السمكةُ ذراعي».

فسأل الخادم وكله أمل: «أتريد أن أسحبها بدلاً منك؟».

- «لا، بحق الله».

فقال الخادم: «أرجوك برفق، برفق. برقّة، برقّة. برقّة».

وسحب الشاب السمكة في القناة حتى وصل إلى ما بعد شرفة المقهى.

كانت السمكة تسبح تحت الماء لكنها ما زالت قوية، وتساءل الشاب عما إذا كانوا يريدون سحب السمكة عبر طول القناة داخل المدينة. وتجمّع أناس كثيرون حينذاك، وبينما كانوا يمرّون بالقرب من الفندق رأتهم الفتاة من النافذة، فصاحت: «أوه، يا لها من سمكة رائعة! انتظروني! انتظروني!».

لقد رأت السمكة بوضوح من أعلى، طولها ولمعانها في الماء، وزوجها وهو يمسك الصنارة المثنيّة على شكل مزدوج تقريباً، وجمهرة الناس الوافدين. وعندما وصلت إلى شاطىء القناة، توقّف الجري واصطدام الناس ببعضهم وتوافدهم.

كان الخادم في الماء عند حافة القناة، وزوجها يوجّه السمكة ببطء عند الحافة حيث تقوم بعض الحشائش النامية، وكانت السمكة الآن فوق صفحة المياه. وقد انحنى الخادم واضعاً يديه على جانبي السمكة ثم رفعها وإبهاماه في خياشيمها، وصعد بها إلى حافة القناة. كانت سمكة ثقيلة والخادم يحملها على صدره ورأسها تحت ذقنه وذيلها يتدلّى بين ساقيه.

Twitter: @ketab_n

ربّتَ العديد من الرجال على ظهر الفتى احتفاء به، وقبلته امرأة من سوق السمك. ثم أحاطته الفتاة بذراعيها وقبّلته فقال لها: «هل رأيتها؟».

وتوجّه الجميع لرؤية السمكة وهي ملقاة على جانب الطريق، فضيّة كالسالمون، وظهرها براق داكن في لون معدن بندقية صيد. كانت سمكة جميلة ممتلئة ذات عينين مفعمتين بالحياة، وأخذت تتنفس ببطء وانكسار.

- «ما نوعها؟».

قال: «الذئب. من فصيلة سمك القاروس. ويسمونه «البار» أيضاً. إنه نوع مدهش من السمك. هذه أكبر واحدة رأيتها في حياتي».

وتوجّه الخادم واسمه «أندريا»، إلى ديفيد فأحاطه بذراعيه وقبّله ثم قبّل الفتاة.

قال: «هذا شيء يستحقّ التهنئة، يا سيدتي. حقيقة شيء يستحق. فلم يحدث على الإطلاق أن أصطاد أحدٌ سمكةً كهذه بمثل هذه الأدوات».

قال ديفيد: «من الأفضل أن نَزِنها».

كانوا قد دخلوا المقهى، ونحّى الشابّ أدوات الصيد جانباً، بعد الوزن، واغتسل، ووضعت السمكة على لوح من الثلج المجلوب بسيارات الشحن من «نيم» لتثليج محصول صيد السمك الأسقمري. بلغ وزن السمكة أكثر من خمسة عشر رطلاً. وظلّت، وهي فوق الثلج، فضية اللون جميلة، لكن لون ظهرها تحول إلى اللون الرمادي. عيناها وحدهما لم تزل فيهما حياة. كانت قوارب صيد الأسقمريّ قد عادت في تلك اللحظة، وقامت النسوة بتفريغ حمولة السمك اللامع بألوانه الزرقاء والخضراء والفضية في سلال، وحَمْلِ هذه السلال الثقيلة على رؤوسهن إلى مخزن السمك. كان صيداً وفيراً والمدينة مشغولة وسعيدة.

سألت الفتاة: «ما الذي سنفعله بهذه السمكة الكبيرة؟».

فقال الشاب: «سيأخذونها ويبيعونها. إنها كبيرة جداً حتى نقوم بطهوها هنا، وهم يقولون إنّه من الحماقة أن نقطعها. من المحتمل أن يرسلوها إلى باريس مباشرة. ويكون مستقرّها بأحد المطاعم الكبيرة. أو ربما يشتريها رجل ثريّ جداً.

قالت: «كان منظرها جميلاً جداً في الماء، وكذلك عندما رفعها اندريا.». لم أستطع أن أصدق أنها بمثل هذا الحجم عندما رأيتها من النافذة، وأنت وحشد من الجمهور يتبعك».

Twitter: @ketab_n

- «سنحصل على واحدة صغيرة لنا لنأكلها، وستكون رائعة جداً. واحدة صغيرة تشوى بالزبد والأعشاب. ستكون مثل شرائح سمك القاروس في البيت».

قالت: «لقد أسعدني صيد السمكة. ألم نحظ بقدر من المتعة الرائعة؟».

كانا يشعران بالجوع لتناول وجبة الغداء، وكانت زجاجة النبيذ الأبيض باردة، فأخذا يشربان وهما يأكلان الكرفس والفجل الصغير ومخللاً بيتياً من وعاء كبير. كان سمك القاروس مشوياً وآثار أسياخ الشواء تبدو على قشرته الفضيّة، والزبد ذائباً في الطبق الساخن. كما كان ثمة شرائح من الليمون لعصرها على السمك وخبز طازج جلب من المخبز، وذلك النبيذ الذي كان يبرد ألسنتهم من حرارة البطاطس المحمرة، نبيذ أبيض غير معروف من نوع جيّد، غير حلو، لكن المطعم كان فخوراً بتقديمه.

قالت الفتاة: «نحن لسنا متحدّثين بارعين أثناء الطعام، هل أضايقك يا عزيزي؟».

ضحك الشاب.

- «لا تسخر مني، يا ديفيد».

- «أنا لا أسخر منك، كلا. أنت لا تضجرينني. فأنا أشعر بالسعادة لمجرد النظر إليك، حتى لو لم تنطقي بكلمة أبداً».

صبّ لها كأساً صغيرة أخرى من النبيذ، وملأ كأسه.

قالت الفتاة: «لدي مفاجأة كبيرة، لن أقولها لك. هل أقولها؟».

- «أي نوع من المفاجآت؟».

- «أوه إنها بسيطة جداً، لكنها معقدة جداً».

- «قوليها لي».

- «كلا. ربما أعجبتك وربما لم تستطع أن تتقبّلها».

- «يبدو أنها خطيرة جداً».

قالت: «إنها خطيرة بالفعل. لكن لا تسألني، سأذهب إلى غرفتي لو سمحت».

دفع الشاب حساب الغداء وشرب النبيذ المتبقّي في الزجاجة. ثم صعد إلى الدور العلويّ. كانت ملابس الفتاة مطويّة على أحد كراسي «فان جوخ» وهي في انتظاره في السرير والغطاء يسترها. كان شعرها مُرسلاً على الوسادة وعيناها تضحكان، ورفع هو الغطاء فقالت: «أهلاً يا عزيزي، هل تناولت غداء طيباً؟».

بعد أن استلقيا معاً وذراعه تحت رأسها، سعيدين مسترخيين، شعر بها تحرك رأسها

Twitter: @ketab_n

من جانب إلى جانب وهي تمسحه بخدّه. كان ملمس شعرها ناعماً، لكنه بدا مشوّشاً من أثر الشمس والبحر. وكان منسدلاً على وجهها حتى أنه لمسه بينما كان رأسها يتحرك، وقد بدأت تداعبه بظرف واستطلاع، ثم قالت له برقّة: «هل تحبّني حقاً، هل تحبّني؟».

فأومأ برأسه وقبّل رأسها ثم أدارها واحتواها بين راحتيه وقبّلها في شفتيها.

فقالت: «أوه، أوه».

واستلقيا فترة طويلة يحتضن كل منهما الآخر بشدة. قالت:

- «وهل تحبّني تماماً بالشكل الذي أنا عليه؟ هل أنت متأكد؟».

قال: «نعم. ونعم جداً جداً».

- «ذلك لأنني سأتحوّل».

قال: «لا، لا. لن تتحوّلي».

قالت: «بل سأتحوّل، وهذا من أجلك. ومن أجلي أيضاً، لا أودّ أن أتظاهر بغير ذلك. لكن هذا يعني شيئاً بالنسبة لك. أنا على ثقة من ذلك، لكن لا ينبغي أن أفصح عنه».

- أنا أُحبّ المفاجآت، غير أنني أُحب أن يجري كل شيء بالطريقة نفسها التي تجري بها الأمور في هذه اللحظة».

قالت: «إذن ينبغي ألاّ أفعلها. أوه! أنا حزينة، لقد كانت مفاجأة هائلة، مدهشة وخطيرة. فكرت فيها عدّة أيام، ولم أتخذ قراراً حتى هذا الصباح».

- افعليها، لو كنت في حاجة إليها حقاً».

قالت: «إنها كذلك، وسأفعلها. لقد أعجبك كل ما فعلناه حتى الآن، أليس كذلك؟».

- «نعم».

- «لا بأس».

انزلقت من فوق السرير ووقفت معتدلة بساقيها الطويلتين السمراوين وجسدها الجميل الذي اكتسب سمرة كاملة من ذلك الشاطىء البعيد الذي يسبحان فيه دون ملابس البحر. ودفعت كتفيها إلى الخلف وذقنها إلى أعلى وهزّت رأسها فانسدل شعرها الأصفر المشوب بالسمرة حول خدّيها، ثم انحنت إلى الأمام فانسدل وغطّى وجهها. ارتدت القميص المقلّم من أعلى رأسها ثم هزّت رأسها ثانية وجلست على الكرسيّ أمام المرآة

Twitter: @ketab_n

القائمة على طاولة الزينة، ومشطت شعرها إلى الخلف وهي تنظر إليه متفحّصة. كان يبلغ كتفيها. هزّت رأسها أمام المرآة. ثم ارتدت بنطلونها الفضفاض وربطته بالحزام وانتعلت حذاءها الأزرق الفاتح المتين.

قالت: «يجب أن أذهب إلى «أيجيس مورتس».

قال: «عظيم، سأذهب معك أيضاً».

- «لا. ينبغي أن أذهب وحدي. فهذا متّصل بالمفاجأة».

قبّلته مودّعة وانصرفت، فأخذ يراقبها وهي تركب دراجتها ماضية على الطريق في سهولة ويسر وشعرها يتطاير في الهواء.

* * *

كانت شمس ما بعد الظهر حينذاك تغمر النافذة، والحجرة حارّة للغاية. وقد اغتسل الشابّ وارتدى ملابسه وذهب يتمشى على الشاطىء. كان يودّ أن يسبح، لكنه كان متعباً، وبعد أن سار بمحاذاة الشاطىء ثم في ممرّ تتخلّله أعشاب بحرية، يؤدّي إلى طريق في منطقة داخلية، عاد منه إلى الشاطىء ومنه إلى الميناء ثم صعد إلى المقهى. وفي المقهى وجد الصحيفة، وطلب لنفسه براندي بالماء لأنه شعر بالجوع الشديد من أثر ممارسة الحب.

كان قد تزوّجا منذ ثلاثة أسابيع ووصلا إلى «أفينيون» قادمين من باريس بالقطار، ومعهما دراجتاهما، وحقيبة كبيرة تحتوي على ملابسهما وحقيبة من القماش، وحقيبة تُحمل على الظهر. أقاما في فندق فخم في «أفينيون» وتركا الحقيبة الكبيرة هناك وفكرا في الذهاب بالدراجات إلى «بونت دي جارد»، لكن رياح «الميسترال» كانت تهبّ، فاتجها معها إلى «نيم» ومكثا بعض الوقت في مقهى الامبراطور ثم ركبا دراجتيهما إلى «أيجيس مورتس» والريح الشديدة ما فتئت تهبّ خلفهما حتى وصلا إلى «ليجرودي روا» وبقيا هناك منذ ذلك الحين.

كانت الأمور تسير بشكل رائع، وكانا سعيدين حقاً، ولم يكن يعرف أن بإمكان المرء أن يحب إنساناً ما بهذا الشكل الكبير، لدرجة عدم الاهتمام بأيّ شيء آخر، ويبدو ما عداه غير موجود. كان لديه مشاكل كثيرة عندما تزوج، لكنه لم يفكر في أيّ منها، ولا في الكتابة، ولا في أيّ شيء فيما عدا أن يكون مع هذه الفتاة التي أحبها وتزوّج بها، ولم يعد يعتريه ذلك الصفاء الفجائي الهائل الذي كان يحدث له دائماً بعد الجماع.

لقد انتهى ذلك. أما الآن، عندما كانا يمارسان الحب، فقد كانا يأكلان ويشربان

Twitter: @ketab_n

ويمارسان الحب ثانية. كان عالماً بسيطاً جداً خاصة وأنه لم يستشعر السعادة الحقيقية أبداً مع أيّ إنسان آخر. اعتقد أن الوضع لا بدّ أن يكون كذلك بالنسبة لها، وبالتأكيد كانت تتصرّف على هذا النحو، لولا ما حدث اليوم بخصوص التحوّل والمفاجأة. لكن من المحتمل أن يكون تحولاً سعيداً ومفاجأة طيبة. وقد جعله البراندي الممزوج بالماء الذي احتساه، عندما كان يقرأ الصحيفة المحلية، يسرح متأملاً فيما حدث.

كانت هذه هي المرة الأولى منذ أن بدأ رحلة شهر العسل التي يتناول فيها شراباً من البراندي أو الويسكي دون أن يكونا معاً. لكنه لم يكن يكتب، وكانت مبادئه الخاصة تجاه الشارب، بألاّ يشرب إطلاقاً قبل الكتابة، أو أثناءها. لا شك أنّ من الجيد أن يعاود العمل، لكن ذلك سيأتي في حينه كما يعرف جيداً، كما ينبغي عليه أن يتذكر ألاّ يكون أنانياً بصدد ذلك، وأن يجعل مسألة الكتابة هذه واضحة على قدر ما يستطيع، وأن مسألة العزلة المفروضة هذه، ستكون شيئاً مؤسفاً، وهو ليس فخوراً بها. كان على يقين بأنها سوف تتقبّل ذلك بشكل لطيف، وسيكون لديها مبرراتها، لكنه كره أن يفكر في الكتابة، في العمل، في البدء فيها وهما في مثل تلك الظروف التي هما فيها الآن، لا يمكن أن يبدأ أبداً دون أن يكون هناك وضوح بالطبع، وتساءل عما إذا كانت قد عرفت ما يفكّر فيه، وأن ذلك هو السبب الذي دفعها للتفكير فيما هو أبعد من الواقع والبحث عما هو جديد حتى لا يتحطّم شيء. لكن ماذا يمكن أن يكون ذلك الشيء؟ لا يمكن لهما أن يكونا ألصق ببعضهما أكثر مما هما عليه الآن، ولن يكون هناك سوء فهم بعد ذلك. ستكون هناك السعادة فقط، ورغبة كُل منهما في الآخر، ثم الجوع والتزود بالأكل والبدء من جديد.

اكتشف أنه شرب البراندي الممزوج بالماء وأن الوقت تجاوز الظهيرة بكثير. طلب زجاجة أخرى وبدأ يركّز في قراءة الصحيفة. لكن الصحيفة لم تثر اهتمامه، وبينما كان يتطلع إلى البحر وشمس آخر النهار الثقيلة تطغى عليه سمع صوتها المخنوق وهي قادمة إلى المقهى قائلة: «هاللو يا عزيزي».

أقبلت مسرعة إلى المنضدة وجلست ورفعت ذقنها ناظرة إليه بعينيها الضاحكتين ووجهها الذهبي المنمش. كان شعرها مقصوصاً مثل الأولاد. ليس بين بين ولكن بشكل قاطع، ممشطاً إلى الخلف وكثيفاً كالعادة، لكن الجانبين قُصّا بدرجة كبيرة، حتى أن أذنيها اللتين كانتا غير ظاهرتين على جانبي رأسها، أصبحتا ظاهرتين، كذلك قصّ الشعر الداكن في رأسها حتى المنبت بشكل متدرّج إلى الخلف وناعم.

وقالت: «قبّلني أرجوك».

قبّلها وتطلّع إلى وجهها وإلى شعرها وقبّلها ثانية..

Twitter: @ketab_n

قالت: أيعجبك؟ تحسّس كم هو ناعم».

تحسّس شعرها من الخلف.

- «تحسّس خلفيّ وما قبل أُذنيّ. مرّر أصابعك على جانبيْ رأسي».

قالت: «أترى؟ هذه هي المفاجأة. أنا فتاة. لكنني الآن ولد أيضاً، وأستطيع أن أفعل أيّ شيء، أي شيء، وأيّ شيء».

قال: «اجلس هنا إلى جواري، ماذا تريد، يا أخ؟

قالت: «أوه شكراً لك. سيكون لي حقوقك نفسها». ألا ترى أن المسألة خطيرة؟ أليس كذلك؟

- «نعم. أُدرك ذلك».
- «ولكن ألم أُحْسِن صُنعاً بفعلي هذا؟».
- «ربما».
- «لا تقل ربما. كلا. لقد فكرت في ذلك. فكرت فيه مليّاً. لماذا يتحتّم علينا أن نلتزم بقواعد الآخرين؟ ما نحن إلا نحن».
- «لقد استمتعنا بوقت طيّب ولم أشعر بالتزام نحو أيّ قواعد».
- «هل تسمح فقط وتضع يدك على شعري ثانية؟».

فعل ذلك وقبّلها.

قالت: «كم أنت لطيف! وأنت معجب بشعري فعلاً. أستطيع أن أشعر بذلك وأن أقوله. ليس هناك ما يجبرك على أن تحبّه. فلتعجب به في البداية فقط».

قال: «أنا معجب به. خاصة ولك مثل هذا الرأس الجميل الذي يزداد جمالاً مع بروز وجنتيك اللطيفتين».

سألته: «ألا يعجبك لدى الجانبين؟ إنها ليست مجرد تصفيفة شعر أو شيء من هذا القبيل. بل هي قَصّة ولد حقيقية وليس مجرد موضة».

- «من الذي قَصّه لك؟».
- «الحلاّق في «ايجيس مورتيس»، الحلاّق نفسه الذي قصّ شعرك منذ أسبوع. لقد طلبت أنت منه أن يقصّ شعرك بطريقة معيّنة، فطلبت أنا منه أن يقصّ شعري بالطريقة نفسها. كان لطيفاً جداً ولم يدهش على الإطلاق. لم ينزعج على الإطلاق، قال لي: بالضبط مثل شعرك؟ فقلت بالضبط. ألا يعني ذلك شيئاً بالنسبة لك، يا ديفيد؟»

Twitter: @ketab_n

قال: «أجل».

- «سيعتقد ضيّقو الأفق أن ذلك شيءٌ غريب. لكننا ينبغي أن نكون مزهوّين بذلك. أنا أُحبّ أن أكون مزهوّة».

جلسا هناك في المقهى يرقبان انعكاس الشمس الغاربة فوق البحر والغسق وهو يزحف على المدينة، وشربا البراندي الممزوج بالماء.

توافد الناس على المقهى ولم تصدر عنهم تلميحات غير مهذّبة عند رؤيتهم للفتاة، لأنهما كانا الأجنبيين الوحيدين في القرية، وقد أقاما الآن أكثر من ثلاثة أسابيع، وكانت هي ذات جمال رائع فأعجبوا بها. ثم ما كان من أمر اصطياد السمكة اليوم، وبالطبع دار حوار كثير عن ذلك الموضوع، لكن ذلك الأمر الآخر كان حدثاً كبيراً بالنسبة للقرية أيضاً. فلم يحدث على الإطلاق أن قصّت الفتيات المهذّبات شعورهن على هذا النحو في هذه المنطقة، وحتى في باريس. فلقد كان ذلك نادراً وغريباً، ومن الممكن أن يكون مقبولاً أو مستهجناً جداً، من الممكن أن يعني ذلك الكثير جداً، أو من الممكن أن يعني فقط إظهار جمال تكوين الرأس الذي لا يظهر أبداً في العادة.

أكلا شرائح اللحم نصف المطهوّة وبطاطس مهروسة ولوبيا صغيرة وسلاطة، وسألته إذا كان من الممكن أن يشربا «التافل» قائلة «إنه نبيذ عظيم للذين هم في حالة حبّ».

فكّر ديفيد، لقد كانت دائماً تتصرّف بما يتفق وسنّها بالضبط، التي كانت حينئذٍ واحداً وعشرين عاماً. وكان فخوراً بها جداً من أجل ذلك. لكنها الليلة لم تَبْدُ على هذا النحو، فعظام خديها كانت تبدو واضحة بطريقة لم يرها أبداً من قبل، وعندما ابتسمت بدا على وجهها أنها منكسرة القلب.

* * *

كانت الحجرة مظلمة فيما عدا ضوء بسيط يأتي من الخارج. كان الجوّ بارداً حينئذٍ بفضل النّسيم، ولم يكن غطاء السرير موجوداً عليه.

- «ديف»، ألا يضيرك لو ذهبنا إلى التهلكة؟

قال: «كلا، يا فتاة».

- «لا تنادني بفتاة».

قال: «حينما أحتويك فأنت فتاة».

احتوى نهديها وما حولهما بين يديه بشدة وأخذت أصابعه تنبسط وتنفرج مستشعراً إيّاها تلك النضارة النافرة بين أصابعه.

Twitter: @ketab_n

قالت: «إنها مواهبي ليس إلا. والجديد يكمن في مفاجآتي. تحسَّسْ، كلا، اتركهما، سيكونان موجودين مكانهما، تحسَّس خدّي وخلف رقبتي. أوه يبدو ملمسه رائعاً جداً وحلواً ونظيفاً وجديداً. أرجو أن تحبّني يا ديفيد بالشكل الذي أنا عليه. أرجو أن تفهمني وتحبّني».

كان قد أغمض عينيه واستطاع أن يستشعر ثقل جسدها الطويل الخفيف فوقه، ونهديها يضغطان على صدره وشفتيها فوق شفتيه. وبينما هو راقد أحسّ بشيء ما، وإذ بيدها تتحسّسه وتبحث في أسفل فساعدها بيديه، بعد ذلك استلقى في الظلام ولم يكن يفكر في أيّ شيء على الإطلاق، وأحس فقط بالاكتئاب والغربة في داخله. قالت «الآن، ليس في استطاعتك أن تقول أيّنا هو الآخر، أتستطيع؟».

- «كلا».

قالت: «أنت تتحول، أوه تتحوّل. أنت تتحوّل. نعم أنت تتحوّل وأنت فتاتي كاترين. أرجوك أن تتحوّل وتصبح فتاتي وتَدَعَني أحتويك!

- «أنت كاترين».

- «لا. أنا بيتر. أنت فتاتي الرائعة كاترين. أنت جميلتي المحبوبة كاترين. كم كنت رائعاً جداً حتى تتحوّل. أوه، أشكركَ يا كاترين، كثيراً جداً. أرجو أن تفهم. أرجو أن تعلم وتفهم. سأمارس الحب معك إلى الأبد».

في النهاية كان كلاهما منهكاً للغاية وجائعاً، لكن الأمر لم ينته. رقدا جنباً إلى جنب في الظلام وأرجلهما متلامسة ورأسها على ذراعه. كان القمر قد طلع وكان بالحجرة شيء قليل من الضوء. مرّت بيدها في استكشاف أسفل بطنه دون أن تنظر وقالت:

- «هل تعتقد أنني شريرة؟».

- «بالطبع لا. لكن منذ متى فكرت في ذلك؟».

- «ليس طوال الوقت. لكن فكرت بما فيه الكفاية. كم كنت رائعاً حتى سمحت لذلك أن يحدث».

وضع الفتى ذراعيه حول الفتاة واحتضنها بشدّة وأحسّ بنهديها الرائعين على صدره وقبّلها في فمها الحلو. احتضنها بشدّة، وداخله كان يقول وداعاً، ووداعاً، ووداعاً.

- «دعينا نستلق ساكنين جداً وهادئين يحتضن كل منا الآخر ولا نفكر على الإطلاق». قال ذلك على حين كان قلبه يقول وداعاً يا كاترين. وداعاً يا فتاتي الحبيبة، وداعاً، وحظاً سعيداً، ووداعاً.

Twitter: @ketab_n

الفصل الثاني

نهض واقفاً وجال ببصره عبر الشاطىء. سدّ زجاجة زيت دهان البشرة بالفلّينة ووضعها في جيب جانبيّ للحقيبة القماش، ثم سار ناحية البحر مستشعراً الرمال وهي تغدو أكثر برودة تحت قدميه. نظر إلى الفتاة وهي مستلقية على ظهرها على الشاطىء المنحدر، عيناها مغمضتان، وذراعاها إلى جنبيها، وخلفها شمسية مربّعة من قماش الأشرعة، والأجمات الأولى لحشائش الشاطىء. فكر أنّه لا ينبغي عليها أن تظلّ طويلاً في هذا الوضع والشمس تسقط مباشرة عليها. بعد ذلك واصل سيره مندفعاً في المياه الباردة، وانقلب ليسبح على ظهره في عرض البحر، ويراقب الشاطىء من خلال الضربات المنتظمة لساقيه وقدميه، واستدار في الماء غائصاً إلى أسفل حتى القاع ولمس الرمال الخشنة مستشعراً ثقل كثبانها، ثم ارتفع إلى السطح سابحاً على صفحة المياه، مراقباً كيفية إبطاء إيقاع ضرباته في سباحة الصدر. وخرج من البحر متجهاً ناحية الفتاة فوجدها نائمة. أخرج ساعة يده من الحقيبة القماش ليعرف متى يحسن أن يوقظها. كانت ثمة زجاجة نبيذ أبيض باردة ملفوفة داخل ورق جرائد، وحولها واحدة من مناشفهما. انتزع سدادتها دون أن يزيل الجريدة أو المنشفة، وأخذ رشفة باردة من تلك اللفافة المشوّشة. ثم جلس يرقب الفتاة متطلّعاً إلى البحر.

وفكّر: دائماً ما يكون هذا البحر أبرد مما يبدو، ولا يصبح دافئاً حقاً إلا في منتصف الصيف، فيما عدا الشواطىء الضحلة، هذا الشاطىء ينحدر فجأة والمياه كانت باردة جداً حتى أنه لم يستشعر الدفء إلا بعد السباحة. أخذ يتطلع إلى البحر وإلى السحب العالية ولاحظ كيف كانت مجموعات من قوارب الصيد تعمل على بعد ناحية الغرب. ثم تطلع إلى الفتاة النائمة على الرمال الساكنة الجافّة حينذاك، والتي ما لبثت أن بدأت تتطاير بلطف مع

Twitter: @ketab_n

حركة الريح عندما تحركت قدماه.

أثناء الليل شعر بيديها تلمسانه. وعندما استيقظ كان ضوء القمر ساطعاً، وقامت ثانية بطقوس «السحر الأسود» للتحوّل، فلم يعترض عندما تحدثت إليه موجّهةً إليه الأسئلة، وأحسّ بالتحول لدرجة آلمته تماماً، وعندما انتهى الأمر بعدما أصبح كلاهما منهكاً كانت ترتعش، وهمست له: «الآن قد فعلناها، الآن نحن فعلناها حقاً».

فكر، أجل. لقد فعلناها الآن حقاً. وعندما استغرقت في النوم فجأة كفتاة مجهدة، تمدّدت إلى جانبه بحبّ، في ضوء القمر الذي أظهر الخطوط الجديدة الغريبة الجميلة لرأسها بينما كانت نائمة على جنبها، انحنى فوقها وقال لها بصوت خفيض: «أنا معك. ورغم أيّ شيء آخر تفعلينه في رأسك، أنا معك، وأحبّك».

في الصباح، كان يتضوّر جوعاً لتناول طعام الإفطار، لكنه انتظرها حتى تستيقظ. أخيراً قبّلها فاستيقظت وابتسمت ونهضت والنُّعاس يراودها فاغتسلت في الحوض الكبير، وجلست قبالة المرآة في كرسيّ كبير ومشّطت شعرها وهي تنظر في المرآة دون أن تبتسم، ثم ابتسمت ولمست خدّيها بأطراف أصابعها، وارتدت قميصاً مقلّماً من أعلى رأسها ثم قبّلته. وقفت مشدودة حتى أن نهديها كانا يضغطان على القميص وقالت: «لا تقلق يا ديفيد. ها أنا أعود فتاتك الحبيبة مرة ثانية».

لكنه كان قلقاً جداً آنذاك، وفكّر: ماذا عساه أن يصبح عليه حالنا لو أن الأمور مضت بمثل هذا الهياج والخطورة، والسرعة، ماذا يمكن أن يكون هناك ويؤدي إلى الاحتراق بالنار إلاّ نزقٌ مثل ذلك؟ لقد كنا سعيدين وأنا على يقين أنها كانت سعيدة، لكن من يدري على الإطلاق؟ ومن أنت حتى تحكم، وأنت الذي شاركت وقبلت هذا التحوّل وعايشته؟ إذا كان ذلك ما تريده هي فمن أنت حتى تثنيها عن عزمها؟ أنت محظوظ أن يكون لديك زوجة مثلها، وما هو إلا إثمٌ منك أن تشعر بما تشعر به من ضيق فيما بعد، ولا تحس وقتها أنّه كذلك. قال لنفسه: أنت لا تشعر بالضيق مع النبيذ، لكن ماذا ستشرب، عندما لا يكون النبيذ كافياً بالنسبة لك؟

أخرج زجاجة الزيت من الحقيبة القماش ووضع قليلاً من الزيت على ذقن الفتاة وعلى خديها وعلى أنفها، وأخرج منديلاً أزرق كالح اللون مطرزاً من جيب الحقيبة القماش وطرحه على صدرها.

سألته الفتاة: «أنا أعيش حلماً رائعاً للغاية.. أينبغي عليّ أن أتوقّف؟».

قال: «فَلْتَنْهي هذا الحلم».

Twitter: @ketab_n

- «أشكرك».

وأخذت تتنفّس بعمق لدقائق قليلة ثم هزت رأسها وجلست.

- «دعنا نذهب إلى البحر الآن».

اتّجها إلى البحر وسبحا ولعبا تحت الماء مثل الدلافين. عندما انتهيا من السباحة جفّف كل منهما للآخر بالمناشف، وناولها زجاجة النبيذ التي لم تزل باردة وملفوفة بورق الجرائد وتناول كل منهما جرعة، ونظرت إليه وابتسمت.

قالت: «شراب منعش لريّ العطش. هل يضايقك حقيقة أن نكون أخوين؟».

- «كلا».

دهن جبهتها وأنفها ووجنتيها وذقنها بالزيت ثم دهن ما خلف أذنيها بحرص.

- «أريد أن يكتسب ما خلف أذني ورقبتي ووجنتي اللون الأسمر. كل الأماكن الجديدة».

قال: «أنت أخ أسمر فظيع. ألا ترين كم أنت سمراء؟».

قالت الفتاة: «يعجبني ذلك. وأوّد أن أكون أكثر سمرة».

استلقيا على رمال الشاطىء الثابتة الجافّة، التي لم تزل باردة بعد أن انحسر المدّ العالي. وضع الشاب بعض الزيت في راحة يده ونشره برقّة على فخذي الفتاة، فأصبحتا متورّدتين متوهّجتين بعد أن تشربت بشرتها الزيت. وواصل نشر الزيت على بطنها ونهديها. فقالت الفتاة وهي ناعسة: «نحن لا نبدو أشْبَهَ بأخوين، عندما نكون على هذا النحو، أليس كذلك؟».

- «كلا».

قالت: «أنا أحاول أن أكون فتاة طيّبة جداً. حقيقة لا ينبغي أن تقلق يا عزيزي حتى يحلّ الليل. فنحن لن ندع أمور الليل تُمارَس بالنهار».

في الفندق كان ساعي البريد يتناول شراباً، انتظاراً للفتاة كي توقّع باستلام مظروف كبير ثقيل مرسل إليها يحتوي على عدّة خطابات من مصرفها في باريس. وكان به ثلاثة خطابات عليها عنوان مصرفه أيضاً. أعطى الشاب ساعي البريد خمسة فرنكات ودعاه إلى شرب كأس من النبيذ معه في المشرب الأبيض بالفندق. أخذت الفتاة المفتاح المعلّق على اللوحة وقالت: «سأصعد إلى الحجرة وأغتسل وأقابلك في المقهى».

بعد أن شرب كأسه ودّع ساعي البريد، وسار على طريق الفتاة حتى المقهى. كان من

Twitter: @ketab_n

المفيد أن يجلس في الظل بعد عودته سائراً عاري الرأس في الشمس من الشاطىء البعيد، خاصة وأن الجو في المقهى كان لطيفاً ورطباً. طلب شراب «الفيرموث» «وصودا» وأخرج مطواته من جيبه وشرع يفتح خطاباته. كانت الخطابات الثلاثة من ناشريه، وكان اثنان منها متضخّمين بقصاصات جرائد ومسودّات الإعلانات. حملق في القصاصات ثم قرأ الخطاب الطويل. كان سارّاً ومدعماً بالتفاؤل. لقد كان الوقت مبكراً جداً للتعرّف على ردّ فعل الكتاب، لكن كل شيء بدا على ما يرام، إذ أن معظم التقارير كانت ممتازة. بالطبع كان هناك بعض الملاحظات. لكن ذلك كان متوقّعاً. والجمل التي وضعت تحتها خطوط في التقارير هي التي من المحتمل أن تستخدم في الاعلانات القادمة. كان ناشره يتمنّى أن يقول له المزيد عن تأثير الكتاب، لكنه لم يُعْطِ تنبؤات أبداً إلا طبقاً للمبيعات. كان ذلك شيئاً سخيفاً، وحجّته في ذلك أن الكتاب لم يستقبل بشكل أفضل. والواقع أن الكتاب حظي باستقبال مثير حقاً. وكان في وسعه أن يرى القصاصات. فالطبعة الأولى كانت خمسة آلاف نسخة، واستناداً إلى قوة التقارير فقد أُمر بالطبعة الثانية. والاعلانات المرتقبة لا بد أن تحمل عبارة «والآن في طبعتها الثانية». كان ناشره يأمل في أن يكون سعيداً سعادة هو خليق بها، وأن يحظى بالراحة التي يستحقّها. وبعث بأطيب تمنياته إلى زوجته.

استعار الشاب قلم رصاص من الخادم وبدأ يضرب ٢,٥ دولار في الألف. كانت عملية سهلة. عشرة بالمئة من هذا المبلغ تساوي مئتين وخمسين دولاراً، مضروبة في خمسة، فيكون المبلغ ألفاً ومئتين وخمسين دولاراً، يُطرح منها سبعمئة وخمسون دولاراً سعر التكلفة، فيصبح الباقي إذن خمسمئة دولار مكتسبة من الطبعة الأولى.

وهناك الآن الطبعة الثانية. ولنفرض أنها ألفان. والنسبة فيها ١٢,٥٪ في خمسة آلاف دولار. هذا إذا كان العقد ينصّ على ذلك. في هذه الحالة يكون المبلغ ستمئة وخمسة وعشرين دولاراً. لكن ربما لا ترتفع النسبة إلى ١٢,٥٪ حتى عشرة آلاف نسخة. على أيّ الأحوال ما زال هناك خمسمئة دولار، ويبقى هناك ألف.

بدأ في قراءة التقارير، واكتشف أنه شرب «الفيرموث» دون أن يلحظ ذلك على الإطلاق، فطلب واحداً آخر وأعاد القلم إلى الخادم، ظل يقرأ التقارير حتى حضرت الفتاة ومعها مظروف خطاباتها الثقيل.

قالت: «لم أكن أعلم أنها ستأتي. دعني أراها، أرجوك دعني أراها».

أحضر الخادم لها كأس «الفيرموث» وبينما كان يضعه رأى الصورة أثناء ما كانت الفتاة تفض إحدى قصاصات الجرائد.

Twitter: @ketab_n

فقال: «أهذا هو سيدي؟».

- «نعم، إنه هو». قالت ذلك وهي ترفعها إلى أعلى لكي يراها.

فقال الخادم: «لكن الملابس مختلفة. هل كتبوا عن الزواج؟ أتسمحين لي بمشاهدة الصورة يا مدام؟».

- «ليس عن الزواج. بل هو نقد لكتاب من تأليف السيد».

فقال الخادم وقد تأثّر تأثراً عميقاً: «رائع، والمدام مؤلِّفة كذلك؟».

فقالت الفتاة دون أن ترفع نظرها عن القصاصات: «كلا، المدام ربّة بيت» فضحك الخادم بزهو: «لا بدّ أنّ المدام تعمل في السينما».

قرأ الاثنان القصاصات ثم نحّت الفتاة القصاصة التي كانت تقرأها جانباً وقالت: «أنا خائفة من هذه القصاصات ومن كل ما جاء فيها. كيف يمكن أن نكون نحن، ولدينا ما لدينا، ونفعل ما نفعله، وتكون أنت هذا الذي في القصاصات؟».

قال الشاب: «هذا ليس شيئاً جديداً عليّ، قد يكون وقعها سيّئاً بالنسبة لك، لكنه لن يدوم».

قالت: «إنها مزعجة. من الممكن أن تدمّرك لو أنك فكرت فيها، أو صدّقتها. أتعتقد أنني تزوجّتك لأنك أنت الذي يكتبون عنه في تلك القصاصات، أتعتقد ذلك؟».

- «كلا. أريد أن أقرأها وبعد ذلك نضعها في الظروف ونغلقه».

- «أعرف أنك لا بد أن تقرأها. لا أريد أن أتغابى عنها. لكن حتى لو وضعناها داخل مظروف، فإنه من البغيض أن تكون موجودة لدينا. فذلك مثل الاحتفاظ برفات شخص ما داخل وعاء».

- «كثير من الزوجات يسعدن لو أن أزواجهن التعساء كتب عنهم مقالات نقدّية جيدة».

- «أنا لست من هؤلاء الناس. وأنت لست زوجي التعس. أرجوك لا تدعنا نتشاجر».

قال لها: «لن نتشاجر. اقرأيها، وإذا كان بها أي شيء جيّد قولي لي، وإذا كانوا يقولون عن الكتاب إنه عبقرية ونحن لا نعرف، قولي لي. إن الكتاب قد حقّق بعض الايرادات فعلاً».

Twitter: @ketab_n

- «هذا شيءٌ رائع. وأنا سعيدة جداً. لكننا نعرف أنّه جيّد. وحتى لو قالت التقارير إنه شيء لا قيمة له ولم يحقق شيئاً على الإطلاق، فإنني سأكون فخورة بقدر ما أكون سعيدة».

وفكر الشاب: أنا لن أكون كذلك. لكنه لم يقل ذلك. وواصل قراءة التقارير، يفضّها ويطويها ثانية ويضعها داخل المظروف. جلست الفتاة تفتح مظاريفها وتقرأ خطاباتها دون اهتمام. ثم تطلّعت من المقهى إلى البحر. كان لون وجهها خليطاً من البّني الداكن والذهبيّ، وقد مشطت شعرها عند جبهتها إلى الوراء بشكل مستقيم، بالطريقة نفسها التي يكون عليها عندما تخرج من مياه البحر، أما جانبا رأسها حيث قُصّ الشعر بالقرب من أعلى وجنتيها فقد أحرقتهما الشمس وأصبحا أبيضين ذهبيّين بالمقابلة مع لون بشرتها البنّيّ. تطلعت إلى البحر فبدت عيناها حزينتين جداً. ثم عادت إلى فتح الخطابات. كان من بينها خطاب مكتوب على الآلة الكاتبة، قرأته بتركيز. ثم واصلت فتح الخطابات الأخرى وقرأتها. تطلّع الشاب إليها وتخيّل أنها تبدو صغيرة كما لو أنها قرن بازلاء.

سألها الشاب: «ماذا في الخطابات؟».

- «بعضها به شيكات».

- «شيكات ذات مبالغ كبيرة».

- «اثنان».

قال: «هذا رائع».

- «لا تشطح بخيالك بعيداً. فأنت تقول دائماً إن ذلك سيّان عندك».

- «وهل قلت أنا شيئاً؟».

- «كلا، بل شطح خيالك».

قال: «أنا آسف. ما قيمة كل منهما؟».

- «ليس كثيراً في الواقع. لكن تكفينا. لقد أودع المبلغ في حسابي لأنني تزوّجت. لقد أخبرتك أن أفضل شيء بالنسبة لنا أن نتزوّج. أعلم أن هذا المبلغ لا يعدّ بمثابة رأس مال، لكنه مجرد مبلغ للإنفاق منه. يمكننا أن نصرفه، ولن يضير ذلك أحداً، وهو لهذا الغرض، ولا علاقة له بالدخل المنتظم ولا بما أحصل عليه حتى لو عشت حتى سنّ الخامسة والعشرين أو حتى الثلاثين. هذه نقودنا ونفعل بها أيّ شيء نريد أن نفعله. ولا داعي لأن يقلق كلانا بخصوص الأرصدة لفترة ما، فالأمر غاية في البساطة».

فقال: «لقد غطّى الكتاب ثمن التكلفة وحقّق ربحاً قدره حوالي ألف دولار».

Twitter: @ketab_n

- «أليس ذلك رائعاً جدّاً عندما يكون الكتاب قد صدر لتوّه؟
- «لا بأس» ثم سألها: «هل نتناول كأساً أخرى من ذلك الصنف؟».
- «دعنا نشرب شيئاً آخر».
- «كم كأساً شربت من «الفيرموث»؟».
- «واحدة فقط. لم تكن مستساغة».
- «شربت كأسين ولم أستسغها على الإطلاق».
قالت: «أليس هناك صنف أصيل؟».

- «هل شربت أبداً «الأرماجانس» بالصودا؟ شراب أصيل بما فيه الكفاية».

- «عظيم. دعنا نجرّبه».

أحضر الخادم شراب «الأرماجانس» وطلب منه الشاب أن يحضر زجاجة «مياه بيريه» باردة بدلاً من الصودا. وصبّ الخادم كمية كبيرة من «الأرماجانس» في الكأسين، فأضاف الشابّ إليهما الثلج ومياه «بيريه».

قال: «سيجعلنا هذا الشراب أكثر انتعاشاً. من الفظيع أن نتناول هذا الشراب قبل الغداء».

أخذت الفتاة رشفة طويلة وقالت: «شراب رائع. طازج ونظيف وصحّيّ وإن كان رديء الطَّعْم». وأخذت رشفة أخرى طويلة وقالت: «أستطيع أن أستسيغه حقيقة. هل أنت كذلك؟».

قال: «نعم» وأخذ نفساً عميقاً وأضاف: «أستطيع أن أستسيغه».

شربت من الكأس وابتسمت، وظهرت تجاعيد من أثر الضحك في ركني عينيها. لقد جعلت مياه بيريه البراندي الثقيل أكثر إنعاشاً.

قال: «في صحّة الأبطال».

قالت: «لا يهمّني أن أكون بطلة. نحن لسنا مثل الآخرين. لا ينبغي علينا أن ننادي بعضنا يا عزيزتي أو عزيزي أو حبّي، فلا شيء من ذلك له أهميّة. فكلمة يا عزيزي وعزيزتي ويا أعزّ من لديّ وما إلى ذلك ما هي إلا كلمات قَذِرة، فلننادِ بعضنا بأسمائنا المجرّدة. أنت تعرف ما أحاول قوله. لماذا يتحتّم علينا أن نفعل الأشياء نفسها مثل الناس الآخرين؟».

- «أنت فتاة ذكية جداً».

قالت: «لا بأس، يا ديفي. لماذا يتحتّم علينا أن نكون جامدين؟ لماذا لا نواصل

Twitter: @ketab_n

ونرحل الآن طالما لم يعد هنا مزيد من المتعة؟ سنفعل كل ما تريده. حتى لو أردت أن تكون أوروبياً، ومعك محامٍ، فإن نقودي ستكون نقودك. إنها نقودك بالفعل».

- «تبّاً للنقود!».

- «لا بأس. تبّاً للنقود! لكننا سنصرفها وهذا على ما أعتقد شيء رائع. تستطيع الكتابة فيما بعد. بهذه الطريقة يمكننا أن نستمتع قبل أن يكون لديّ طفل يشغلني. كيف يتسنّى أن أعرف حتى لو رزقت بطفل؟ أعتقد الآن أن الكلام يبدو سخيفاً ومملاً. ألا نستطيع فقط أن ننفّذ ذلك ولا نتكلم عنه؟».

- «لكن ماذا لو أنني أردت الكتابة؟ ففي اللحظة التي ينوي المرء فيها عمل أيّ شيء، فمن المحتمل أن تجعله راغباً في الكتابة».

- «إذن أكتب يا أحمق، ألم تقل إنك لن تكتب. فلم يذكرأحد شيئاً عن التضرّر لو أنك كتبت، أليس كذلك؟».

لكنه كان قد قيل شيء ما في مكان ما بصدد ذلك ولم يستطع أن يتذكّره الآن، لأنه كان شارد الفكر، هو أبعد من ذلك.

- «إذا أردت أن تكتب فهيّا. وأنا سوف أسلّي نفسي، هل ينبغي عليّ أن أتركك وأنت تكتب؟».

- «لكن أين تريدين منا أن نذهب الآن، عندما يبدأ الناس في التوافد إلى هنا؟

- «إلى أيّ مكان تريد أن تذهب إليه، هل سنفعل ذلك يا ديفيد؟».

- «لأيّة مُدّة؟».

- «لأطول مدة ممكنة حسبما نرغب. ستة شهور. تسعة شهور. سنة».

قال: «لا بأس».

- «صحيح؟»

- «بالتأكيد».

- «أنت رائع جداً. لو أنني لم أحبّك من أجل أيّ شيء آخر، لأحببتك لقراراتك».

- «ما أسهل أن نصدرها، ما دمنا لا نرى الكثير منها قد وُضع موضع التنفيذ».

شرب مشروب الأبطال، لكنه لم يستطب مذاقه، فطلب زجاجة «مياه بيريه» طازجة وباردة وأعدّ لنفسه شراباً صغيراً دون ثلج.

- «جهّز لي واحداً من فضلك، صغيراً مثل كأسك. ثم دعنا نبدأ بتناول الغداء».

Twitter: @ketab_n

الفصل الثالث

في تلك الليلة عندما كانا لا يزالان مستيقظين في الفراش قالت له في الظلام:

- «لا داعي أن نفعل دائماً تلك الأفعال الشيطانية، أرجو أن تعرف ذلك».

- «أعرف».

- «أنا أحب اللقاء بالطريقة التي كنا نمارسه بها من قبل، وأنا دائماً فتاتك، لا تكن منعزلاً أبداً. أنت تعرف ذلك. أنا كيفما تريد، لكنني كيفما أريد أيضاً، وليست المسألة وكأنها ليست ذات أهمية بالنسبة لكلينا. لا تتكلم. أنا فقط أحكي لك حكاية لتنام لأنك زوجي الحبيب الطيّب وأخي أيضاً. أنا أحبّك وعندما تذهب إلى أفريقيا، سأصبح فتاتك الأفريقية كذلك».

- «هل سنذهب إلى أفريقيا؟».

- «ألن نذهب؟ ألا تذكر؟ ذلك ما دار حوله حديث اليوم. يمكننا الذهاب إلى هناك أو إلى أي مكان آخر. أليس ذلك هو المكان الذي سنذهب إليه؟

- «لماذا لم تقولي ذلك؟»

- «لم أرد أن أتدخل. أنا قلت حيثما تريد أنت، فأنا أودّ الذهاب إلى أي مكان. لكنني اعتقدت أن ذلك هو المكان الذي كنت ترغب في الذهاب إليه».

- «أن الوقت سابق لأوانه للذهاب إلى أفريقيا الآن. فهناك أمطار غزيرة بالإضافة إلى الأعشاب العالية جداً، وهي باردة جداً».

- «يمكننا أن نتدثر في الفراش ونحافظ على دفئنا ونسمع صوت سقوط المطر فوق السطح الصفيح».

Twitter: @ketab_n

- «كلا، الوقت سابق لأوانه جداً. فالطرق تتحول إلى طين، ولا يمكنك التجوّل، ويصبح كلّ مكان أشبه بالمستنقع والأعشاب تطول وتحجب الرؤية».

- «إذن إلى أين ينبغي أن نذهب؟».

- «يمكننا الذهاب إلى اسبانيا، لكن الوقت غير مناسب لاشبيلية» وكذلك «سان ايزدرو» في «مدريد»، إن الوقت سابق لأوانه بالنسبة لها كلها، كذلك فالوقت سابق لأوانه بالنسبة لشاطىء «الباسك». فما زال الجو بارداً وممطراً. إنها تمطر في كل مكان هناك الآن».

- «أليس هناك أيةُ منطقة حارة يمكننا السباحة فيها بالطريقة التي نسبح فيها هنا؟»

- «لا يمكنك السباحة في اسبانيا بالطريقة التي تفعلينها هنا. وإلاّ قُبِضَ عليك».

- «يا له من ضجر! دعنا ننتظر إذن حتى نذهب إلى هناك، لأنني أودّ أن يصبح كلانا أكثر سمرة».

- «لماذا تودّين أن تكوني سمراء جداً؟».

- «لا أدري، لماذا ترغب في أيّ شيء؟ حتى الآن هذا هو الشيء الذي أرغبه كثيراً. أعني ذلك الشيء الذي نفتقده. ألا يبهجك أن أغدو سمراء جداً؟».

- «آه ـ ها. أنا أحب ذلك».

- «ألم تتخيّل أنّ باستطاعتي أن أكون بهذه السمرة أبداً؟».

- «كلا، لأنك شقراء».

- «بل أستطيع لأنني بلون الأسد، ذلك اللون الذي يمكن أن يغدو داكناً، لكنني أود أن يكون كل جزء من جسمي داكناً، وهو في طريقه إلى ذلك، وأنت ستغدو أكثر سمرة من هنديّ، وذلك ما يميّزنا كثيراً عن الناس الآخرين. أترى لماذا هذا مهمّ».

- «وماذا سنكون نحن؟».

- «لا أدري، ربما لا نكون إلاّ نحن فقط. مجرد تغيير فقط ربما يكون ذلك أفضل شيء. وسوف نحافظ عليه، أليس كذلك؟».

- «بالتأكيد، سوف نذهب إلى منطقة «الايسترال» لنكتشف مكاناً آخر بالطريقة نفسها التي وجدنا بها هذا المكان».

- «يمكننا أن نفعل ذلك. فهناك كثير من الأماكن المهجورة لا يوجد فيها أحد في

Twitter: @ketab_n

الصيف. بإمكاننا الحصول على سيارة، نستقلّها إلى حيث نريد. اسبانيا أيضاً عندما نريد. وحين نكتسب هذه السمرة الداكنة فلن يكون من الصعب الحفاظ عليها، إلا إذا عشنا داخل المدن، ونحن لا نريد أن نكون داخل المدن في الصيف».

- «إلى أيّ مدى تودّين أن تكوني سمراء؟».

- «على قدر ما أستطيع. سوف ترى. أتمنّى لو كان يجري في عروقي بعض الدماء الهندية. سأغدو سمراء جداً لدرجة لن تستطيع تقبّلها. أنا لا أقوى على الانتظار حتى غد للذهاب إلى الشاطىء».

وراحت تتهيّأ للنوم وهي على هذا النحو، رأسها ملقى إلى الخلف وذقنها مرفوعة إلى أعلى وكأنها تتعرض إلى الشمس على الشاطىء، متنفسة بنعومة، ثم انطوت على جنبها والتصقت به، على حين استلقى الشاب متيقظاً، وفكر في أحداث اليوم. فكّر: من الممكن جداً أنني لم أستطع البدء في الكتابة، لأن ذلك يرجع إلى أنني لم أفكر فيها على الإطلاق، واستمتعت فقط بما نحن فيه. عندما أنوي العمل سأعمل، ولن يستوقفني شيء. الكتاب الأخير كان جيّداً، ويتحتّم علي الآن أن أكتب كتاباً أفضل. إن هذا الهراء الذي تفعله شيء ظريف، رغم أنني لا أعرف مدى ما فيه من هراء ومدى ما فيه من جدّية. فشرب البراندي وقت الظهيرة ليس بالشيء المكروه، وكذلك تناول المشهّيات لا يعني شيئاً، لكن تلك علامة لا تبشّر بخير. فهي تتحوّل من فتاة إلى ولد ثم تعود إلى فتاة، ببساطة شديدة وبسعادة. إنها تنام بسهولة وبجمال، وأنت ستنام أيضاً لأن كل ما تعرفه حقاً أنك على صواب. فكّر: أنت لم تقم ببيع أي شيء للحصول على نقود. كل شيء قالته عن النقود كان صادقاً. في الواقع كان كلّ شيء صحيحاً. كان كل شيء طليقاً لفترة من الوقت.

لكن ماذا كان ذلك الشيء الذي قالته عن التدمير؟ لم يستطع تذكّر ذلك. من المؤكد أنها قالته لكنّه لم يستطع تذكّره.

بعد ذلك أدركه التعب من محاولة التذكّر، فنظر إلى الفتاة وقبّل خدّها برقّة شديدة، ولم تستيقظ. لقد أحبّها كثيراً، وأحبّ كلّ ما يخصّها، وتهيّأ للنوم وهو يفكّر فيها وشفتاهُ على خدّها، وكيف سيغدو كل منهما أكثر سمرة من تعرّضهما للشمس في اليوم التالي. وفكر: إلى أيّ مدى من السمرة القاتمة تستطيع أن تكون، وإلى أيّ مدى من السمرة ستكون في الواقع؟».

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الجزء الثاني

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الفصل الرابع

كان الوقت متأخراً بعد الظهر والسيارة الصغيرة المنخفضة تقطع الطريق الأسفلت عبر التلال والمرتفعات والمحيط الأزرق الداكن على اليمين دائماً، حتى وصلا إلى منطقة هادئة مليئة بالأشجار تكتنف شاطئاً منبسطاً يمتد مسافة ميلين من الرمال الصفراء في «هنداي». وعلى شاطىء المحيط مباشرة كانت تطلّ واجهة فندق كبير، وكازينو، وإلى اليسار أشجار مزروعة حديثاً ومقاصير على طراز «الباسك» بيضاء ناصعة، تحوط حدائقها وأزهارها أسوارٌ من الخشب البنّيّ. وسار الشابان بالسيارة ببطء داخل منطقة الأشجار يتطلعان إلى ذلك الشاطىء الرائع وإلى جبال اسبانيا التي بدت زرقاء في ضوء تلك الفترة، بينما كانت السيارة تمرّ بالكازينو والفندق الكبير حتى بلغا نهاية الأشجار. هناك كان يقوم مصبّ النهر الذي يفيض في المحيط. كان المدّ قد انحسر، وعبر الرمال الناصعة رأيا المدينة الإسبانية القديمة، والتلال الخضراء عبر الخليج، والفنار على مرمى البصر. وأوقفا السيارة.

قالت الفتاة: «مكان خلاّب».

فقال الشاب: «هناك مقهى، موائده تحت الأشجار. أشجار عتيقة».

قالت الفتاة: «أشجار من نوع غريب. مغروسة كلّها حديثاً. وأنا أتساءل: لماذا قاموا بزرع أشجار السنط؟».

- «لنقارن بينها وبين المكان الذي جئنا منه».
- «أعتقد ذلك. كلها تبدو جديدة بشكل مدهش. يا له من شاطىء رائع. لم أر شاطئاً بمثل هذا الاتساع في فرنسا ولا بمثل نعومة رماله ورقتّها. شاطىء «بياريتز» مخيف. دعنا نعود بالسيارة حتى المقهى».

Twitter: @ketab_n

عادا بالسيارة من الجانب الأيمن للطريق. أوقف الشاب السيارة عند حاجز الانتظار وأوقف المحرك. عبرا الشارع إلى ذلك المقهى المفتوح، وكانت سعادة بالنسب لهما أن يأكلا وحدهما، ويكونا على وعي بالناس الذين لا يعرفانهم، وهم يأكلون على الموائد الأخرى.

في تلك الليلة هبّت الريح، ومن حجرتهما الكائنة في زاوية بأعلى الفندق الكبير سمعا صوت ارتطام الأمواج بالشاطىء. سحب الشاب بطانية خفيفة فوق الغطاء في الظلام، وقالت الفتاة:

- «ألست سعيداً لأننا قرّرنا البقاء؟».
- «أنا أحب سماع تلاطم الأمواج».
- «وأنا كذلك».

استلقيا ملتصقين واستمعا إلى صوت البحر. كان رأسها على صدره وأخذت تحركه ملامسة ذقنه، ثم تحركت إلى أعلى في الفراش ووضعت خدّها على خدّه وضغطت عليه. قبّلته واستشعر يدها تتلمّسه.

قالت في الظلام: «ذلك جميل. ذلك لطيف. هل أنت متأكد من أنك لا تريدني أن أتحوّل؟».

- «ليس الآن. أنا مقرورٌ الآن. أرجوك احتضنيني ودفّئيني».
- «أنا أحبّك عندما تحسُّ بالبرودة وأنت إلى جواري».
- «إذا كان الجوّ بمثل هذه البرودة في الليل فينبغي علينا أن نرتدي منامتين. سيكون من الطريف أن نتناول طعام الإفطار في الفراش».

قالت: «إصْغ. إنه المحيط الأطلنطي».

قال لها: «سنقضي وقتاً ممتعاً أثناء وجودنا هنا. إذا رغبت سنبقى هنا لفترة. وإذا رغبت سنسافر، فهناك العديد من الأماكن نذهب إليها».

- «من الممكن أن نبقى لعدة أيام قليلة ونرى».
- «عظيم. إذا حدث فأنا أودّ أن أبدأ الكتابة».
- «سيكون ذلك مدهشاً. سوف نتجول غداً. يمكنك أن تعمل هنا في الحجرة حين أكون أنا في الخارج، هل تستطيع؟ إلى أن نجد مكاناً آخر؟».
- «بالتأكيد».

قالت: «أنت تعلم أنه لا داعي لأن تقلق عليّ أبداً، لأنني احبّك، ولأننا بالذات

Twitter: @ketab_n

نختلف عن كلّ الآخرين، أرجوك قبّلني».

قبّلها.

ـ «أنت تعلم أنني لم أفعل أيّ شيء يُسيء إلينا. وإنما لا بدّ أن أفعل. أنت تفهم ذلك».

لم يقل هو أيّ شيء وأنصت إلى ثقل ارتطام الأمواج المتساقطة على الرمال الصلبة المبتلّة في الليل.

في صباح اليوم التالي، كانت الأمواج ما تزال ثائرة والأمطار تهطل كأفواه القرب. لم يستطيعا رؤية الساحل الإسباني! لكن عندما صفت السماء من الأمطار المصحوبة بالريح، استطاعا رؤية الخليج هناك، عبر البحر الثائر، تغطّيه سحبٌ كثيفة وصلت إلى رؤوس الجبال. كانت كاترين قد خرجت ترتدي معطف مطر وتركته يعمل في الحجرة. سارت الكتابة ببساطة وسهولة حتى أنه اعتقد أن ما كتبه لا قيمة له. فقال لنفسه: كن حذراً، لا شك أنه لا بأس بالنسبة لك أن تكتب ببساطة، فالأبسط هو الأفضل. لكن لا تعتقد أبداً أن البساطة بمثل هذه السهولة. فلتعلم كم هي معقّدة، وما عليك إلا أن تصوغها ببساطة. هل تظنّ أن الفترة التي كانت في «لجرودي روا» بمثل هذه البساطة، لأنك استطعت أن تكتب عنها القليل في بساطة؟.

واصل الكتابة بقلم رصاص في دفتر مدرسيّ رخيص مسطّر، يسمّى كراسة كتب عليها رقم واحد بالأرقام اللاتينية. وأخيراً توقّف ووضع الدفتر في الحقيبة مع العلبة الكارتون للأقلام الرصاص، والمبراة، تاركاً الأقلام الخمسة وقد انتهت سنونها، ليبريها في اليوم التالي، وأخذ معطف مطره من على المشجب في حجرة صغيرة ملحقة، ونزل على السلّم إلى ردهة الفندق. ألقى نظرة على حانة الفندق بعتمتها المبهجة أثناء سقوط المطر وكان بها بعض الزبائن بالفعل، وترك مفتاح حجرته بمكتب الاستقبال. واتجه موظّف الاستقبال إلى صندوق البريد، بينما كان يعلّق المفتاح وقال له: «لقد تركت لك السيدة هذه المذكرة يا سيدي».

فتح المذكرة التي كُتب فيها: «ديفيد، لم أرد إزعاجك، أنا موجودة في المقهى. كاترين المحبّة» ارتدى المعطف القديم المنقوش ووجد بداخل جيبه غطاء للرأس، فخرج من الفندق سائراً تحت المطر.

كانت تجلس إلى مائدة في ركن من المقهى الصغير وأمامها شراب مشوب بلون أصفر مغبش، وطبق به قطعة واحدة صغيرة حمراء داكنة من الجمبري وبقايا أخرى. كانت

Twitter: @ketab_n

شاردة عنه تماماً فسألها: «أين كنت، أيتها الغريبة؟».

- «كنت أتمشى في الطريق لفترة».

لاحظ أن وجهها مبتلّ من المطر، وركز على ما فعله المطر في بشرتها السمراء الداكنة. بدت جميلة جداً رغم ذلك، وكان سعيداً لرؤيتها على هذا الحال.

سألت الفتاة: «هل كتبت جيداً؟».

- «جيّد بما فيه الكفاية».

- «إذن فقد عملت. هذا عظيم».

كان الخادم يقوم بخدمة ثلاثة اسبانيين كانوا يجلسون إلى مائدة مجاورة للباب. فلم يلبث أن حضر حاملاً كأساً وزجاجة عادية من شراب «البيرنود» وإبريق ماء صغيراً ضيّق الرقبة. كان بالماء قطع من الثلج فسأل: «لسيدي أيضاً؟».

فقال الشاب: «أجل، لو سمحت».

وصب الخادم في كأسيهما الطويلتين شراباً أصفر خفيفاً حتى منتصفهما، وبدأ يصب الماء ببطء في كأس الفتاة. لكن الشاب قال: «سأقوم أنا بذلك»، وأخذ الخادم الزجاجة وانصرف. ويبدو أنه ارتاح لأخذه الزجاجة بعيداً وبدأ الشاب يصب الماء على هيئة خطّ رفيع وأخذت الفتاة تراقب سحب «الأبسينيث» المُتألقة. شعرت بدفء الكأس عندما رفعتها بأصابعها وفقدت لونها الأصفر، وبدأ يتحوّل إلى لون الحليب، ويبرد بسرعة، وترك الشاب الماء يسقط على هيئة نقط لفترة.

قالت الفتاة: «لماذا يتحتّم صبّ الماء ببطء؟».

فشرح لها: «لو أن الماء صبّ بسرعة فإن الشراب يتخثّر إلى أجزاء، ويصبح فاتراً لا قيمة له. وينبغي أن يكون هناك كوب مليء بالثلج حتى حافته وبه فتحة صغيرة للماء الذائب عن الثلج لكي يصبّ منه. حتى يتسنى لكل إنسان أن يعرف ذلك».

قالت الفتاة: «ينبغي أن أشرب كأسي بسرعة، لأن هناك اثنين من رجال الشرطة دخلا المقهى».

- «رجال الشرطة؟».

- «سيسألوننا عن جنسيّتنا، وهم يرتدون الملابس الكاكي ويركبون الدراجات وتتدلى من وسطهم أحزمة سوداء بمسدسات. ينبغي عليّ أن أبتلع دليل الاتهام».

- «تبتلعينه؟».

Twitter: @ketab_n

- «آسفة، فطالما ابتلعته فكيف أقرّ به».
- «ينبغي أن تكوني حذرة عند تناول «الا بسينيث».
- «إنه يجعلني فقط آخذ الأمور ببساطة أكثر».
- «ولا يفعل أي شيء آخر؟».

انتهى من إعداد شراب «الابسينيث» لها. وجعله معتدلاً. ورفعه قائلاً: «هيّا، اشربي. لا تنتظريني». أخذت رشفة طويلة ثم أخذ الكأس منها وشرب قائلاً: «أشكرك، يا سيدتي. هذا الشراب يكسب الرجل شجاعة».

قالت: «فلتعدّ كأسك. . . ، أنت يا قارىء القصاصات».
قال لها الشاب: «ماذا قلت؟».
- «أنا لم أقل شيئاً».

لكنها كانت قد قالت ذلك، فقال لها: «لم لا تكفّين أبداً عن ذكر القصاصات؟».
قالت: «لماذا؟» وهي تميل نحوه وتتكلم بصوت عالٍ جداً.

واستطردت: «لماذا ينبغي عليّ أن أكف؟ ألأنك فقط قمت بالكتابة هذا الصباح؟ أتعتقد أنني تزوجتك لأنك كاتب؟ تزوجتك أنت وقصاصاتك؟

قال الشاب: «لا بأس، أيمكنك أن تكملي باقي الموضوع عندما نكون وحدنا؟».

قالت: «لا تظنّ للحظة أبداً أنني لن أكمل».
قال: «لا أظن ذلك».
قالت: «لا تظنّ. من الممكن أن تكون على يقين».

وقف ديفيد بورن متجهاً ناحية المشجب فتناول معطف مطره وخرج من الباب دون أن ينظر خلفه.

على المائدة رفعت كاترين كأسها وتذوّقت شراب الأبسينيث بحرص شديد، وواصلت التذوق برشفات صغيرة.

فتح الباب وعاد ديفيد ثانية متجهاً إلى المائدة. كان يرتدي معطف مطره وغطاء رأسه مشدوداً إلى الأمام على جبهته.

- «هل معك مفاتيح السيارة؟».
قالت: «نعم».
- «أيمكنني أخذها؟».

Twitter: @ketab_n

أعطته المفاتيح لكنها قالت: «لا تكن غبياً يا ديفيد. إنه المطر. وكنت أنت الإنسان الوحيد الذي يعمل. اجلس».

- «أتريدينني أن أجلس؟».

قالت: «أرجوك».

جلس. فكر، إن ذلك تصرّف غير سليم. تنهض وتخرج لتأخذ السيارة الملعونة وتبقى بالخارج ساخطاً عليها، ثم تأتي لتسألها عن المفاتيح، ثم تجلس كالساذج. تناول كأسه وأخذ شراباً. كان الشراب جيداً بأي حال.

سألها: «ما الذي تنوينه بخصوص الغداء؟».

- «قل أنت أين وسآكل معك. أنت ما زلت تحبّني، أليس كذلك؟

- «لا تكوني حمقاء».

قالت كاترين: «كان شجاراً مؤسفاً».

- «وأوّل شجار كذلك».

- «كانت غلطتي، بسبب القصاصات».

- «دعينا لا نذكر تلك القصاصات اللعينة».

- «كان كل ما حدث بسببها».

- «أنت التي فكرت فيها عندما كنت تشربين. طرحتها للمناقشة لأنك كنت تشربين».

قالت: «يبدو أن ذلك كان اندفاعاً مني. شيء فظيع. والحقيقة أن لساني انزلق بمجرد نكتة».

- «لا بدّ أن ذلك كان يدور برأسك، حتى طرحتها بهذا الشكل».

قالت: «لا بأس. أعتقد أن الأمر كله ربما يكون قد انتهى!».

- «انتهى».

- «حسناً، فلماذا تواصل الإصرار والإصرار على الكلام فيه حتى الآن؟».

- «لم يكن ينبغي علينا تناول هذا الشراب».

- «أجل، بالطبع. خاصّة بالنسبة لي. لكنك بالتأكيد كنت في حاجة إليه. أتعتقد أنه سيفيدك بشيء؟».

سألها: «أينبغي أن نفعل ذلك الآن؟».

Twitter: @ketab_n

ـ «أنا بالتأكيد سأوقف ذلك. فذلك يضجرني».

ـ «هذه هي الكلمة الوحيدة في اللغة التي لا أستطيع أن أطيقها».

ـ «أنت محظوظ لأنك لا تطيق سوى كلمة واحدة في اللغة مثل هذه».

قال: «أوه، كفى. تناولي غداءك وحدك».

ـ «كلا. لن أفعل. سنتناول الغداء معاً وسنتصرف مثل الآدميين».

ـ «لا بأس».

ـ «أنا آسفة. لقد كانت نكتة في الحقيقة وفجّرت كل ذلك. حقيقة يا ديفيد. كان ذلك كل ما في الأمر».

Twitter: @ketab_n

الفصل الخامس

كان المدّ قد انحسر بعيداً عندما استيقظ ديفيد والشمس تسطع على الشاطىء والبحر أزرق داكن. وبدت التلال خضراء مغتسلة والسحب قد تلاشت من فوق الجبال. كانت كاترين ما تزال نائمة، فتطلّع إليها وراقب تنفُّسها المنتظم والشمس تسقط على وجهها، وفكّر: من الغريب ألاّ تستيقظ والشمس تسقط على عينيها.

بعد أن أخذ حمّاماً ونظف أسنانه وحلق ذقنه، كان يتوق جوعاً لطعام الإفطار، لكنه ارتدى بنطلوناً قصيراً وقميصاً، وأحضر دفتره وأقلامه والمبراة، وجلس إلى المنضدة بجوار النافذة التي تطل مباشرة على مصب النهر القادم عبر اسبانيا. بدأ الكتابة، ونسي كل ما يتعلق بكاترين وما رآه من النافذة، وتدفّقت الكتابة من تلقاء نفسها كما يحدث عندما يكون محظوظاً. كتب كما ينبغي تماماً، أما الجزء المشوش من الكتابة فلم يبرز إلا كالزبد الخفيف لموجة ناعمة في يوم هادىء تكشف عما تحتها من صخور.

بعد أن عمل لفترة، تطلّع إلى كاترين التي لم تزل نائمة، شفتاها مبتسمتان في تلك اللحظة وأشعة الشمس المستقيمة القادمة من النافذة المفتوحة تسقط على لون جسدها البنّيّ، وتضيء وجهها الداكن، ورأسها الأشقر المشوب بسمرة فوق الملاءة البيضاء المجعدة والوسادة التي لم تستعمل. فكر بأن الوقت أصبح متأخراً جداً في تلك اللحظة لتناول الإفطار. سأترك لها ورقة وأذهب إلى المقهى لتناول قهوة بالقشدة وشيئاً ما، لكن بينما كان يضع أدوات الكتابة في مكانها المعتاد استيقظت كاترين وذهبت إليه بينما كان يغلق الحقيبة فأحاطته بذراعيها وقبّلته في عنقه من الخلف قائلة: «ها أنذا زوجتك الكسولة العريانة».

Twitter: @ketab_n

- «لماذا استيقظت؟».
- «لا أدري. لكن قل لي إلى أين أنت ذاهب وسأكون هناك خلال خمس دقائق».

- «أنا ذاهب إلى المقهى لتناول شيء للإفطار».
- «اذهب وسوف ألحق بك. لقد كتبت، أليس كذلك؟».
- «بالتأكيد».
- «لقد كنت رائعاً بعد كل ما حدث بالأمس. أنا فرحة جداً. قبّلني ودعنا ننظر إلى نفسينا في مرآة باب الحمّام».

قبّلها، ونظر الاثنان في المرآة بطولهما.

قالت: «من اللطيف جداً أن تشعر بأنك لا ترتدي أكثر من اللازم. كن لطيفاً ولا تثر أيّ مشاكل في طريقك إلى المقهى. اطلب لي بيضة بلحم الخنزير أيضاً. لا تنتظرني. أنا آسفة لأنني جعلتك تنتظر طويلاً جداً من أجل الإفطار».

في المقهى وجد صحيفة الصباح وصحف باريس الخاصة بالأمس، وتناول قهوته بالحليب وقطعة من لحم الخنزير، وبيضة طازجة نثر عليها فلفلاً مجروشاً ونشر عليها قليلاً من الخردل قبل أن يكسر الصفار. وعندما تأخرت كاترين وخشي على بيضتها أن تبرد أكلها أيضاً، وترك الصحن نظيفاً بعد أن مسحه بقطعة من الخبز الطازج.

قال الخادم: «عندما تحضر السيدة، سأحضر لها طبقاً آخر».

كانت ترتدي تنورة وقميصاً من الكشمير وعقداً. وكانت قد جفّفت رأسها، بعد أن مشطته وهو ما زال رطباً ومبتلاً، فلم يظهر لون شعرها الأشقر المشوب بالسمرة ليحدث ذلك التباين مع وجهها الأسمر الداكن إلى حد كبير.

قالت: «يا له من يوم جميل، آسفة لتأخري».

- «إلى أين تنوين الذهاب، بارتدائك هذه الملابس؟».
- «إلى «بيارتز». فكرت في الذهاب إلى هناك. أتريد أن تأتي؟».

- «أنت تريدين الذهاب وحدك».

قالت - «نعم. لكن مرحباً بك».
عندما نهض واقفاً قالت: «سوف أعود بمفاجأة لك».
- «كلا. أرجوك».
- «بلى. وسوف تعجبك».

Twitter: @ketab_n

- «دعيني أذهب معك. وأمنعك من فعل أي شيء مجنون».

- «لا. من الأفضل أن أفعلها وحدي. سأعود بعد الظهر. ولا تنتظرني على الغداء».

قرأ ديفيد الصحف ثم خرج يتجوّل في المدينة بحثاً عن «شاليه» للإيجار، أو عن حيّ في المدينة، يصلح للمعيشة فيه، فأكتشف أن المنطقة الحديثة البناء لطيفة لكنها مضرة. أحبّ المنظر عبر الخليج، ومصبّ النهر القادم عبر أسبانيا، وصخرة «فينترابيا» الرمادية القديمة، وإشراق المنازل البيضاء الذي ينبعث منها، والجبال البنية بظلالها الزرقاء. وتعجّب أن انقضت العاصفة سريعاً هكذا، واعتقد أنها ربما كانت نهاية العاصفة الشمالية التي هبّت على خليج «بيسكاي». و «بيسكاي» كان اسمها «فيزكايا»، لكن ذلك كان إقليم الباسك في أقصى جزء من الساحل بعد «سان اسباسبتيان» تماماً. والجبال التي رآها فيما وراء أسطح مدينة «ارن» الواقعة على الحدود كانت في «جيوبازوكا»، وبعدها تقع «نافارا» التي هي «نافاريه». فكر: لكن ما الذي تفعله هنا؟ ما أفعله ليس إلا التجوّل على شاطىء مصيف، أتفرّج على زهور الماجنوليا المزروعة حديثاً، وأشجار السنط العتيقة وأفتّش عن إعلانات شقق للإيجار وسط مقاصير الباسك الأنيقة. أنت لم تعمل بجدية تامّة هذا الصباح حتى يكون عقلك بمثل هذا التبلد، أو ربما لعلّك ما زلت متأثراً بما حدث أمس؟ أنت لم تعمل على الإطلاق حقيقة. ومن الأفضل أن تسرع، لأن كل شيء يمضي بسرعة جداً وأنت ستنجرف معه وستكون في غماره قبل أن تدرك ذلك. وربما تكون الآن في هذه الحالة. لا بأس. لا تبدأ. على الأقل فأنت تعي ذلك تماماً. وواصل تجواله خلال المدينة وقد شحذ الملل رؤاه وأثاره ما في اليوم من جمال موحش.

كان الهواء القادم من البحر يهبّ داخل الحجرة، وهو يقرأ مستنداً بكتفيه وجزء من ظهره على وسادتين وأخرى خلف رأسه. كان يشعر بالنعاس بعد الغداء، لكنه عندما أحس بالملل من انتظارها أخذ يقرأ وينتظر. بعد ذلك سمع البابُ يفتح ودخلت فلم يعرفها للحظة. وقفت هناك ويداها تحت نهديها فوق القميص الكشمير وهي تتنفّس كما لو أنها كانت تجري.

قالت: «أوه، لا. لا.».

ثم اندفعت فوق السرير تدفع رأسها تجاهه وهي تقول: «كلا. كلا. أرجوك يا ديفيد. لا تنظر إلي هكذا. أبداً!؟».

أمسك رأسها وقرّبها من صدره وأحسّ بشعرها الناعم وقد قُصّ بدرجة كبيرة بآلة

Twitter: @ketab_n

الحلاقة دون تهذيب، وأخذت تدفع رأسها بشدة في صدره، وتدفعه وتدفعه.

- «ما الذي فعلته، يا شيطانة؟».

فرفعت رأسها ونظرت إليه وأطبقت بشفتيها على شفتيه بشدّة وحركتهما من جنب إلى جنب وتحركت فوق السرير حتى أصبح جسدها جاثماً فوق جسده.

قالت: «الآن أستطيع أن أقول لك: أنا فرحة جداً. لقد كانت فرصة كبيرة لا تُعوّض. الآن أنا فتاتك الجديدة ومن الأفضل أن تكتشفها».

- «دعيني أرى».
- «سأريك، لكن دعني أذهب دقيقة».

عادت ووقفت بجوار السرير والشمس تسقط عليها من خلال النافذة. كانت قد خلعت السترة وكانت عارية القدمين ترتدي القميص فقط والعقد.

قالت: «فلتلق عليّ نظرة جيّدة، لأن ذلك ما أنا عليه».

تطلّع جيداً إلى الساقين الطويلتين، والجسد الممشوق والوجه الأسمر الداكن، ورأسها الأشقر الأسمر المنحوت، فنظرت إليه وقالت: «أشكرك».

- «كيف تسنّى لك أن تفعلي ذلك؟».
- «أأستطيع أن أقول لك ذلك في الفراش؟».
- «لو قلت لي بسرعة، يكون أفضل».
- «كلا. ليس بسرعة. دعني أقل لك. أولاً طرأت علي الفكرة هناك في الطريق بعد «أيكس ان بروفنس». وفي «نيم» عندما كنا نسير في الطريق فكرت. لكنني لم أعرف كيف أحقّق ذلك، أو كيف أصف لهم كيف يقصُّونه. ثم انتهيت من التفكير في ذلك بالأمس وقررت.

فمسح ديفيد بيده على رأسها بدءاً من عنقها حتى قمة رأسها وجبهتها.

قالت: «دعني أقل لك. كنت على ثقة أنه لا بد أن يكون لديهم في بيارتيز حلاّقون ممتازون للسيدات بسبب وجود الانجليز. لذا عندما وصلت إلى هناك ذهبت إلى أحسن محلّ وأخبرت الحلاّق أن كل ما أريده هو أن يمشّط شعري إلى الأمام. فمشطه إلى الأمام فوصل إلى أنفي واستطعت بالكاد أن أرى من خلاله، فقلت له: أريده أن يُقصّ مثل طراز قصّة الولد الذي يذهب إلى المدرسة الحكومية لأول مرة. سألني: أي مدرسة؟ فقلت: مدرسة «ايتون» أو مدرسة «ونشستر» لأن تلك كانت هي المدارس التي استطعت تذكّرها فيما عدا

Twitter: @ketab_n

مدرسة «راجبي» لأنني لم أكن أريد طراز مدرسة «راجبي». قال: أيّ الطرازين. فقلت له طراز مدرسة ايتون، على أن يكون الشعر منسدلاً إلى الأمام كله. وبعد أن انتهى بدوت مثل أجمل وأرقّ فتاة ذهبت إلى مدرسة ايتون على الإطلاق. فطلبت منه أن يواصل القصّ حتى تلاشى طراز مدرسة ايتون، وبعدها طلبت منه أن يواصل القصّ أيضاً. بعد ذلك قال بحدة شديدة: هذه ليست قصة «ايتون» يا آنسة. فقلت له: أنا لا أريد قصة «ايتون» يا سيدي. كانت تلك هي الطريقة التي استطعت بها أن أشرح له ما أريده، وأنا سيدة، ولست آنسة. وبالتالي جعلته يقصّه أكثر بعض الشيء، وهو في كلا الحالتين رائع أو مزعج. أعتقد أنه لن يضيرك إذا كان فوق جبهتي؟ لأنه عندما يكون على طراز ايتون يسقط فوق عيني.

- «إنه رائع».

قالت: «تقليدي جداً. يبدو مثل شعر حيوان. تَحسَّسْهُ».

تحسّس شعرها.

قالت: «لا تتضايق لأن شعري أصبح على هذا النحو. فمني يحدث نوعاً من التوازن. والآن هل بإمكاننا أن نمارس الحب؟».

مالت برأسها إلى الأمام فخلع عنها المقيص مروراً برأسها وما تحت ذراعيها ومال فوق رقبتها ليفكّ محبس العقد.

- «كلاّ، اتركه».

استلقت على السرير وساقاها البنيّتان مضمومتان إلى بعضهما ورأسها مطروح على الملاءة المنبسطة، وتزحلق العقد من فوق ثدييها السمراوين الناهدين. كانت عيناها مغمضتين وذراعاها إلى جنبيها. كانت فتاة جديدة تماماً، واكتشف أن فمها قد تغيّر أيضاً. كانت تتنفس بأناة شديدة وقالت: «لك أن تفعل كلّ شيء. من البداية. من بداية البداية».

- «هل هذه هي البداية؟».

- «أوه نعم. ولا تنتظر كثيراً جداً. كلا، لا تنتظر...».

خلال الليل استلقت ملتصقة به، رأسها تحت صدره تقلبه برقّة، متمسّحة به. ثم نهضت وأطبقت بشفتيها على شفتيه وأحاطته بذراعيها وقالت «أنت لطيف جداً وطيّع، وأنت نائم ولم تستيقظ، ولم تشأ أن تستيقظ. اعتقدت أنك لم ترغب في الاستيقاظ، وكان الأمر لطيفاً. كم كنت طيّعاً جدّاً لي. هل تصوّرت أنّ ذلك كان حلماً؟. لا تستيقظ. أنا في

Twitter: @ketab_n

طريقي إلى النوم لأنني إذا لم أنم فسأغدو فتاة شرسة . ستظلّ هي متيقظة وتقوم برعايتك . فلتنم أنت ولتعلم أنني هنا . فلتنم ، أرجوك» .

في الصباح عندما استيقظ، كان جسدها البديع الذي عرفه ، ممـدداً بالقـرب منـه ، فتطلّع إليه ورأى كتفيها بلون خشب الأبنوس ، ورقبتها ، ورأسها المقصوص الشعر بلونه الأشقر المشوب بالسمرة ، وهو ملقى على الفراش مثل حيوان صغير ، فدلف إلى الفراش ، ناحيتها وقبل جبهتها والشعر تحت شفتيه ، ثم عينيها ثم ثغرها برقة .

- «لقد نمت» .
- «وأنا كذلك» .
- «أعرف . كم هو غريب . كم كان رائعاً ، وغريباً أن ينام المرء طوال الليل» .
- «ليس هناك غرابة» .
- «فلتقل كذلك إذا أردت . أوه نحن نتوافق بشكل رائع . أيمكننا أن ننام الآن؟» .
- «إذاً كانت لك رغبة في النوم» .
- «بل أن يكون كلانا نائماً» .
- «سأحاول» .
- «هل أنت نائم؟» .
- «كلا» .
- «أرجوك حاول» .
- «أنا أحاول» .
- «أغمض عينيك إذن . كيف يمكنك أن تنام إذا لم تغمض عينيك؟» .
- «كم أحب أن أراك في الصباح جديدة وغريبة» .
- «ألم أكن موفقة بابتكاري ذلك؟» .
- «لا تتكلّمي» .
- «إنه السبيل الوحيد لتهدئة الأمور ، أنا هادئة بالفعل . أليس في وسعك أن تتكلم؟ يمكنك بالطبع ، ألا يمكنك أن تتكلم الآن والآن والآن ، مثلما يدقّ قلبانا معاً ، الشيء نفسه ، أعلم أن ذلك فقط ، هو الشيء الذي يهمّ ، لكننا لا نعتبره في منتهى الجمال ، ومنتهى الروعة ومنتهى الجمال . . . » .

عادت إلى الحجرة الكبيرة متّجهة إلى المرآة ، فجلست ومشّطت شعرها وأخذت تنظر إلى نفسها مدقّقة .

Twitter: @ketab_n

قالت: «دعنا نتناول إفطارنا في السرير. ويمكننا أن نشرب الشمبانيا إذا لم تكن تضرّ؟ إن عدم وجود نسبة السكر في شراب اللانسون مفيد جداً. هل أدقّ الجرس؟».

- «أجل».

قال ذلك وذهب ليأخذ حمّاماً. وقبل أن يفتح الرشّاش بكامل قوته سمع صوتها تتحدّث في التليفون.

عندما خرج كانت بشكل محتشم تسند ظهرها إلى وسادتين، وقد رتبت باقي الوسائد، كل اثنتين فوق بعضهما عند رأس السرير.

- «هل أبدو على ما يرام ورأسي مبتلّ؟».
- «إنه رطب وحسب، لقد جففته بالمنشفة».
- «بإمكاني قصُّ شعري أكثر عند الجبهة. أستطيع القيام بذلك بنفسي. أم تقوم أنت به؟».

- «كم أودّ لو أنه طال حتى يغطّي عينيك».

قالت: «من المحتمل أن يحدث. من يدري؟ وربما يضنينا الملل من كوننا تقليديين. اليوم سنبقى على الشاطىء طوال فترة الظهيرة. سنذهب إلى أقصى مكان ممكن على الشاطىء حتى نعرض أنفسنا للشمس بشكل حقيقي عندما ينصرف الناس للغداء، وبعدها نتّجه إلى سان جان ونأكل عندما نجوع في «بار الباسك». لكن اسمح لنا في البداية أن نقصد الشاطىء لأننا في حاجة إلى ذلك».

- «لا بأس».

حرك ديفيد كرسّياً جانباً، ووضع يده عليها فنظرت إليه وقالت: «منذ يومين فهمت كل شيء، لكن شراب الأبسنيت أهاجني».

قال ديفيد: «أعرف. لم تستطيعي احتماله».

- «لكنني آذيتك بكلامي عن قصاصات الصحف».

قال: «أبداً. أنت حاولت. ولم تقصدي ذلك».

- «أنا آسفة جداً، يا ديفيد. أرجو أن تصدّقني».
- «كل منا لديه أشياء غريبة تعني أشياء أخرى بالنسبة للآخرين. وأنت لم تستطيعي احتمال ذلك».

- «كلا».

Twitter: @ketab_n

قالت الفتاة ذلك وهزت رأسها.

قال ديفيد: «إذن كل شيء على ما يرام. لا تبكي. كل شيء على ما يرام».

قالت: «أنا لا أبكي. لكنني لا أستطيع احتمالها».

- «أنا أعرف ذلك وأنت تبدين جميلة عندما تبكين».

- «كلا. لا تقل ذلك. لكنني لم أبك أبداً من قبل، هل بكيت؟».

- «أبداً».

- «لكن هل يضرك لو بقينا هنا يومين فقط نقضيهما على الشاطىء؟ لم تسنح لنا الفرصة للسباحة، ومن الحماقة أن نكون هنا ولا نسبح. إلى أين سنذهب عندما نغادر هذا المكان؟ أوه. نحن لم نقرّر بعد. ربما نقرّر ذلك الليلة أو في الصباح. ما الذي تقترحه؟».

قال ديفيد: «أعتقد أن أيّ مكان سيكون رائعاً».

- «فلا بدّ أن يكون ذلك هو المكان الذي سنذهب إليه».

- «وهو مكان كبير».

- «من المبهج أن نكون وحدنا رغم ذلك، وسوف أقوم بحزم أمتعتنا».

- «ليس هناك الكثير لنفعله سوى أن نضع أدوات التجميل ونغلق الحقيبتين».

- «بإمكاننا مغادرة المكان صباحاً إذا أردت. وفي الحقيقة أنا لا أودّ أن أفعل أيّ شيء لك أو يكون لي آثار سيّئة عليك».

طرق الخادم الباب.

- «لا يوجد «بيرييه»، يا سيدتي، لذا فقد أحضرت شراب اللانسون».

كانت قد توقفت عن البكاء، وما زالت يد ديفيد عليها وهو يقول: «أنا أعرف».

Twitter: @ketab_n

الفصل السادس

قضيا فترة الصباح في «برادو»، وفي تلك اللحظة كانا يجلسان في مكان بُنيت جدرانه بأحجار ضخمة. كان المكان بارداً وقديماً جداً. براميل النبيذ الخشبية محيطة بالجدران والموائد من النوع القديم الثقيل، والمقاعد مستهلكة. والإضاءة تأتي من الباب. أحضر لهما الخادم كأسين من «المانزانيلا» المستجلب من منطقة بالأراضي المنخفضة بالقرب من «كاديز» تسمى «ماريسماس»، مع شرائح رقيقة من الجامبون سيرانو، وقطعة من لحم الخنزير المدخّنة، رُبيت خنازيرها على ثمار البلوط، بالإضافة إلى حساء الساليشون الأحمر المتّبل، وحساء آخر غامق اللون من مدينة تسمى «فيش»، وأنشوجة بالزيت والثوم. أكلا تلك الأصناف وشربا المزيد من «المانزانيلا»، التي كانت خفيفة ولها طعم اللوز.

كان على المائدة بجوار يد كاترين قاموس اسباني ـ انجليزي ذو غلاف أخضر، وأمام ديفيد كومة من صحف الصباح. كان يوماً حاراً، لكن الجوّ داخل المبنى القديم كان رطباً، وسألهما الخادم العجوز: «هل ترغبان في جازباشو؟» وملأ كأسيهما.

ـ «هل تظن أن السيدة ستعجب به؟».

ـ «فلنجرِّبْه» قال الخادم ذلك، بوقار كما لو أنه يتكلّم عن شيء عزيز المنال.

أحضر ذلك الصنف في إناء كبير مع ثلج يطفو وسط شرائح الخيار، والطماطم، وخبز الثوم، وفلفل أخضر وأحمر وسائل الفلفل المجروش الذي كان مذاقه أقرب إلى مذاق الزيت بالخلّ.

قالت كاترين: «أنه حساء سلاطة. لكنه لذيذ».

Twitter: @ketab_n

قال الخادم: «أنها الجازباشو».

شربا «الفالديناس» من وعاء كبير، وبدأ يحدث أثره مع المارسمينو بالإضافة إلى شعشعة حساء الجازباشو الذي كانا يتناولانه من حين إلى آخر. ولقد أحدث ذلك كله أثره بشكل راسخ.

سألت كاترين: «ما نوع هذا النبيذ؟».

قال ديفيد: «نبيذ إفريقي».

قالت كاترين: «يقولون دائماً إن أفريقيا تبدأ من عند جبال البرانس. وأذكر كم تأثرت عندما سمعت ذلك لأوّل مرّة».

قال ديفيد: «هذا قول لا أساس له من الصحة. إن الأمر أكثر تعقيداً من ذلك. اشربيه فقط».

- «لكن كيف يتسنّى لي أن أعرف من أين تبدأ أفريقيا، إذا لم أذهب إليها على الإطلاق؟. الناس يقولون دائماً أشياء خادعة».

- «بالتأكيد. على رأيك».

- «ولا شك أن اقليم الباسك لا يشبه أفريقيا أو أي شيء سمعته عن أفريقيا».

- «ولا حتى اقليم «أستورباس» ولا «جاليسا»، لكن لو حدث وعبرت الشاطىء فسرعان ما تكونين في أفريقيا».

سألت كاترين: «لكن لماذا لم يصوروا ذلك البلد قط؟ فالجبال تبدو بصفة دائمة في الخلفية بالقرب من أسكوريال».

قال ديفيد: «سلسلة الجبال ذات القمم المسنّنة. لم يرغب أحد في شراء صور «كاستيلا» بالطريقة التي رأيتها. لم يكن لديهم مصوّرو مناظر طبيعية قط. ولقد رسم الرسامون المناظر التي طلب منهم أن يرسموها».

قالت كاترين: «فيما عدا (جريكو توليدو). شيء مؤسف حقاً أن يكون لديهم مثل هذا البلد الرائع ولا يوجد لديهم رسامون ممتازون على الاطلاق ليرسموه».

قال ديفيد: «ما الذي ينبغي أن نأكله بعد الجازباشو؟».

وكان صاحب المحل، وهو رجل قصير متوسّط العمر قويّ البنية ذو وجه مربع، قد حضر إليهما. فاستطرد ديفيد: «هو يعتقد أننا سنطلب لحماً من أيّ نوع».

Twitter: @ketab_n

قال صاحب المحل بإصرار: «لدينا أذرة مسلوقة ممتازة جداً».

قالت كاترين: «كلا، أرجوك، سلاطة فقط».

فقال صاحب المحل: «حسناً، على الأقل فلتشربا قليلاً من النبيذ». وأعاد ملء الإبريق من صنبور برميل خلف البار.

قالت كاترين: «لا ينبغي أن أشرب. أنا آسفة إذ أتكلم كثيراً. أنا آسفة إذا كنت قد تحدّثت بغباء. عادة ما أفعل ذلك».

- «أنت تتكلمين بطريقة مسلّية جداً، وبظرف خاصّ في يوم حارّ كهذا اليوم. هل يجعلك النبيذ ثرثارة؟».

قالت كاترين: «إنه نوع مختلف من الثرثرة عن تلك التي تنتج عن شرب الأبسنيث. ليس ثمة خطورة. فلقد بدأت حياتي الجديدة الطيبة، وأنا الآن أقرأ وأنظر إلى العالم الخارجي، وأحاول ألاّ أفكر في نفسي كثيراً، لكن لا ينبغي علينا أن نذهب إلى أيّة مدينة في هذا الوقت من السنة. ربما نذهب. إن كل ما أراه حولي هنا أشياء رائعة جديرة بالرسم، وأنا لا أستطيع الرسم ولم أحاوله قط. بل أنا أعرف أنّ هناك أشياء رائعة جديرة بالكتابة، وأنا لا أستطيع حتى كتابة خطاب، أليس ذلك غباءً؟ لم أرغب قط في أن أكون رسامة أو كاتبة حتى حضرت إلى هذا البلد. إن ذلك أشبه بأن تكون جائعاً طول الوقت وليس في إمكانك أن تفعل شيئاً قط حيال ذلك».

قال ديفيد: «البلدة موجودة بالفعل، ولا يتحتّم عليك أن تفعلي أيّ شيء حيالها. إنها موجودة دائماً. برادو موجودة».

قالت: «لا شيء يوجد إلا من خلالك، وأنا لا أريد أن أموت وينتهي كل شيء».

- «لقد استمتعت بكل ميل قطعناه بالسيارة. كل تلك الأراضي الصفراء والتلال البيضاء، وقشور الحنطة المتطايرة، وصفوف أشجار الحور المتاخمة للطريق. أنت تدركين ما رأيته، وما أحسست به، وهذا شيء يرجع إليك. ألم تستمتعي «بلجرودي روا» و «ايجيس مورتس»، وقرية «كاماراجيو» وما حولها التي طفناها بالدراجات؟ سيكون الوضع هنا كذلك».

- «لكن ماذا يحدث لي عندما أموت؟».

- «لن تكوني أكثر من ميتة».

- «لكنني لا أحتمل فكرة أن أكون ميتة».

- «إذن لا تدعي ذلك يحدث حتى يحدث. تمتّعي برؤية الأشياء والاصغاء لها، ومعايشتها».

Twitter: @ketab_n

ـ «وماذا لو أنني لم أستطيع التذكّر؟».

تحدّث هو عن الموت كما لو أنه شيء عادي. وشربت هي النبيذ وتطلّعت إلى الجدران الحجرية السميكة التي لا توجد بها إلا نوافذ صغيرة عالية ذات قضبان حديدية، تطل على شارع ضيّق غير مشمس. أما الباب فكان يؤدي إلى مجموعة من البواكي حيث تسطع الشمس على الأحجار البالية للميدان.

قالت كاترين: «عندما تبدأ في العيش خارج نفسك، فهذا هو الخطر بعينه. ربما يكون من الأفضل لي أن أعود إلى عالمنا، عالمك وعالمي الذي صنعته أنا، أقصد صنعناه. لقد أحرزت نجاحاً عظيماً في ذلك العالم. كان ذلك منذ أربعة أسابيع فقط. أعتقد أنني ربما عدت إليه ثانية».

وصلت السلاطة، وبدت خضرتها على المائدة الداكنة والشمس تسطع على الميدان خلف البواكي.

سألها ديفيد: «هل تشعرين بتحسّن؟».

قالت: «نعم. كنت أفكر كثيراً في نفسي حتى أنني أصبحت مستحيلة مرة ثانية، وكأنني رسام، وكنت أنا الصورة الوحيدة التي يرسمها. كان ذلك شيئاً فظيعاً. أنا الآن على ما يرام مرة أخرى، آمل أن يبقى الحال هكذا».

كانت الأمطار قد هطلت بغزارة وانكسرت حدّة الحرارة آنذاك. وكان جوّ الحجرة الكبيرة في فندق بالاس رطباً ومنعشاً ومعتماً بعد أن أغلق مصراع النافذة، خاصة وأنهما أخذا حمّاماً معاً في المغطس الطويل العميق وفتحا الرشّاش بكامل قوته وتركا المياه تسقط عليهما وكانا يتلويان كلما سقطت المياه بعيداً عنهما. جفّف كل منهما الآخر بمنشفة كبيرة واتّجها إلى السرير. وبينما هما مستلقيان على السرير هبت عليهما نسمة باردة من خلال مصراع النافذة. استلقت كاترين مستندة على مرفقيها وذقنها تحت يديها وقالت:

ـ «أتعتقد أنه قد يكون من المضحك أن أعود لأصبح ولداً مرة أخرى؟ لن يكون هناك أيّ متاعب».

ـ «أنت تعجبينني بالوضع الذي أنت عليه الآن».

ـ «إنه نوع من الإغراء. ولا ينبغي أن أفعل ذلك في اسبانيا على ما أعتقد. فإنها بلد متحفّظ للغاية».

ـ «ابقي على ما أنت عليه».

Twitter: @ketab_n

- «ما الذي يجعل صوتك يتغيّر عندما تقول ذلك؟ أعتقد أنني سأفعل ذلك الأمر».

- «لا. ليس الآن».

- «أشكرك لهذا التأجيل، أينبغي أن أمارس الحب معك هذه المرة كفتاة، وبعد ذلك أمارسه بطريقتي؟».

- «أنت فتاة. أنت فتاة. أنت فتاتي الحبيبة كاترين».

- «نعم أنا فتاتك وأنا أحبّك وأحبّك وأحبّك».

- «لا تتكلمي».

- «لن أتكلّم. أنا فتاتك كاترين وأنا أحبّك، أرجوك، أنا أحبّك دائماً دائماً دائماً...».

- «لا داعي لأن تكرّريها. فأنا أعرف».

- «أحب أن أقولها، وأقولها. وها أنا قد أصبحت فتاة لطيفة طيّبة، وسوف أكون كذلك. أعدك بأنني سأكون كذلك ثانية».

- «ليس هناك ما يجبرك على قول ذلك».

- «أوه، بل أنا أعنيها. أقولها وقلتها وأنت قلتها. أرجوك الآن. أرجوك».

استلقيا صامتين لفترة طويلة ثم قالت: «أنا أحبك كثيراً جداً. أنت زوج رائع للغاية».

- «فليباركك الله!».

- «أهي أنا التي كنت تريدها؟».

- «ما رأيك أنت؟».

- «آمل أنني كنتُ إيّاها».

- «أنت إيّاها بالفعل».

- «لقد وعدتك بصدق، وسوف أحافظ على وعدي. والآن هل بإمكاني أن أصبح ولداً مرة أخرى؟».

- «لماذا؟».

- «لمجرد فترة قصيرة».

- «لماذا؟».

Twitter: @ketab_n

- «لأنني أحببت ذلك، ولا أستطيع نسيانه، وأود أن أكون كذلك في الفراش أثناء الليل إذا كان لك لا يضيرك. أأستطيع أن أبدأ؟ إذا كان ذلك لا يضيرك».

- «لن يضيرني ذلك بحقّ الجحيم».

- «إذن هل أستطيع؟».

- «أترغبين حقاً في فعل ذلك؟».

وما ان توقف عن قول: «أمن الضروري ذلك» حتى قالت: «ليس من الضروري أن أفعل ذلك، لكن أرجوك إذا كان ذلك لا يضير. أأستطيع أن أبدأ؟».

- «لا مانع».

وقبّلها وضمّها إليه.

- «لا يمكن لأحد أن يعرف الحال التي أنا عليها، فيما عدانا. سأكون ولداً أثناء الليل فقط، ولن يضايقك ذلك، لا تقلق بصدد ذلك، أرجوك».

- «حاضر، يا ولد».

- «لقد كذبت عندما قلت إنني لن أفعل ذلك. لكن حدث ذلك فجأة اليوم».

أغمض عينيه ولم يفكر، وقبّلته هي، وتطوّرت الأمور إلى ما هو أبعد فاستطاع أن يدرك ويستشعر اليأس التامّ.

- «أنت الآن متحوّل. أرجوك. لا تجعلني أحوّلك. أينبغي عليّ؟ لا بأس، سأحوّلك. أنت الآن قد تحوّلت. أنت متحوّل فعلاً. ولقد فعلتها أنت أيضاً. فعلتها، فعلتها أيضاً. أنا فعلتها لك، لكنك أيضاً فعلتها. نعم فعلتها. أنت فتاتي الحلوة الغالية كاترين. أنت كاترين الجميلة الحلوة. أنت فتاتي، فتاتي الغالية الوحيدة. شكراً لك، شكراً لك يا فتاتي...».

استلقت فوق السرير لفترة طويلة حتى اعتقد أنها استغرقت في النوم. بعد ذلك تحركت ببطء شديد ورفعت نفسها على مرفقيها وقالت: «لديّ مفاجأة رائعة بالنسبة للغد.. سأذهب إلى «برادو» في الصباح وأشاهد كل اللوحات في المعرض وأنا على هيئة ولد».

. قال ديفيد: «إني أستسلم»...

Twitter: @ketab_n

الفصل السابع

في الصباح استيقظ بينما لم تزل هي نائمة، وخرج ليستمتع بهواء الصبح الباكر المنعش لمنطقة السهل المرتفع. سار في الشارع الممتدّ فوق التل إلى ميدان «سانتا أنا» وتناول الإفطار في أحد المقاهي وقرأ الصحف المحليّة. كانت كاترين تريد أن تكون في «برادو» في العاشرة عندما تفتح المحلات، وقبل أن يخرج ضبط المنبّه ليوقظها في التاسعة. عندما كان يسير في الشارع الممتدّ فوق التل فكّر في طريقة نومها: رأسها الجميل المشعّث الذي بدا كعملة معدنية قديمة وهو مطروح على ملاءة بيضاء، والوسادة منحاة جانباً، والملاءة العلوية تظهر انحناءات جسدها. فكر بأن هذه الحالة ظلت معها شهراً أو أكثر. ومنذ أن كنا في «لجرودي روا» حتى وصلنا إلى «هنداي». مضى شهران، كلا، أقل، لأنها بدأت تفكر في هذه الحالة في «نيم». ليس شهران، لقد تزوجنا منذ ثلاثة أشهر وأسبوعين وآمل أن أجعلها سعيدة دائماً، لكن في مثل هذا الوضع فلا أعتقد أن أيّ إنسان يستطيع أن يهتم بأي إنسان آخر. يكفيها أن تبقى في هذه الحالة. وقال لنفسه: والاختلاف هو أنها طلبت ذلك هذه المرة. طلبته بالفعل.

عندما فرغ من قراءة الصحف، ودفع الحساب ومشى بالخارج في الحر ووصل إلى منطقة السهل، وعندما تغير اتجاه الريح يمّم تجاه مبنى المصرف الذي يتّسم جوه بالبرودة والوقار والهدوء، وجد رسائل قادمة من باريس، ففضّها وأخذ يقرأها بينما كان ينتظر أمام النوافذ الكثيرة الممتّدة لصرف نقود أُرسلت إليه من مصرفه، إلى هذا المصرف عن طريق «بنك مدريد».

في النهاية، وبعد أن وضع الأوراق في جيب سترته، وأحكم إغلاقه، خرج ثانية إلى

Twitter: @ketab_n

وهج الشارع فوقف عند كشك لبيع الصحف لشراء الصحف الإنجليزية والأميريكية التي وصلت صباحاً بالقطار السريع. اشترى بعض مجلات مصارعة الثيران الأسبوعية ليلفّ فيها الجرائد الصادرة باللغة الإنجليزية ثم سار إلى شارع «كاريرا سان جيرونيمو» حيث يوجد مقهى إيطالي لطيف خافت الإضاءة. لم يكن ثمة أحد بالمكان بعد، وتذكر أنه لم يقم بأي نزهة مع كاترين.

سأله الخادم: «ماذا تشرب؟».

قال: «بيرة».

- «هذا المكان ليس مخصصاً لتقديم البيرة».
- «أليس لديكم بيرة؟».
- «بلى. لكن هذا المكان ليس مخصصاً لتقديم البيرة».

فقال: «هذا شأنكم».

وأعاد طيّ الصحف وخرج سائراً عبر الشارع، عائداً إلى الجانب الآخر. وانحرف يساراً إلى شارع «الكوليه فيتوريا» ومنه إلى مقهى «سريفيزيا الفاريز». جلس إلى مائدة تحت مظلة في الممر وشرب كأساً كبيرةً من البيرة المثلجة.

فكر بأن الخادم ربما قال ذلك لمجرّد النقاش فقط، لكن الرجل كان على حقّ تماماً فيما قاله. هذا المكان ليس مخصّصاً لتقديم البيرة، لقد كان موضوعياً إلى حدّ كبير. ولم يكن وقحاً. كان ذلك قولاً سيّئاً، ولم يكن لديه أيّ دفاع عنه، بل كان فعلاً رديئاً. شرب كأساً أخرى من البيرة ونادى الخادم ليدفع له الحساب.

قال الخادم: «أين السيدة؟».

- «في (متحف برادو) وسألحق بها».

قال الخادم: «حسناً، حتى تقابلها».

عاد سيراً على الأقدام إلى الفندق عبر طريق مختصرة. كانت المفاتيح في مكتب الاستقبال، فأخذها وصعد إلى أعلى، تاركاً الصحف والبريد على المنضدة في الحجرة ووضع معظم النقود في الحقيبة وأغلقها. كانت الغرفة مرتبة، ومصراع النافذة مغلقاً ليصدّ الحرارة، وبالتالي معتمة. اغتسل وفرز بريده وأخذ أربع رسائل وضعها في جيبه. وأخذ الطبعة الباريسية من صحيفة «نيويورك هيرالد، وشيكاغو تريبان، ولندن ديلي ميل» معه

Twitter: @ketab_n

إلى بار الفندق، وتوقف عند مكتب الاستقبال ليترك المفتاح ويطلب من الموظف أن يخبر السيدة، عندما تأتي، أنه في المشرب. جلس على مقعد طويل في الحانة وطلب «ماريسمينو» وفتح رسائله وأخذ يقرأها، بينما كان يأكل الزيتون المخلّل من طبق صغير وضعه الخادم أمامه بجوار كأسه. كانت إحدى الرسالتين تحتوي على قصاصتين لتقرير عن روايته في مجلة شهرية، فقرأها دون إحساس بأنهم قد تعاملوا معه أو مع أي شيء قد كتبه.

أعاد القصاصات ثانية إلى المظروف. لقد كانت مقالات نقدية تتّسم بالوعي والتذوّق، لكنها لم تكن تعني شيئاً بالنسبة له. قرأ الخطاب المرسل من الناشر بالمشاعر نفسها. وهو أن الكتاب حقّق رواجاً كبيراً، وهم يعتقدون أنه سيواصل مبيعاته عند تخفيض الأسعار (الأوكازيون)، بالرغم من أنه ليس في استطاعة أحد أن يتنبأ بمثل هذه الأشياء. وبالتأكيد، ما دام الكتاب قد لاقى استقبالاً نقدياً غير عادي، فإن الطريق سيكون ممهداً أمام كتابه التالي. ولقد كانت ميزة عظيمة أن هذه كانت روايته الثانية وليست الأولى، وكان أمراً مؤثّراً أن أغلب الروايات الأولى تكون هي الجيدة فقط كما يراها الكتّاب الأميريكيون. واستطرد الناشر: لكن روايته الثانية هذه أكدت كلّ التوقّعات التي بشّر بها في روايته الأولى. كان صيفاً غير عادي في نيويورك، بارداً، وممطراً. وفكر ديفيد: يا للمسيح! اللعنة! ما شأني والجو في نيويورك واللعنة على ما حقّقه من نجاح. أيّ نجاح ولمن؟ إلى قرص التليفون، إلى بائع الكتب، إلى الجمهورية الجديدة، كلا، لقد كشف عن نفسه. دعني أعرّفه بنجاحاتي التي سأؤكدها. يا للقذارة!

قال صوت: «مرحباً، أيّها الشاب. ما الذي يجعلك تبدو ناقماً هكذا؟».

فقال ديفيد، وهو يشعر بسعادة مفاجئة: «مرحبا، بالكولونيل، ما الذي تفعله هنا بحقّ الجحيم؟».

التقط الكولونيل كأس ديفيد وتذوّق «الماريسيمينو» وكانت له عينان زرقاوان عميقتان، وشعر أصفر، ووجه أسمر وكان نحاتاً مجهداً قدّه من صخر ثم كسر إزميله عليه.

قال للساقي: «أحضر لي زجاجة من ذلك الصنف الذي يشربه الشاب مهما كان نوعه، إلى تلك المائدة. زجاجة باردة. لا داعي لتثليجها، أحضرها فوراً».

قال الساقي: «حاضر يا سيدي. بكل سرور يا سيدي».

قال الكولونيل لديفيد: «هيا». وقاده إلى مائدة بأحد أركان المكان. واستطرد: «أنت تبدو في أحسن حال».

Twitter: @ketab_n

ـ «وأنت كذلك».

كان الكولونيل «جون بولي» يرتدي بذلة زرقاء داكنة من قماش يبدو صلباً، لكنّه فضفاض، وقميصاً أزرق وربطة عنق سوداء.

قال: «أنا دائماً على ما يرام. هل ترغب في وظيفة؟».

قال ديفيد: «كلا».

ـ «مثل تلك الوظيفة تماماً. ولا تسأل حتى ما هي؟».

وبدا صوته وكأنه يخرج بصعوبة من خلال حنجرة متربة.

وصل النبيذ وملأ الخادم الكأسين، ووضع أطباقاً صغيرة بها زيتون مخلّل بالزيت، ومكسرّات.

سأله الكولونيل: «ألا توجد أنشوجة؟ أيّ فائدة ترجى من ذلك؟» فابتسم الخادم وذهب لإحضار الأنشوجة.

قال الكولونيل: «نبيذ فاخر. من الدرجة الأولى. توقعت دائماً أن ذوقك في الشراب لا بدّ أن يتحسّن. والآن لماذا لا ترغب في وظيفة؟ فلقد انتهيت تواً من كتاب».

ـ «أنا أقضي شهر العسل».

قال الكولونيل: «تعبير سخيف. لا يعجبني أبداً. يبدو لزجاً. لماذا لم تقل إنك قد تزوجت منذ وقت قصير؟ لا فرق بين القولين. لا نفع فيك على أيّ حال».

ـ «ما الوظيفة؟».

ـ «لا فائدة من التحدّث عنها الآن. ممن تزّوجت؟ أهي واحدة أعرفها؟».

ـ «كاترين هيل».

ـ «كنت أعرف والدها. نمط شاذّ جداً. قتل نفسه في سيارة. وزوجته كذلك».

ـ «لم أعرفهما قط».

ـ «ألم تعرفه قط؟».

ـ «لا».

ـ «شيء غريب! كان من السهل تفهُّمه تماماً. على كلّ لا يشكل خسارة بالنسبة لك

Twitter: @ketab_n

كحَمٍ . والأم كانت تحسّ بعزلة كما يقولون . أسلوب غبيّ لأناس ناضجين كي يقتلوا أنفسهم . أين قابلت الفتاة؟» .

- «في باريس» .

- «لها خال أحمق يعيش هناك . إنسان تافه في الحقيقة . هل تعرفه؟» .

- «رأيته في سباق السيارات» .

- «في (لونجشاميز) و (ايتيل) كيف استطعت أن تتحمّل ذلك؟» .

- «أنا لم أتزوج عائلتها» .

- «كلا بالطبع . لكنك تتعامل معهم . بشكل مباشر أو غير مباشر» .

- «ليس مع الأخوال والعمّات» .

- «على أيّ الأحوال ، اعتبرها دعابة . أتعرف ، أعجبني الكتاب . هل حقّق رواجاً؟» .

- «حقّق رواجاً كبيراً» .

قال الكولونيل : «لقد أثر فيّ بشكل كبير . يا لك من فاجر ماكر!» .

- «وأنت كذلك يا جون» .

قال الكولونيل : «أتمنى ذلك» .

رأى ديفيد كاترين عند الباب فوقف . أقبلت عليهما ، فقال ديفيد :

- «الكولونيل بويلي» .

- «كيف حالك ، يا عزيزتي؟» .

نظرت كاترين إليه مبتسمة وجلست إلى المائدة . أخذ ديفيد يراقبها وبدت كما لو أنها تلتقط أنفاسها .

سألها ديفيد : «هل أنت متعبة؟» .

- «أعتقد ذلك» .

قال الكولونيل : «تناولي كأساً من هذا» .

- «أيكون من الأفضل أن أتناول كأساً من الإبسنيث؟» .

قال ديفيد : «بالطبع . وسأتناول أنا كأساً كذلك» .

Twitter: @ketab_n

قال الكولونيل للخادم: «لا تحضر لي. هذه الزجاجة فقدت طزاجتها. ضعها في الثلج وأحضر لي كأساً من زجاجة باردة».

سأل كاترين: «هل تفضلين شراب (البيرنود) الأصيل؟».

قالت: «نعم. فأنا خجولة وهو يكسبني شجاعة في التعامل مع الناس».

قال: «إنه شراب ممتاز. كان بودّي أن أُشاركك الشراب، لكن لدي عملاً لا بد أن أنجزه بعد الغداء».

قال ديفيد: «أنا آسف لأنني نسيت أن نقوم بنزهة».

- «هذا لطيف جداً منك».

- «مررت على المصرف لأسأل عن البريد. هناك كمية خطابات لك. تركتها في الحجرة».

قالت: «أنا لا أهتمّ بها».

قال الكولونيل: «رأيتك في (برادو) تتطلّعين إلى لوحات الفنان جريكو».

قالت: «وأنا رأيتك أيضاً. هل تتطلّع إلى تلك اللوحات دائماً كما لو أنك كنت تملكها وقد قرّرت إعادة تعليقها بشكل مناسب؟».

قال الكولونيل: «ربّما. هل تتطلّعين إليها دائماً كما لو كنت زعيماً شاباً لقبيلة من المحاربين وقد تحلّل من رقابة مستشاريه وأخذ يتطلع إلى ذلك التمثال المرمري: تمثال ليدا والبجعة؟».

احمرّ وجه كاترين خجلاً تحت بشرتها السمراء ونظرت إلى ديفيد ثم إلى الكولونيل.

قالت: «أنا معجبة بك. احكِ لي المزيد».

قال: «وأنا معجب بك. وأنا أحسد ديفيد. أهو كل ما ترغبينه؟».

- «ألا تعرف؟».

- «الشواهد تدل على ذلك. والآن هيّا، وتناولي رشفة أخرى من ذلك الشراب ذي النكهة الحقيقية لأشجار «النب».

- «لست في حاجة إليه الآن».

- «أما زلت خجلة؟ اشربيه على أيّ حال. إنّه مفيد لك. أنت أدكن فتاة بيضاء

Twitter: @ketab_n

رأيتها في حياتي. كان والدك أسمر جداً كذلك».

- «لا بد أن لي بشرته. كانت أمي بيضاء جداً».

- «لم أعرفها قط».

- «هل كنت تعرف أبي جيّداً؟».

- «جيداً جداً».

- «كيف كان؟».

- «كان رجلاً صعباً جداً وجذّاباً جداً. أتشعرين بالخجل حقيقة؟».

- «حقيقة. اسأل ديفيد».

- «سوف تتغلبين على ذلك بسرعة عظيمة».

- «دعك من ذلك. كيف كان أبي؟».

- «كان أخجل رجل عرفته قط، كما كان باستطاعته أن يكون أكثر جاذبية».

- «هل كان يلجأ لشرب (البيرنود) أيضاً؟».

- «كان يشرب كل شيء».

- «هل أذكّرك أنا به؟».

- «كلا على الإطلاق».

- «هذا عظيم. ولا ديفيد؟».

- «ولا بأيّ شيء منه».

- «هذا عظيم جداً».

- «كيف عرفت أنني ولد في برادو؟».

- «وماذا يمنع من أن تكوني كذلك؟».

- «بدأت ذلك ثانية فقط مساء أمس. كنت فتاة لمدة شهر تقريباً. اسأل ديفيد».

- «لست في حاجة لأن تقولي لي اسأل ديفيد. ماذا أنت عليه الآن؟».

- «ولد، إذا كان ذلك لا يضيرك».

- «لا يضيرني أن تكوني كذلك. لكنك لست كذلك».

قالت: «أردت أن أقول ذلك فقط. وقولي ذلك الآن، لا يعني بالضرورة أن أكون كذلك. لكن الأمر كان رائعاً في (برادو). وهذا هو السبب الذي جعلني أودّ أن أحكي لديفيد عنه».

Twitter: @ketab_n

- «سيكون لديك متّسع من الوقت لتحكي لديفيد».

قالت: «أجل. لدينا الوقت لكثير من الأشياء».

قال الكولونيل: «قولي لي من أين اكتسبت سمرتك الشديدة هذه، أتعلمين كم أنت شديدة السُّمرة؟».

- «اكتسبتها من (لجرودي روا) التي لا تبعد كثيراً عن نابلس. هناك خليج صغير يؤدي إليه ممر محاط بأشجار الصنوبر. لا يمكنك رؤيته من الطريق».

- «كم من الوقت استغرق الأمر حتى اكتسبت هذه السمرة؟».

- «حوالي ثلاثة شهور».

- «وبماذا ستفيدك هذه السمرة؟».

قالت: «أكتسي بها، إنها أكثر إثارة في الفراش».

- «لا أعتقد أنك تودّين فقدان هذه السمرة في المدينة».

- «أن أكون في (برادو) فهذا لا يجعلني أفقدها. وأنا في الحقيقة لا أكتسي هذا اللون. بل أنا كذلك. أنا حقيقة بهذا اللون الداكن. والشمس جعلته يزداد فقط. أتمنى أن أكون أكثر سمرة من ذلك».

قال الكولونيل: «من المحتمل أن تكوني كذلك. هل لديك أشياء أُخرى على هذا النحو تطمحين إلى تحقيقها؟».

قالت كاترين: «لديّ ما أطمح إلى تحقيقه. كلّ يوم تقريباً. كلّ يوم».

- «وبالنسبة لليوم، هل كان يوماً موفقاً؟».

- «أجل، أنت تعلم أنه كان كذلك. فلقد كنتَ هناك».

- «هل تتناولين الغداء معي، أنت وديفيد؟».

قالت كاترين: «لا مانع، سأصعد لأبدل ثيابي، هل تنتظرانني؟».

سألها ديفيد: «ألا تودّين إنهاء شرابك؟».

قالت: «لا يهمّ. لا تقلق بخصوصي. فلن يتنابني الخجل».

سارت إلى الباب وتبعها الاثنان بنظرهما.

سأله الكولونيل: «هل كنت غير مهذّب إلى حدّ كبير؟ أرجو أني لم أكن كذلك. فهي فتاة لطيفة جداً».

- «أتمنى فقط أن أكون ذا فائدة بالنسبة لها».

Twitter: @ketab_n

- «أنت كذلك بالفعل. المهمّ كيف حالك أنت؟».
- «لا بأس على ما أعتقد».
- «هل أنت سعيد؟».
- «جداً».
- «تذكّر. إن كل شيء على صواب حتى يثبت العكس. سوف تعرف عندما يتضح خطأه».
- «أتعتقد ذلك؟».
- «أنا متأكد تماماً. إذا لم تكن تعتقد ذلك فلا يهمّ. ولن يهمك شيء بعد ذلك».
- «بأيّ مدى من السرعة ستمضي الأمور؟».
- «أنا لم أقل أيّ شيء عن السرعة. ما الذي تتحدث عنه؟».
- «أنا آسف».
- «هذا هو قدرك، فحاول أن تستمتع بوقت طيب».
- «نحن نفعل ذلك».
- «وهذا ما أراه، هناك شيء واحد فقط».
- «ما هو؟».
- «أعتنِ بها جيّداً».
- «أذلك كلّ ما لديك لتقوله لي؟».
- «هناك شيء آخر صغير أقوله لك، النتائج ليست طيّبة».
- «ليس هناك أيّ نتائج بعد».
- «من الأرحم أن نئد النتائج».
- «من الأرحم؟».
- «من الأفضل».

تحدثا لفترة عن الناس، كان كلام الكولونيل من النوع المكشوف، وعندئذٍ رأى ديفيد كاترين مقبلة عبر الباب ترتدي فستاناً من قماش الشاركسكين الأبيض، فأظهر مدى سمرتها الداكنة على حقيقتها.

قال الكولونيل لكاترين: «أنت تبدين جميلة بشكل غير عاديّ، لكن ينبغي عليك أن تحاولي اكتساب مزيد من السمرة».

قالت: «أشكرك، سأحاول، أعتقد أنه لا داعي لأن نخرج الآن في هذا الحرّ، أليس

Twitter: @ketab_n

كذلك؟ ألا يمكننا أن نجلس هنا في هذا الجوّ المنعش؟ يمكننا أن نتناول الغداء هنا في المطعم».

قال الكولونيل: «أنتما تتناولان الغداء معي».

- «لا، أرجوك. أنت تتناول الغداء معنا».

نهض ديفيد بعدم اتّزان. وكان يوجد مزيد من الناس آنذاك في الحانة. وما أن نظر إلى المائدة حتى اكتشف أنه قد تناول شراب كاترين بالإضافة إلى شرابه. ولم يتذكر أيّاً منهما قد شرب.

كان الوقت وقت القيلولة، وهما مستلقيان على السرير، وديفيد يقرأ تحت الضوء القادم من النافذة على يسار السرير، حيث كان قد رفع أحد الستائر المسدلة إلى ثلثها تقريباً. كان الضوء منعكساً من البناية المقابلة في الشارع. ولم تكن الستارة مرفوعة إلى آخرها حتى تسمح بظهور السماء.

قالت كاترين: «لقد أُعجب بي الكولونيل لأنني سمراء للغاية. يجب أن نذهب إلى البحر مرة أخرى. ينبغي أن أُحافظ على لوني».

- «سوف نذهب عندما ترغبين».

- «سيكون ذلك رائعاً. أأستطيع أن أقول لك شيئاً؟ لا بد أن أقوله».

- «ما هو؟».

- «أنا لم أتحول إلى فتاة وقت الغداء. فهل تصرَّفتُ بشكل لائق؟».

- «لم تتحوّلي؟».

- «كلا. أيضيرك ذلك؟ لكنني الآن فتاك وسأفعل أي شيء من أجلك».

استمر ديفيد في قراءته.

- «هل أنت غاضب؟».

- «كلا».

وفكر: بل كابح جماح نفسي.

- «الآن أحسن».

- «لا أعتقد ذلك».

- «إذن ينبغي عليّ أن أكون حريصة. فكل شيء فعلته هذا الصباح كان على ما يرام

Twitter: @ketab_n

ولطيفاً، ونظيفاً جداً، في وضح النهار. ألا أستطيع أن أحاول الآن، ونرى النتيجة؟».

- «أفضّلُ كثيراً ألا تفعلي».
- «أيمكنني أن أقبّلك وأحاول؟».
- «كلا، طالما أنت ولد وأنا ولد».

وأحس كأن قضيباً من الحديد يخترق صدره وينفذ إلى الجانب الآخر.

- «كنت أتمنّى لو لم تقولي شيئاً للكولونيل».

- «لكنه رآني، يا ديفيد. واكتشف الأمر وعرفه وفهمه. لم يكن من الغباء أن أقوله له. بل كان من الأفضل. فهو صديقنا. وأنا إذا أخبرته بذلك فلن يتكلم. وإذا لم أخبره فقد كان له الحق في ذلك».

- «لا يمكنك أن تثقي بالناس على هذا النحو».

- «أنا لا أهتمّ بالناس. أنا أهتمّ بك فقط. وأنا لم أثر أيَّ فضائح مع الناس الآخرين».

- «أشعر بصدري كأنه مغلول بالحديد».
- «أنا آسفة. أنا أشعر بمنتهى السعادة».
- «يا عزيزتي كاترين».

- «هذا عظيم. أنت تدعوني كاترين دائماً عندما يكون لك رغبة. أنا فتاتك كاترين أيضاً. أنا دائماً كاترين عندما تحتاجها. أمن الأفضل أن ننام، أم نبدأ ونرى ماذا يحدث؟».

- «دعينا أولاً نستلقي هادئين جداً في الظلام».

قال ديفيد ذلك وأخفض الستارة ثم رقدا جنباً إلى جنب على السرير في الحجرة الكبيرة بفندق (بالاس) في مدريد، بعد أن تجولت كاترين في متحف برادو في هيئة ولد في وضح النهار، والآن يطيب لها أن تمارس ألاعيبها السوداء بالنهار، وقد اتضح له أنه لن تكون هناك نهاية لهذا التحوّل.

Twitter: @ketab_n

الفصل الثامن

كان الصباح منعشاً في غابة «الباين ريترو». الخضرة تكسوها وجذوع الأشجار داكنة اللون، وثمة مساحات فارغة كلها جديدة. والبحيرة لم تكن موجودة حيثما كانت، وعندما رأوها من خلال الأشجار كانت قد تغيّرت تماماً.

قالت: «سر إلى الأمام، فأنا أريد التطلّع إليك».

وهكذا استدار مبتعداً عنها، وسار حتى وصل إلى دكّة خشبية وجلس عليها. استطاع أن يرى البحيرة على بعد مسافة طويلة وعرف أنها بعيدة جداً حتى يصل إليها سيراً. جلس على الدكة الخشبية وجلست هي إلى جواره وقالت: «كل شيء على ما يرام».

لكن الإحساس بالذنب انتابه لأنه جعلها تقابله في غابة الريترو، ومن السيّء جداً في تلك اللحظة أنه طلب منها أن تقابله في مقهى فندق بالاس.

- «هل أنت على ما يرام؟ أتريدني أن أذهب معك؟».
- «كلا. أنا على ما يرام. لا بد أن أذهب الآن».

قالت: «سوف أراك هناك».

بدت هذا الصباح جميلة بصفة خاصة، وابتسمت لما بينهما من سرّ وابتسم لها، وحمل إحساسه بالذنب معه إلى المقهى. لم يكن يظنّ أنه من اللائق أن يفعل ذلك، لكنه فعله أخيراً وعندما جاءت كاترين كان قد انتهى من شرب كأسه الثانية من «الأبسنيث» وزال عنه الإحساس بالذنب.

Twitter: @ketab_n

قال: «كيف حالك، يا ديفيل؟»[1].

قالت: «إذا كنت تقصد المعنى الآخر فأنا كذلك. أيمكنني تناول كأسٍ من ذلك أيضاً؟».

انصرف الخادم وهو سعيد لرؤيتهما بمثل هذه البشاشة والسعادة المتناهية.

وقالت: «ماذا بك؟».

- «مجرد إحساس بالضيق، لكني أشعر الآن بتحسّن».

- «أكان الأمر إلى هذه الدرجة من السوء؟».

قال كذباً: «لا».

هزت رأسها وقالت: «أنا آسفة جداً. كنت أتمنى ألا يحدث شيء سيّء على الإطلاق».

- «لقد انتهى ذلك».

- «هذا شيء عظيم. أليس جميلاً أن نكون هنا في الصيف ولا يوجد أحد؟ لقد فكرت في شيء ما».

- «الآن؟».

- «يمكننا أن نبقى هنا ولا نذهب إلى البحر. المكان كله ملك لنا الآن. المدينة وهنا. يمكننا أن نبقى هنا ثم نعود مروراً بنابلي».

- «ليس هناك مزيد من الأمكنة لنذهب إليها».

- «لا تقل ذلك. ما فعلنا فقط سوى أن بدأنا».

- «أجل.. يمكننا أن نبدأ من حيث انتهينا».

- «بالطبع يمكننا ذلك، وسوف نفعل».

قال: «دعينا لا نتكلم عن ذلك».

بدأ يشعر بأن الحالة بدأت تعاودها، فأخذ رشفة منّ شرابه.

قال: «شيء غريب جداً. مذاق هذا الشراب مثل مذاق الندم. إن له مذاقه الحقيقي. ورغم ذلك يزيله».

(١) ديفيل هو اسم التدليل، لكنها تعني «شيطاناً» كذلك (المترجم).

Twitter: @ketab_n

- «لا أودّ منك أن تتناوله لذلك السبب. نحن لسنا كذلك. ولا ينبغي أن نكون كذلك».

- «ربما أكون أنا كذلك».

- «لا ينبغي أن تكون».

وتناولت رشفة طويلة من كأسها ورشفة أخرى، ثم تطلعت حولها وقالت:

- «أستطيع أن أفعلها الآن، انظر إليّ وراقب ما يحدث. هنا في هذا المقهى المفتوح بفندق بالاس في مدريد، حيث يمكنك رؤية «برادو» والشارع والندى تحت الأشجار، فهي حقيقة. شيء فظيع. لكن بإمكاني أن أفعله. وبإمكانك أن ترى. الشفتان لفتاتك مرة أخرى، وأنا كل الأشياء التي تبغيها حقيقة. ألم أقم بفعلها؟ قل لي».

- «لا داعي لذلك».

قالت بجدية تامة وهي تبتسم: «هل أروق لك كفتاة؟».

قال: «نعم».

قالت: «هذا عظيم. أنا مسرورة لأن شخصاً ما يفضل ذلك، لأن ذلك أمرٌ لا يحتمل».

- «لا تفعلي ذلك إذن».

- «ألم تسمعني أقول فعلتها؟ ألم تراقبني وأنا أفعل ذلك، أتريدني أن أضغط على نفسي وأمزّقها نصفين لأنك لا تستطيع إدراك ذلك؟ لأنك لا تريد أن تتوافق مع أي شيء؟».

- «أيمكنك أن تكبحي جماح نفسك؟».

- «ولماذا أكبح جماح نفسي؟ أنت تريد فتاة، أليس كذلك؟ ولا تريد كلّ ما يصاحب ذلك من إحساس وهستيريا، واتهامات باطلة، ومزاج خاصّ، أليس كذلك؟ أنا أكبح جماح نفسي. لم أشأ أن أُسبّب لك حرجاً أمام الخادم. ولم أشأ أن أجعل الخادم كذلك. سأقرأ بريدي اللعين. أيمكننا إرسال أحد ليحضر البريد؟».

- «سأصعد وأحضره».

- «كلا. لا ينبغي أن أكون هنا وحدي».

قال: «هذا صحيح».

Twitter: @ketab_n

- «أرأيت؟ ذلك هو السبب في أنني قلت نرسل من يحضره».

- «لن يعطوا مفتاح الحجرة لأحد، وهذا هو السبب في أنني قلت أصعد أنا».

قالت كاترين: «لا أريده. لن أواصل التصرّف على هذا النحو. لماذا ينبغي علي أن أتصرّف على هذا النحو معك؟ لقد كان شيئاً مضحكاً، وغير لائق. وكان حماقة مني للغاية ألاّ أطلب منك الصفح. هذا بالإضافة إلى أنني يجب أن أصعد إلى حجرتي بأيّ حال».

- «الآن؟».

- «لأنني امرأة ملعونة. وأعتقد لو أنني كنت فتاة وبقيت فتاة لكان لا بدّ أن أحصل على طفل على الأقل. لم أحصل حتى على ذلك».

- «من الممكن أن يكون ذلك خطئي».

- «لا تدعنا أبداً نتكلم عن الأخطاء. ابْقَ أنت هنا وسأذهب وأحضر البريد. سوف نقرأ بريدنا ونكون سوّاحاً لطافاً أمريكيين أذكياء، أُصيبوا بخيبة أمل لحضورهم إلى مدريد في وقت غير مناسب من السنة».

على الغداء قالت كاترين: «سنعود إلى نابلي. ليس هناك أحد، وسنكون هادئين وطيبين، ونعمل، ويرعى أحدنا الآخر. ويمكننا أن نذهب بالسيارة إلى «أكس» كذلك، ونشاهد كلّ منطقة «سيزاني». فنحن لم نستقرّ هناك بما يكفي من قبل».

- «سنقضي وقتاً لطيفاً».
- «ألم يحن الوقت الآن لتبدأ عملك ثانية؟».
- «كلا. لكن من الأفضل أن أبدأ الآن. أنا متأكد».

- «سيكون ذلك رائعاً، وسوف أدرس الاسبانية خصيصاً لكي أستعملها عند عودتنا. ولديّ الكثير جداً لكي أقرأه».

- «لدينا الكثير لنعمله».
- «وسوف ننجزه أيضاً».

Twitter: @ketab_n

الجزء الثالث

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الفصل التاسع

استغرقت الخطة الجديدة أكثر من شهر. استأجرا ثلاث غرف في نهاية منزل مُن تلك المنازل المنخفضة ذات اللون الوردي من طراز البروفنسيال، حيث أقاما من قبل. كانت المنطقة في غابات الصنوبر في استيرال بالقرب من نابلي. كانا يريان البحر من النوافذ، وعبر الحديقة القائمة أمام البيت المستطيل، حيث كانا يتناولان الطعام تحت الأشجار. كان بإمكانها رؤية الشواطىء الخالية، الطويلة عند دلتا نهر صغير، وانحناءة الخليج الذي تقع عليه «كان» بالتلال المحيطة بها، والجبال البعيدة خلفها. لم يكن ثمة أحد في البيت آنذاك في الصيف، سوى صاحب البيت وزوجته اللذين سعدا بعودتهما.

كانت حجرة النوم كبيرة وفي نهاية المنزل، وبها ثلاث نوافذ على جوانبها، وكانت رطبة في ذلك الصيف. وخلال الليل كانا يشمّان رائحة أشجار الصنوبر والبحر. وكان ديفيد يعمل في حجرة نائية من المنزل. كان يبدأ العمل في الصباح الباكر وعندما ينتهي يجد كاترين قد استيقظت فيذهبان إلى خليج صغير بين الصخور أمامه شاطىء رملي لينعما بالشمس والسباحة. أحياناً كانت كاترين تذهب وحدها بالسيارة، وكان هو، بعد أن ينتهي من عمله، ينتظرها في الشرفة وهو يتناول شراباً. كان من المستحيل أن يشرب «الباستيس» بعد «الأبسينيث» وكان قد تعوّد على شرب الويسكي بالصودا. أسعد ذلك صاحب البيت، الذي كان يقوم حينئذٍ بأعمال صيانة صيفيّة بمساعدة اثنين من أهل «بورنيز» في موسم صيفيّ خامل. لم يستأجر طاهياً وكانت زوجته تقوم بكل أعمال الطهو. وكانت هناك خادمة واحدة تقوم برعاية الغرف، وابن أخ له يعمل كصبيّ خادم، يقوم بإعداد المائدة.

كانت كاترين تستمتع بقيادة السيارة الصغيرة، وتقصد «كان» و «نيس» لشراء طلباتهم. كان موسم تخفيض الأسعار الشتوي الكبير (الأوكازيون) قد انتهى، لكنها

Twitter: @ketab_n

اكتشفت غلاء أسعار الأكل، ورخص أسعار الشرب، كما حددت الأماكن التي يمكنها أن تشتري منها الكتب والمجلاّت.

كان ديفيد قد عمل بجدّية تامّة لمدة أربعة أيام. قضيا فترة ما بعد الظهيرة كلّها في الشمس على الرمال في المنطقة الجديدة التي اكتشفاها، وظلاّ في الماء حتى تعب كلاهما، ثم عادا إلى البيت في المساء، والملح الجاف على ظهريهما وشعريهما، فأخذا حمّاماً وبدلا ثيابهما.

في الفراش هبّت عليهما نسمة من البحر. كان الجوّ بارداً وهما مستلقيان جنباً إلى جنب في الظلام والملاءة تغطيهما. وقالت كاترين:

- «لقد قلت إنّه ينبغي عليّ أن أُخبرك».
- «أعرف».

مالت فوقه واحتوت رأسه بين راحتيها وقبّلته.

- «بي رغبة شديدة هل أستطيع؟ أيمكنني؟».
- «بالتأكيد».

قالت: «أنا سعيدة جداً. لأنني نفّذت كمّاً من الخطط. وهذه المرّة لن أغدو شرسة أو فجّة عندما أبدأ معك».

- «أيّ نوع من الخطط؟».
- «أستطيع أن أحكيها لك، بل من الأفضل أن أنفّذها. بالإمكان أن نفعلها غداً. فهل ستذهب معي؟».
- «إلى أين؟».
- «إلى (كان)، إلى الحلاّق الذي ذهبت إليه عندما كنّا هنا من قبل. حلاّق ممتاز جدّاً. نحن أصدقاء، وهو أفضل من حلاّق (بيارتز) لأنه فهم المطلوب مباشرة».
- «ماذا كنت تفعلين هناك؟».
- «قصدته هذا الصباح، بينما كنت أنت تعمل، وشرحت له ما أُريد، فاستوعبه وفهمه، وأعتقدُ أن الأمر سيكون ممتازاً. قلت له إنني لم أقرّر بعد، لكنني إذا قرّرت، فسأجتهد لأجعلك تقصّ شعرك مثل قصّة شعري».
- «ما شكل قصة الشعر هذه؟».

Twitter: @ketab_n

- «سترى. سنذهب معاً. إنها من النوع المتدرّج من الخلف عند منبت الشعر. إنه متحمّس جداً. أعتقد أن ذلك بسبب إعجابه الجنوني بالسيّارة «البجاتي». هل أنت خائف؟».

- «كلا».

- «لا أطيق الانتظار. هو في الحقيقية يريد أن يجعل لون شعري فضّياً، لكننا خشينا ألاّ يعجبك».

- «الشمس والمياه المالحة تفعلان ذلك».

- «ربما يكون هذا أفضل كثيراً. قال إن بإمكانه أن يجعله بلون شعر الإسكندافيين تماماً. تخيّل كيف يمكن أن يكون منظرنا ببشرتنا الداكنة. يمكننا أن نجعل لون شعرك كذلك».

- «كلا. سأبدو مضحكاً».

- «ومن ذلك الذي يهتّم هنا بهذا الاختلاف؟ إن لون شعرك سيغدو كذلك من أثر السباحة طوال الصيف على أيّ حال».

لم يقل أيّ شيء، فاستطردت تقول: «ليس هناك ما يجبرك على ذلك. كل ما سنفعله هو أن أقصّ شعري وربما كنت ترغب أنت كذلك. يمكننا أن نرى».

- «لا داعي للتخطيط، يا ديفيل، غداً سأستيقظ مبكراً جداً وأكتب، بينما تنامين أنت لوقت متأخر كما يحلو لك»:

قالت: «أكتب عني أيضاً، ولا يهمّ ما كنت عليه من سوء أحياناً، لكن عبّر عن مدى حبّي لك».

- «أنا على وشك أن أفعل ذلك الآن».

- «أيمكنك نشر ذلك، أم سيكون غير ملائم للنشر؟».

- «لقد حاولت كتابته ليس إلا».

- «أأستطيع قراءته؟».

- «حين أنتهي منه».

- «أنا فخورة بذلك مسبقاً».

- «ونحن لا نريد طبع نسخ للبيع منه، أو للنقاد، وبالتالي لن تكون هناك قصاصات أبداً، ولن تكون معتّداً بذاتك، وسنحتفظ دائماً بهذا العمل لنا فقط».

Twitter: @ketab_n

استيقظ ديفيد بورن عندما طلع النهار، فارتدى بنطلوناً قصيراً وقميصاً وخرج. كان الهواء قد سكن والبحر هادئاً، واليوم عبقاً برائحة الندى وأشجار الصنوبر. مشى عاري القدمين عبر الممر المبلط بالحجر حتى الشرفة ومنها إلى الحجرة القائمة عند نهاية المنزل، فدخلها وجلس إلى المنضدة وشرع في العمل. كانت النوافذ قد ظلّت مفتوحة طوال الليل فأصبحت الحجرة رطبة ومليئة ببشائر الصباح الباكر.

كان يكتب عن الطريق من «مدريد» حتى «زارجوسا»، وعن هبوطه وصعوده عندما كانا يمضيان بسرعة في إقليم الهضاب الحمراء، وبينما كانت السيارة الصغيرة تمضي في ذلك الطريق المترب، أدركا قطاراً سريعاً وتخطته كاترين بسهولة ويسر، عربة بعد عربة، ثم مقطورة الوقود، والقاطرة والسائق، وأخيراً مقدمة القاطرة، ثم انحرفت إلى اليسار مع انحراف الطريق واختفى القطار في النفق.

كانت قد قالت: «لقد أدركته، لكنه اختفى داخل الأرض. قل لي إذا كان بإمكاني أن ألحق به ثانية».

نظر إلى خريطة ميشلين وقال: «ليس قبل برهة».

- «سأدعه يمضي إذن، وسنشاهد نحن المنطقة».

وبينما كان الطريق يمضي صاعداً كانت أشجار الحور تمتدّ بمحاذاة النهر ثم بدأ الطريق في الانحدار الشديد وأحس بالسيارة تطويه، بعد ذلك انحرفت كاترين ثانية بسعادة بينما كانت تخفّف من السرعة.

فيما بعد، عندما سمع صوتها في الحديقة، توقّف عن الكتابة. وأغلق الحقيبة بعد أن وضع بداخلها كراسات الكتابة، وخرج مغلقاً الباب خلفه. لا يهمّ، فلتستعمل الخادمة المفتاح الاحتياطي لتنظيف الحجرة.

كانت كاترين تتناول الإفطار في الشرفة، وعلى المائدة مفرش مزيّن بمربعات بيضاء وحمراء كرقعة الشطرنج، وكانت ترتدي القميص القديم المقلّم من «لجرودي روا» لكنه كان مغسولاً جيداً ومجعّداً وقد حال لونه، وبنطلوناً رمادياً جديداً فضفاضاً، وخفّاً من القماش.

قالت: «هاللو، لم أستطع النوم لوقت متأخر».

- «تبدين جميلة».

- «شكراً. فأنا أشعر بسعادة».

- «من أين حصلت على هذا البنطلون؟».

Twitter: @ketab_n

- «فصلته في (نيس)، عند خياط ممتاز، أهو يناسبني؟».
- «تفصيلة جيدة جداً. يبدو جديداً تماماً. هل سترتدينه في المدينة؟».

- «إنها ليست مدينة. «كان» في نهاية الموسم. سيأتي الناس العام القادم. الناس يرتدون قمصاننا الآن. أنها لا تتناسب مع التنانير. أيضايقك ذلك؟».

- «كلا على الإطلاق. فالقميص يبدو مناسباً. تبدو وكأنها موضة جديدة».

بعد الإفطار، حلق ديفيد ذقنه وأخذ حمّاماً وارتدى بنطلوناً قديماً وقميصاً من قمصان الصيادين وعثر على خفّه القماش، وارتدت كاترين قميصاً أزرق من اللينو بياقة مفتوحة، وتنّورة بيضاء من قماش اللينو الثقيل.

- «نحن أفضل بهذه الملابس. رغم أن البنطلون مناسب لارتدائه هنا، إلا أنه لافتٌ للنظر جيداً في الصباح. سندّخره لوقت آخر».

كان الموقف عند الحلاق لطيفاً وتلقائياً، لكنه رسميّ جداً. قال السيد جان، الذي كان في مثل سنّ ديفيد ويبدو أقرب إلى أن يكون إيطاليا منه فرنسياً: «سأقصّ الشعر كما تطلب هي، هل توافق، يا سيدي؟».

قال ديفيد: «ليس لي رأي في ذلك. وأترك الأمر لكما أنتما الاثنين».

قال السيد جان: «ربما نحتاج إلى أن نجرّب عليك. في حالة إذا ما حدث خطأ ما».

لكن السيد جان بدأ يقصّ شعر كاترين بحرص شديد ومهارة، بينما كان ديفيد يراقب قسمات وجهها الأسمر الجادّ والفوطة حول عنقها. تطلعت في مرآة اليد وأخذت تراقب المشط والمقصّ وهما يتحركان بالتبادل. كان الرجل يعمل وكأنه نحّات منهمك جادّ. قال الحلاق: «فكرت طوال ليلة أمس، وكذلك هذا الصباح في هذه القصّة. وإذا لم تكن تصدّق ذلك يا سيدي، فأنا أفهم. فهذه مسألة على قدر كبير من الأهمية بالنسبة لي، مثل أهميّة سيدتك بالنسبة لك».

تراجع إلى الخلف بضع خطوات لينظر إلى شكل القصّة التي يقوم بها. ثم أخذ يقصّ بسرعة أكبر، وفي النهاية أدار الكرسي فانعكست المرآة الكبيرة على المرآة الصغيرة التي تحملها كاترين في يدها.

سألت الحلاّق: «هل تريد أن يقصّ الشعر بتلك الطريقة فوق الأذنين؟».

- «كما ترغبين. أستطيع أن أجعله، إذا أردت، لكنه يكون أكثر جمالاً لو أننا جعلنا لونه فضّياً تماماً».

Twitter: @ketab_n

قالت كاترين : «أريده كذلك».

ابتسم وقال : «لقد تحدثت أنا والسيدة بخصوص ذلك، لكنني قلت إن ذلك يتوقّف على قرار السيد».

قالت كاترين : «لقد أعطى السيد قراره».

- «أي درجة من اللون يرغب السيد أن يكون عليها لون الشعر؟».

فقالت «فضّيّ بقدر ما تستطيع».

قال السيدجان : «لا ينبغي أن تقولي ذلك. يجب أن يخبرني بدرجة اللون».

قالت كاترين : «بلون عقدي. فلقد رأيته عدة مرات».

كان الضيق قد استبدّ بديفيد عندما كان يراقب السيد جان وهو يقلب كوباً كبيراً مليئاً بالصابون السائل بمعلقة من الخشب. قال الحلاق : «أنا أستعمل صابوناً سائلاً مصنوعاً من زيت الزيتون، إنه دافىء، لو سمحت اقتربي هنا بجوار الحوض. اعتدلي في جلستك، وضعي هذه القطعة من القماش فوق جبهتك».

قالت كاترين : «لكن هذه ليست قصّة شعر ولد حقيقية؟ كنت أريده بالطريقة التي اتّفقنا عليها. الأمر كلّه يسير بشكل خاطىء».

- «إنها لا يمكن أن تكون غير قصّة ولد. يجب أن تصدّقيني».

في تلك اللحظة بدأ يكسو شعرها بالصابون السائل ذي الرغوة والرائحة الفواحة اللاذعة.

وعندما انتهى من وضع الصابون السائل على رأسها وغسله عدة مرات برفق، بدا لديفيد وكأنه لا لون له، وكالحاً ليس أكثر، والماء يتخلله. وضع الحلاق منشفة على رأسها ودعك شعرها برقّة. كان واثقاً جدّاً مما يفعله.

قال : «لا تيأسي يا سيدتي، ما الذي يضطرني أن أفعل شيئاً يشوّه جمالك؟».

- «أنا يائسة، وليس هناك أيّ جمال».

جفّف رأسها برقة وأبقى المنشفة عليها ثم أحضر مجفّف شعر يدوياً، وبدأ يحّركه خلال شعرها بينما كان يمشطه إلى الأمام.

قال : «انظري الآن».

وبينما كان الهواء يندفع خلال شعرها كان يتحول من اللون الأسمر المبتلّ إلى لون فضّي شمالي ذي وهج جميل، وقد لاحظوا ذلك التحوّل عندما كان الهواء مندفعاً خلال شعرها.

Twitter: @ketab_n

ـ «لم يكن ينبغي عليك أن تيأسي» قال السيد جان ذلك، ولم يقل يا سيدتي ، ثم تذكر وقال : «لقد أرادته السيدة فضّياً ناصعاً» .

قالت : «لونه أحسن من لون العقد، يا لك من رجل عظيم ، وكم كنت مُتعِبة !» .

بعد ذلك دَعَكَ راحتيه بشيء ما من أحد الأواني قائلاً : «سوف ألمسه بذلك فقط» . وابتسم لكاترين بسعادة بالغة وأمرّ يده بخفّة على رأسها .

وقفت كاترين وتطلعت إلى نفسها باهتمام بالغ في المرآة . ولم يبد وجهها بمثل هذه السمرة الداكنة قط. كان شعرها مثل لحاء أبيض لشجرة «بتولا» صغيرة .

قالت : «يعجبني كثيراً جداً . كثيراً جداً» .

نظرت في المرآة كما لو أنها لم تر قط الفتاة التي كانت تتطلّع إليها .

قال الحلاّق : «والآن يجب أن نقصّ شعر السيّد. هل أعجبت السيّد هذه القَصّة؟ إنها قصّة تقليدية ، لكنها حديثة أيضاً» .

قال ديفيد : «أقصّ شعري ، لا أعتقد أنني سأقصّ شعري إلا بعد شهر» .

قالت كاترين : «أرجوك قصّه بطريقتي نفسها» .
قال ديفيد : «بل أقصر» .
ـ «كلا ، أرجوك ، الشكل نفسه تماماً» .

عندما قصّ شعر ديفيد، ومسح بيده على رأسه ، شعر بها باردة ومريحة .

ـ «ألا تنوي أن تجعله فضّي اللون؟» .
ـ «كلا . لدينا ما يكفينا من المعجزات . ليوم واحد» .
ـ «ولو قليلاً؟» .
ـ «كلا» .

نظر ديفيد إلى كاترين ثم إلى وجهه في المرآة . بدا أسمر اللون تماماً مثلها وشعره مثل شعرها .

ـ «أكنت ترغبين في ذلك كثيراً حقاً؟» .
ـ «فعلاً ، يا ديفيد . حقيقة . لكن فقط حاول أن تجعله أقصر قليلاً . أرجوك» .

تطلّع مرة أخرى في المرآة واتجه إلى المقعد وجلس . نظر الحلاّق إلى كاترين .

فقالت : «هيّا ابدأ ، وقصّ» .

Twitter: @ketab_n

الفصل العاشر

كان صاحب البيت يجلس إلى أحدى موائده في الشرفة وأمامه زجاجة نبيذ وكأس وفنجان قهوة فارغ، يقرأ صحيفة «أكلير ور دي نيس» عندما قدمت السيارة الزرقاء مندفعة على الطريق المليء بالحصا، ونزل ديفيد وكاترين متوجّهين إلى الشرفة عبر الممر المبلط بالحجر. لم يكن يتوقّع عودتهما بمثل هذه السرعة، وكان نَعِساً تقريباً، لكنه وقف وقال أوّل شيء وفد على ذهنه عندما كانا في مواجهته:

- «السيد والسيدة صبغا شعرهما، هذا حسن».
- «شكراً يا سيدي. يفعلون ذلك دائماً في شهر أغسطس».
- «هذا حسن، حسن جداً».

قالت كاترين لديفيد: «ذلك لطيف. نحن زبائن طيبون. إن ما يفعله الزبون الطيب هو شيء حسن. أنت شيء حسن جداً. يا إلهي، أنت كذلك».

في حجرتهما، كانت تهبّ نسمة بحرية لطيفة، فأصبحت الحجرة باردة.

قال ديفيد: «أنا أحب ذلك القميص الأزرق. قفي هناك بهذا الوضع وأنت ترتدينه».

قالت: «إنه بلون السيارة. أيبدو أحسن دون تنّورة؟».

قال - «أي شيء ترتدينه دون تنّورة يبدو أحسن. أنا خارج لأرى ذلك العنز العجوز، لأغدو زبوناً طيباً».

عاد ومعه دلو مُلىء بالثلج به زجاجة شمبانيا كان صاحب البيت قد طلبها لهما وندر

Twitter: @ketab_n

أن شربا مثلها. وبيده الأخرى صينية صغيرة عليها كأسان.

قال: «من الممكن أن يكون ذلك إنذاراً بالنسبة لهم».

قالت كاترين: «لم نكن في حاجة إليها».

- «يمكننا أن نجرّبها على الأقل. لن يستغرق الأمر أكثر من خمس عشرة دقيقة لتبرد».

- «لا تضايقني. أرجوك تعالَ إلى الفراش ودعني أراك وأشعر بك».

وبينما كانت تخلع عنه قميصه من فوق رأسه وقف هو ليساعدها.

بعد أن استغرقت في النوم نهض ديفيد وتطلّع إلى نفسه في مرآة الحمّام. التقط فرشاة ومشّط شعره. لم تكن هناك طريقة أخرى يمشّط بها شعره سوى الطريقة التي قصّ بها. وإلاّ فسيبدو مشوّشاً وغريباً، ولا بد له أن يكون بذلك الوضع، أما لونه فكان لون شعر كاترين نفسه. ثم اتّجه ناحية الباب ونظر إليها في الفراش. ثم عاد ثانية والتقط مرآة يدها الكبيرة.

قال لنفسه: «هذا ما يبدو عليه شكلك. لقد فعلت ذلك بشعرك، وقصصته مثل شعر فتاتك. وسأل المرآة: ما رأيك؟ ما رأيك؟ قولي».

قال: «يعجبك».

تطلع إلى المرآة وكان ما رآه شخصاً آخر، لكنه كان أقلّ غربة الآن.

قال: «لا بأس، يعجبك. والآن فلتمضِ في باقي اللعبة مهما تكن، ولا ينبغي أن تقول أبداً إن أحداً قد أغواك أو خدعك».

نظر إلى وجهه الذي لم يعد غريباً بالنسبة له على الإطلاق، لكنه كان وجهه في تلك اللحظة. وقال: «يعجبك. تذكّر ذلك. خذ ذلك في اعتبارك. أنت تعرف كيف تبدو الآن، وما أنت عليه».

بالطبع لم يكن يعرف ما كان عليه شكله بالضبط. لكنه بذل مجهوداً بمعاونة ما رآه في المرآة.

تناولا العشاء في شرفة البيت في تلك الليلة، كانا مبتهجين وهادئين ومستمتعين بتبادل النظرات في الضوء الشاحب الموجود على المائدة. بعد العشاء قالت كاترين للصبي الذي أحضر قهوتها: «خذ دلو تثليج الشمبانيا الموجود في حجرتنا وقم بتثليج زجاجة جديدة من فضلك».

Twitter: @ketab_n

سألها ديفيد: «أترغبين في زجاجة أخرى؟».

- «أعتقد ذلك. وأنت؟».

- «بالتأكيد».

- «ليس هناك ما يجبرك على الشرب».

- «هل ترغبين في براندي؟».

- «كلا. أفضل شرب النبيذ. أينبغي عليك أن تكتب غداً؟».

- «سنرى».

- «أرجوك أكتب لو كنت تحسّ برغبة في ذلك».

- «والليلة؟».

- «سوف نرى بخصوص الليلة. فلقد كان يوماً شاقّاً للغاية».

كانت الظلمة حالكة أثناء الليل، والريح تهب فيسمعانها خلال أشجار الصنوبر.

- «ديفيد».

- «نعم».

- «كيف حالك يا فتاة؟».

- «أنا بخير».

- «دعني أتحسّس شعرك يا فتاة. من قَصّه لك؟ أهو جان؟ إنّه مقصوص قصة جيدة ومثل قصة شعري تماماً. دعني أقبلك يا فتاة. أوه! لك شفتان رائعتان، أغمضي عينيك يا فتاة».

لم يغمض عينيه لأن الظلام كان حالكاً في الحجرة. وفي الخارج كانت الريح تهبّ بقوة بين الأشجار.

- «أتعرف أنه ليس من السهل أبداً أن تصبح فتاة حتى لو كنت فتاة حقيقية، إذا كنت حقيقة تحس الأشياء».

- «أعرف».

- «لا أحد يعرف. أنا أقول لك ذلك عندما تكون فتاتي». هذا لا يعني أنك لا تشبع رغبتك. أنا أشبع رغبتي بسهولة فائقة. إنها عملية إحساس ليس إلا، الناس تكذب بصدد ذلك على ما أعتقد. لكن من المبهج جداً أن أشعر بك وأتناولك. أنا في غاية السعادة. أرجو فقط أن تكون فتاتي وتحبّني بالطريقة التي أحبّك بها. أحبيني أكثر. بالقدر الذي تستطيعه وأنت في هذه الحالة الآن. وأنت في هذه الحالة. أجل وأنت كذلك. أرجوك».

Twitter: @ketab_n

كانا يقطعان بالسيارة الطريق المنحدر المتّجه إلى «كان»، وهبّت الريح بعنف عندما بلغا السهل، وأخذت تعبث بالشواطىء المهجورة، وأخذت الأعشاب الطويلة تتمايل وتتلاطم بينما كانا يعبران الجسر الممتد فوق النهر، وانطلقت السيارة بعد ذلك بأقصى سرعتها على الطريق السريع قبل مدخل المدينة. تناول ديفيد زجاجة النبيذ الباردة الملفوفة بمنشفة، وتناول جرعة كبيرة، وأحس بالسيارة تنطلق مسرعة، وتبعده عن عمله، وهي تصعد المطلع القائم على الطريق الاسفلت. لم يكتب هذا الصباح وفي اللحظة التي كانت تقود هي السيارة عبر المدينة في الطريق إلى الريف، انتزع سدادة الزجاجة وشرب ثانية وناولها إيّاها.

قالت كاترين: «لست في حاجة للشرب، فأنا على ما يرام تماماً».

- «حسن جداً».

مرا على «جولف جان» بمطعمه الممتاز ومشربه الصغير المفتوح، ومنطقة غابات الصنوبر، وسارا بمحاذاة شاطىء جان ليه بينز الأصفر المهجور. عبرا شبه الجزيرة، وهما يسيران في الطريق السريع المرصوف بالأسفلت. ودخلا مدينة «أنط» سائرين بمحاذاة السكك الحديدة حتى خرجا منها مروراً بمنطقة خلف الميناء وميدان قلعة الدفاع القديمة، ثم خرجا ثانية إلى الريف المكشوف. وقالت «طريق لا ينتهي أبداً. وأنا دائماً ما أطوي تلك المسافات بسرعة جداً».

توقفا وتناولا غداءهما في ظل حائط حجري قديم كان جزءاً من حطام مبنى متين بجوار مجرى ماء صاف ينبع من الجبال ويمر بالسهل البرّي في طريقه إلى البحر. كانت الريح تهبّ قوية من فوق قمم الجبال. فرشا بطانية على الأرض وجلسا إلى جوار بعضهما مستندين إلى الحائط يتطلعان عبر الأراضي القاحلة إلى البحر الذي كان منبسطاً وتحركه الريح.

قالت كاترين: «مكان لم يكن يستحق أن نحضر إليه. لم أكن أعرف أنه سيكون على هذا النحو».

نهضا ونظرا إلى التلال والقرى المنتشرة عليها، والجبال الرمادية القرمزية خلفها. كانت الريح تداعب شعرهما، وأشارت كاترين إلى طريق كانت قد قادت فيه السيارة ذات مرة في تلك المنطقة المرتفعة.

قالت: «يمكننا أن نذهب إلى أحد الأماكن الموجودة هنا، لكنها متلاصقة جداً وكأنها مرسومة. أنا أكره تلك القرى المعلّقة».

Twitter: @ketab_n

قال ديفيد: «هذا مكان جميل. وإلى جوارنا مجرى ماء لطيف، ولا يمكننا أن نحصل على حائط أفضل من ذلك».

- «أنت تجاملني. لا داعي لأن تكون كذلك».
- «أنه حائط متين والمكان يعجبني. سندير ظهورنا لكل تلك الرسوم».

أكلا بيضاً مسلوقاً، ودجاجاً محمّراً، ومخلّلاً وخبزاً طويلاً طازجاً، بعد أن شقّاه نصفين ونشرا فيه خردل «سوفورا»، وشربا نبيذاً ورديا (روزيه).

سألته كاترين: «أتشعر الآن بأنك على ما يرام؟».

- «بالتأكيد».
- «ألم تشعر بالضيق؟».
- «كلا».
- «ولا حتى من أجل أي شيء قلته أنا؟».

شرب ديفيد جرعة من النبيذ وقال: «كلا. لم أفكر إطلاقاً في ذلك».

وقفت قبالة الريح حتى أنها أطارت القميص فانكشف صدرها، ولسعت شعرها، ثم نظرت إليه بوجهها البنّي المشوب بالسمرة وابتسمت. ثم استدارت وأخذت تتطلع إلى البحر الذي كان هادئاً ويتماوج بسبب الريح.

قالت: «دعنا نذهب إلى «كان» ونحصل على الصحف ونقرأها في المقهى».

- «تودّين أن تستعرضي نفسك».
- «ولماذا لا أفعل؟ إنها المرة الأولى التي نخرج فيها معاً. أيضيرك لو فعلنا؟».

- «كلا. يا ديفيل. ولماذا أتضرّر؟».
- «لن أفعل ذلك، ما دمت غير راغب».
- «قلت إنك تريدين ذلك».
- «أريد أن أفعل ما تريده أنت. أعتقد أنني لا يمكن أن أكون مطيعة أكثر من ذلك، أليس كذلك؟».

- «لم يطلب منك أحدٌ أن تكوني مطيعة».
- «ألا يمكن أن نوقف ذلك؟ كلّ ما أردته أن يكون يومنا طيّباً. لماذا تفسد كلّ شيء؟».

- «دعينا ننظف المكان، ونرحل».

Twitter: @ketab_n

- «إلى أين؟».
- «إلى أيّ مكان. إلى ذلك المقهى اللعين».

اشتريا الصحف في «كان»، ومجلة «الفوغ» الفرنسية الجديدة، و «الكاشيير فرانسيس» و «الميروردي سبورت»، وجلسا إلى مائدة في أول المقهى بعيداً عن الهواء يقرآن ويتناولان شرابهما، وأصبحا ودودين مرة ثانية. شرب ديفيد زجاجة من «المهيج» ومياه «بيرييه» وشربت كاترين «الأرماجانس» مع مياه بيرييه.

وصلت فتاتان بسيارة، أوقفتاها في الشارع ودخلتا المقهى فطلبتا «شامبري كاسيس» وبراندي بالماء. وتناولت أجملهما البراندي بالصودا.

قالت كاترين: «من هاتان الفتاتان؟ هل تعرف؟».

- «لم أرهما من قبل قط».
- «أنا رأيتهما. لا بد أنهما تقطنان بمكان ما هنا في المنطقة. رأيتهما في (نيس)».

قال ديفيد: «الفتاة الأولى جميلة، لها ساقان رائعتان جداً».
قالت كاترين: «إنهما أختان. كلاهما جميلتان حقاً».
- «لكن الأولى أجمل. ليستا أمريكيتين».
كانت الفتاتان تتناقشان بحدّة، فقالت كاترين لديفيد: «يبدو أنه شجار كبير».

- «كيف عرفت أنهما أختان؟».
- اعتقدت ذلك عندما كانتا في نيس. أما الآن فلست متأكدة. فإطارات السيارة سويسرية».

- «إنها من طراز «أزوتا» القديم.
- «أنبقى لنرى ماذا سيحدث؟ فلم نشاهد شيئاً درامياً منذ مدة طويلة».

- «أعتقد أنها ستكون مشاجرة إيطالية كبيرة».
- «لا بد أن المسألة ستغدو خطيرة لأنهما ساكنتان».
- «سيشتعل الشجار. بسبب تلك الفتاة الحلوة».
- «نعم، إنها السبب. ها هي قادمة نحونا».
نهض ديفيد واقفاً.

قالت الفتاة بالإنجليزية لديفيد: «أنا آسفة. أرجو المعذرة. تفضّل بالجلوس».

فسألتها كاترين: «ألا تتفضلين بالجلوس؟».

Twitter: @ketab_n

ـ «لا أستطيع . صديقتي غاضبة منّي . لكنني أخبرتها أنكما تقدران الموقف . وسوف تصفحان عني» .

قالت كاترين لديفيد : «وهل نصفح عنها؟» .

ـ «دعينا نصفح عنها» .

قالت الفتاة : «كنت أعرف أنكما ستقدران الموقف . لقد ثار الجدال فقط لأنني أردت منك أن تخبريني أين قصصت شعرك» . واحمر وجهها خجلاً . «أم أن المسألة مثل نقل تفصيلة فستان؟ قالت صديقتي إنّها قصة مستفزّة للغاية» .

قالت كاترين : «سأكتب لك العنوان» .

قالت الفتاة : «أنا خجلة جداً ، أرجو أن لا أكون قد جرحت شُعورك؟» .

قالت كاترين : «كلا بالطبع . هل لك أن تتناولي شراباً معنا؟» .

ـ «لا أستطيع . هل لي أن أسأل صديقتي؟» .

عادت إلى مائدتها للحظة حيث جرى حوار سوقيّ قصير متبادل بصوت خفيض .

قالت الفتاة : «صديقتي تعتذر كثيراً لأنها لا تستطيع الحضور . لكنني آمل أن نلتقي مرة أخرى . لقد كنتما في غاية الكرم» .

وعندما عادت الفتاة إلى صديقتها قالت كاترين لديفيد : «كيف يتسنّى ذلك؟ في يوم عاصف كهذا؟» .

ـ «ستعود ثانية لتسألك أين فصّلت بنطلونك» .

كان النقاش ما يزال مستمرّاً على المائدة الأخرى . وما لبثت الاثنتان أن نهضتا متجهتين إليهما .

ـ «أتسمحان لي بأن أقدم صديقتي الـ . . .» .

ـ «اسمي (نينا)» .

قال ديفيد : «ونحن آل بورن . كم هو لطيف منكما أن تنضمّا إلينا» .

قالت الفتاة الجميلة : «بل كان لطيفاً منكما أن تسمحا لنا بذلك . وما صدر منا ما هو إلا فعل طائش» . واحمرت خجلاً .

قالت كاترين : «هذا إطراء بالغ . وعلى كل فهو حلاّق ممتاز» .

قالت الفتاة الجميلة : «لا بدّ أن يكون كذلك» .

Twitter: @ketab_n

كانت لها طريقة لاهثة في الكلام واحمرّت خجلاً.

وقالت لكاترين: «رأيناك في نيس، ووددت أن أتحدّث إليك، أعني أسألك».

واعتقد ديفيد أنها لا يمكن أن تحمرّ خجلاً مرة ثانية. لكنها فعلت.

سألت كاترين: «من منكما ستقصُّ شعرها؟».

فقالت الفتاة الأجمل «أنا».

وقالت نينا: «وأنا أيضاً، يا غبيّة».

- «قلت إنك لا تودّين».

- «غيّرت رأيي».

قالت الفتاة الأجمل: «أنا حقيقة أودّ ذلك. يجب أن ننصرف الآن. أتحضران عادة إلى هذا المقهى؟».

قالت كاترين: «أحياناً».

قالت الفتاة الأجمل: «إذن نتمنّى أن نراكما في وقت آخر. إلى اللقاء وشكراً لكرمكما البالغ».

عادت الفتاتان إلى مائدتهما، ونادتا الخادم فدفعتا الحساب وانصرفتا.

قال ديفيد: «ليستا إيطاليتين. الفتاة الأولى لطيفة لكنها تثير الأعصاب باحمرارها خجلاً».

- «إنها واقعة في حبّك».

- «بالتأكيد، فلقد رأتني في نيس».

- «حسناً، لا حيلة لي في ذلك إذا كانت تحبني، فهي ليست أول فتاة تقع في حبّي. فهناك العديد منهن حدث لهن ذلك».

- «وماذا عن نينا؟».

قالت كاترين: «تلك العاهرة».

- «إنها ذئبة. أعتقد أنها لا بدّ أن تكون مسلّية».

قالت كاترين: «لا أعتقد أنها من النوع المسلّي، بل هي من النوع الكئيب».

- «وهكذا كنت أنا».

Twitter: @ketab_n

قالت: «لنبحث عن مقهى آخر. فلقد انصرفتا بعيداً الآن».

- «لكنهما متحدّثتان».

قالت: «أعرف. وبالنسبة لي أيضاً. لكن الفتاة الأولى لطيفة. لها عينان جميلتان. هل رأيتهما؟».

- «لكنها رغم ذلك تحمرّ خجلاً إلى حد يثير الإزعاج».

- «لقد أُعجِبْتُ بها. ألم تعجبك؟».

- «أعتقد ذلك».

- «الناس الذين لا يستحون، لا يساوون شيئاً».

قال ديفيد: «احمرت نينا خجلاً مرة».

- «من الممكن أن أكون وقحة جدّاً مع نينا».

- «لن يؤثر فيها ذلك».

- «كلا. لأنها محصّنة تماماً».

- «أترغبين في شراب آخر قبل أن نعود إلى البيت؟».

- «ليست بي حاجة للشراب. لكن اشرب أنت».

- «ليست بي حاجة».

- «تناول كأساً أخرى. فأنت عادة تتناول كأسين في المساء. سأتناول كأساً صغيرة لمشاركتك».

- «كلا، دعينا نذهب إلى البيت».

أثناء الليل، استيقظ على صوت الرياح الشديدة العاتية، فاستدار وجذب الملاءة فوق كتفيه وأغمض عينيه ثانية. أحس بتنفُّسها. فأغمض عينيه مرة أخرى، أحس بتنفّسها هادئاً ومنتظماً، وبعد ذلك استغرق في النوم.

Twitter: @ketab_n

الفصل الحادي عشر

كان ذلك هو اليوم الثاني لهبوب الريح التي لم تخفّ حدّتها. ترك الكتابة في قصّتهم السرديّة ليكتب قصة ألحّت عليه منذ أربعة أو خمسة أيام مضت وأخذت تتبلور، ربما، كما اعتقد في الليلتين السابقتين أثناء نومه. كان يعلم أنه من السيّىء أن يقطع أيّ عمل يكون مشغولاً فيه، لكنّه شعر بالثقة واليقين من تمكّنه فيما كتبه، وفكر أنه من الممكن أن يترك القصّة السرديّة الطويلة ويكتب القصّة التي اعتقد أنه ينبغي عليه أن يكتبها في تلك اللحظة وإلا فقدها.

بدأت القصّة دون صعوبة مثلما يحدث للقصة عندما تكون جاهزة للكتابة، وعندما وصل إلى منتصفها عرف أنه لا بدّ أن يتوقّف ويتركها حتى اليوم التالي، وإذا لم يستطع أن يبتعد عنها بعد هذا التوقّف فلا بدّ أن يواصل كتابتها وينهيها. لكنه تمنّى لو يستطيع البقاء بعيداً عنها ويشرع فيها وهو منتعش في اليوم التالي. كانت قصّة جيدة، وتذكّر في تلك اللحظة كيف أنه كان قد انتوى كتابتها منذ فترة طويلة. وأن القصة لم تتبادر إلى ذهنه في الأيام القليلة الماضية. ولقد أخطأت ذاكرته في ذلك. إنما كانت الحاجة الملحّة للكتابة هي التي ألحّت عليه. عرف في هذه اللحظة كيف تنتهي القصّة. كان دائماً على علم بأن الريح والرمال كفيلة بذرّ هيكلها العظمي وأنها قد تلاشت الآن وأنه يخترعها من جديد. كانت كلها صادقة الآن لأنه عايشها أثناء كتابتها رغم أن هيكلها العظمي قد تناثر خلفه. إنها تبدأ الآن بالشرّ في المزرعة وكان عليه أن يكتبها وكان موفّقاً جداً في كتابتها.

وبينما كان مجهداً وسعيداً بعمله وجد مذكرة من كاترين تخبره فيها أنها لم تشأ أن تزعجه، فخرجت وستعود على الغداء. غادر الحجرة وطلب الإفطار، وبينما كان ينتظره، حضر السيد أيرول صاحب البيت وتحدّثا عن الجو. قال السيد أيرول إن الريح تهبّ على

Twitter: @ketab_n

هذا النحو أحياناً. وهي ليست رياح الميسترال الحقيقية، والفصل يؤكد ذلك، لكن من المحتمل أن تظلّ الريح تهبّ ثلاثة أيام. الجوّ غير معقول هذه الأيام. ولا شكّ أنك لاحظت ذلك بالتأكيد. لو أن أيّ إنسان واصل مراقبة الجوّ فلا بدّ أن يعرف أنه منذ الحرب لم يكن طبيعياً.

قال ديفيد إنه لم يكن بمقدوره أن يواصل مراقبة الجوّ لأنه كان مسافراً، لكن مما لا شك فيه أن الجوّ كان غريباً. قال السيد أيرول ليس الجوّ فقط، بل كل شيء تغيّر، وحتى ما لم يكن يتغيّر فقد تغير بسرعة كبيرة. من المحتمل أن يكون تغيّراً إلى الأحسن أو إلى الأفضل. وهو على الأقل لا يعارض ذلك. والسيد بصفته رجلاً خبيراً بشؤون العالم، من المحتمل أنه يرى ذلك على النحو نفسه.

فقال ديفيد بدون شك، وهو يبحث عن نهاية حاسمة حتى وإن كانت بلا معنى، وقال: يتحتم علي أن أراجع بطاقات التقارير.

فقال السيد أيرول: «بالضبط».

انتهى الموضوع عند هذا الحدّ، وانتهى ديفيد من شرب قهوته بالقشدة وقرأ صحيفة «ميروردي سبورت» وبدأ يفتقد كاترين. ذهب إلى الحجرة، وأخذ رواية «بعيداً ومنذ زمن طويل» وعاد إلى الشرفة وجلس في الشمس بجوار مائدة بعيداً عن الريح ليقرأ الرواية الرائعة. كانت كاترين قد أرسلت إلى دار «جاليجان» للنشر في باريس تطلب مطبوعات «دنت» كهدية له، وعندما وصلت الكتب أعطته إحساساً بأنه ثريّ حقيقة. فالأرقام في رصيده بالمصرف، حساب الفرنكات والدولارات، لم تبد حقيقية منذ أن كان في «لجرودي روا» ولم يعتبرها نقوداً على الإطلاق، لكن روايات و. هـ ـ هدسون أعطته إحساساً بالثراء، وعندما أخبر كاترين بذلك كانت في منتهى السعادة.

بعد أن قرأ لمدة ساعة بدأ يفتقد كاترين بشكل ملحّ جداً، ورأى الصبيّ الذي يعدّ المائدة فطلب منه أن يحضر ويسكي وصودا. بعد فترة تناول كأساً أخرى، ولم يمض على وقت الغداء إلا القليل حتى سمع صوت السيارة تأتي عبر التل.

أقبلت الفتاتان عبر الممرّ وسمع صوتيهما. كانتا سعيدتين ومبتهجتين.

صمتت الفتاة، وقالت كاترين: «أنظر من أحضرت لتراك».
قالت الفتاة: «أرجوك، أعلم أنه لم يكن ينبغي عليّ الحضور».

كانت الفتاة السمراء الحلوة، إحدى الاثنتين اللتين قابلاهما في المقهى بالأمس، تلك التي تحمرّ خجلاً.

Twitter: @ketab_n

قال ديفيد: «كيف حالك؟».

كان من الواضح أنها ذهبت إلى الحلاّق وأن شعرها قُصَّ بالطريقة نفسها التي قَصَّت بها كاترين شعرها في بيارتز.

قال: «أرى أنك عثرت على المكان».
احمرّت الفتاة خجلاً ونظرت إلى كاترين طلباً للتشجيع.
فقالت كاترين: «انظر إليها، هيّا تحسس شعرها».

قالت الفتاة: «أوه يا كاترين» ثم قالت لديفيد «بإمكانك إذا كنت تريد».
قال: «لا تخافي. ماذا تظنّين بالمكان الذي جئت إليه؟».
قالت: «لا أدري. أنا سعيدة فقط لأن أكون هنا».
سأل ديفيد كاترين: «أين كنتما؟».

ـ «عند جان بالطبع، ثم توقّفنا قليلاً وتناولنا شراباً، وسألتُ ماريتا إذا كانت ترغب في تناول الغداء معنا. ألست سعيداً لرؤيتنا؟».

ـ «أنا مبتهج. أتتناولان شراباً آخر؟».

فسألته كاترين: «هل تعدّ لنا مارتيني؟» وقالت للفتاة: «كأس واحدة لن يضيرك؟».

ـ «لا، أرجوك. ينبغي عليّ أن أقود سيارتي».
ـ «أترغبين في شيري».
ـ «لا، أرجوك».

ذهب ديفيد خلف البار وأخرج الكؤوس وبعض الثلج فأعدَّ كأسين من المارتيني.

قالت الفتاة له: «سأتذوّق كأسك، إذا سمحت».
فسألتها كاترين: «إذن فأنت لست خائفة منه الآن؟».
قالت الفتاة: «كلا على الإطلاق». واحمرت خجلاً مرة أخرى وقالت:

ـ «طعمها جيد، لكنها قويّة بشكل مزعج».

قال ديفيد: «إنها قوية، والريح اليوم قوية ونحن نشرب طبقاً للريح».

قالت الفتاة: «أوه، أتفعلان ما يفعله كلّ الأمريكيين؟».

قالت كاترين: «العائلات العريقة فقط، عائلتنا، عائلة المورجانز، الولورث، الجيلكس، الجاكس. أنت تعرفين».

Twitter: @ketab_n

قال ديفيد: «يكون الجوّ قاسياً أثناء العواصف الثلجية والأعاصير. وأحياناً أتساءل عما إذا كنا سنستمتع بفترة الاعتدال الخريفي».

قالت الفتاة: «قد أرغب في تناول كأس يوماً ما إذا كان لا ينبغي عليّ القيادة».

قالت كاترين: «لا يتحتّم عليك أن تشربي لأننا نشرب. ولا تؤاخذينا إذا كنا نتبادل النكات طوال الوقت. أنظر إليها يا ديفيد، ألست سعيداً لأنني أحضرتها؟».

قالت الفتاة: «أُحبّ أن تتبادلا النكات، لا بد أن تصفحا عنّي لأنني في منتهى السعادة بوجودي هنا».

قال ديفيد: «لطيف منك أن حضرت».

عندما كانوا يتناولون الغداء في حجرة الطعام بعيداً عن الريح سألها ديفيد: «ماذا عن صديقتك نينا؟».

- «سافرت».

قال ديفيد: «كانت جميلة».

- «نعم، لقد وقع بيننا شجار كبير ومضت لحال سبيلها».

قالت كاترين: «كانت عاهرة. لكنني أعتقد أن أغلبهنّ عاهرات».

قالت الفتاة: «عادة ما يكنّ كذلك. آمل دائماً العكس، لكنهن كذلك».

قال ديفيد: «أعرف الكثير من السيدات، لكنهن لسن عاهرات».

قالت الفتاة: «نعم، من الممكن».

سألتها كاترين: «أكانت نينا سعيدة؟».

قالت الفتاة: «آمل أن تصبح سعيدة. فالسعادة بالنسبة للأذكياء شيء نادر كما أعلم».

- «لم تتح لك فرصة كافية لمعرفة سرّ ذلك».

قالت الفتاة: «إذا ارتكب المرء أخطاء فسيكتشفها بأسرع ما يمكن».

قالت كاترين: «لقد كنت سعيدة طوال الصباح. قضينا وقتاً رائعاً».

قالت الفتاة: «لست بحاجة لأن تقولي ذلك. فأنا الآن سعيدة أكثر من أيّ وقت مضى على قدر ما أستطيع أن أتذكّر».

أخيراً، بعد أن فرغوا من تناول السلاطة، سأل ديفيد الفتاة:

- «هل تقطنين بعيداً عن هنا في منطقة الساحل؟».

Twitter: @ketab_n

- «لا أظن أنني باقية هنا».

- «حقاً؟ يا للأسف». قال ذلك وأحسّ بتوتّر يسود المائدة، مثل توتر حبل يشد سفينة ضخمة راسية على الميناء. وأخذ ينقل بصره من الفتاة، وأهدابها مرسلة إلى أسفل تكاد تلمس خديها، وإلى كاترين التي نظرت إليه مباشرة.

وقالت: «كانت عائدة إلى باريس فقلت لها لماذا لا تبقين هنا إذا كان لدى أيرول حجرة؟ تعالي وتناولي الغداء معنا ونرى إذا كان ديفيد سيعجب بك، وإذا كان المكان سيعجبك. هل تعجبك يا ديفيد؟».

قال ديفيد: «نحن لسنا في نادٍ. إنه فندق». فأشاحت كاترين ببصرها، وتصرّف هو بسرعة لكي يغطي حرجها، ومضى في حديثه كما لو أن الأمر لم يلفت النظر. «نحن نرحب بك كثيراً وأنا متأكد أن أيرول لديه حجرة، لا بدّ أنه سيكون مسروراً لحصوله على زبون آخر هنا».

جلست الفتاة إلى المائدة وأهدابها مرسلة إلى أسفل وقالت:

- «أعتقد أنه من الأفضل ألاّ أبقى».

قالت كاترين: «أرجوك أن تبقي لعدة أيام. فأنا وديفيد نحب أن تبقي معنا. فليس لديّ أحد هنا يظلّ بصحبتي عندما يعمل. سنستمتع بأوقات طيبة بالأسلوب نفسه الذي قضينا به هذا الصباح. قل لها يا ديفيد».

فلتذهب إلى الجحيم، عليها اللعنة، هكذا فكر ديفيد.

قال لها: «لا تكوني حمقاء» وقال للصبيّ الذي يقوم بالخدمة: «استدع السيد أيرول من فضلك. لنَنْتهِ من موضوع الحجرة».

سألت الفتاة: «ألا يضيركما حقيقة؟».

قال ديفيد: «لم نكن لنطلب منك ذلك، لو كان يضيرنا، لقد أعجبنا بك وأنك متبرّجة جداً».

قالت الفتاة: «سأكون مفيدة بقدر ما أستطيع. أرجو أن أعرف كيف يكون ذلك».

قال لها ديفيد: «فلتكوني سعيدة بالأسلوب الذي كنت عليه عندما حضرت إلى هنا، فهذا مفيد في حد ذاته».

قالت الفتاة: «أنا كذلك الآن. أودّ لو آخذ كأساً من المارتيني الآن طالما أنني لن أقود السيارة».

Twitter: @ketab_n

قالت كاترين: «يمكنك الحصول على كأس الليلة».

- «سيكون ذلك رائعاً، أيمكننا أن نذهب ونرى الغرفة الآن وننهي هذا الموضوع؟».

أخذها ديفيد في السيارة إلى المدينة لإحضار أمتعتها والسيارة الأزوتا القديمة ذات السقف المتحرك، من حيث تركتها في مكان الانتظار أمام المقهى في «كان».

أثناء الطريق قالت: «زوجتك رائعة، وأنا مغرمة بها».

كانت تجلس إلى جواره ولم ينظر إليها ديفيد ليرى ما إذا كانت احمرّت خجلاً.

قال: «وأنا مغرم بها أيضاً».

قالت: «وأنا مغرمة بك أيضاً. هل ذلك صواب؟».

أسقط ذراعه ووضع يده على كتفها فمالت هي عليه.

قال: «سنبحث ذلك الموضوع».

- «أنا سعيدة لأنني الأصغر».

- «أصغر ممن؟».

قالت: «من كاترين».

قال: «هذا شيء غريب جداً كي تقوليه».

- «أعني، أنني اعتقدت أنك ربما تعجب بشخص ما في مثل حجمي. أم أنك تهتم فقط بالفتيات الطويلات؟».

- «كاترين ليست طويلة».

- «بالطبع لا. ما قصدته فقط أنني لست في طولها».

- «أجل وأنت سمراء جداً كذلك».

- «نعم. سنبدو متوافقين كلّنا».

- «من الذي سيبدو؟».

- «كاترين وأنا، وأنت وأنا».

- «سنكون كذلك».

- «ماذا يعني ذلك؟».

- «أعني، لا مناص من أن نبدو متوافقين فيما بيننا، وذلك بإمكاننا، لو أن كلاً منا تصرف بشكل لائق عندما نكون مع بعضنا!».

Twitter: @ketab_n

- «نحن الآن مع بعضنا».

- «كلا». كان يقود السيارة بيد واحدة على عجلة القيادة، مستنداً إلى الخلف ناظراً إلى عمق الطريق مباشرة عند مفترق الطرق رقم ٧. وكانت هي قد وضعت ذراعها عليه، فأكمل كلامه قائلاً:

- «نحن نركب السيارة نفسها فقط».
- «لكني أشعر بأنك معجب بي».
- «أجل، أنا على وعي بذلك جداً، لكن ذلك لا يعني شيئاً».
- «بل يعني شيئاً ما».
- «ليس أكثر من المعنى».
- «لطيف جدّاً أن تقول ذلك».

قالت ذلك ولم تزد بأي كلمة، ولم تسحب يدها حتى بعد أن وصلا إلى مقهى البوليفار وتوقفا خلف السيارة الايزوتا الفراتشيسكو القديمة، الواقفة تحت الأشجار العتيقة. عندئذٍ ابتسمت له ونزلت من السيارة الزرقاء الصغيرة.

كانت الريح ما تزال تهبّ حتى ذلك الحين خلال أشجار الصنوبر المحيطة بالفندق. وديفيد وكاترين وحيدان في حجرتهما بعد أن عادت أخيراً من عند الفتاة بعد أن استقرت في الحجرتين اللتين استأجرتهما.

قالت كاترين: «أعتقد أنها ستكون مرتاحة. وأفضل حجرة بالنسبة لها بالطبع هي المجاورة لحجرتنا التي تقع في آخر الفندق حيث تعمل أنت».

قال ديفيد: «سأحتفظ بها. وسأصرّ عليها ولن أُغيّرها من أجل عاهرة مستوردة».

قالت كاترين: «لماذا أنت عنيف هكذا؟ لم يطلب منك أحد أن تتنازل عنها. أنا أقول فقط إنها أفضل حجرة. والحجرتان المجاورتان لها مناسبتان تماماً».

- «من تكون هذه الفتاة بأيّ حال؟».

- «لا تكن عنيفاً هكذا. إنها فتاة لطيفة وأنا معجبة بها. أعرف أنه شيء لا يغتفر أن أحضرتها إلى هنا دون الرجوع إليك وأنا آسفة. لكنني فعلت ذلك وهذا ما حدث، اعتقدت أنك قد تفضّل أن يكون في صحبتي شخص ما لطيف وجذاب وبمثابة صديق أخرج لأتجوّل معه بينما أنت تعمل.

- «أوافق إذا كنت تريدين شخصاً ما».

Twitter: @ketab_n

- «أنا لم أرد أيّ شخص. أنا فقط اندفعت ناحية إنسانةٍ ما أعجبت بها واعتقدت أنها لا بد ستعجبك وأنه سيكون من المبهج بالنسبة لها أن تكون هنا لفترة قصيرة».

- «لكن من هي؟».

- «أنا لم أفحص أوراقها، استفسر منها إذا كنت في حاجة إلى ذلك!».

- «حسناً، إنها متبرّجة، على الأقل. لكن إلى من تنتمي هذه الفتاة؟».

- «لا تكن خشناً. إنها لا تنتمي إلى أحد».

- «قولي لي بصراحة».

- «لا بأس. إنها مغرمة بنا نحن الاثنين، إذا لم أكن مجنونة».

- «أنت لست مجنونة».

- «ربما ليس بعد».

- «وما المخرج إذن؟».

- «لا أدري».

- «ولا أنا كذلك».

- «مأزق غريب ومضحك».

قال ديفيد: «لا أدري، أترغبين في الخروج للسباحة؟ لقد افتقدنا ذلك بالأمس».

- «دعنا نسبح، أينبغي أن نسألها؟ من باب الذوق».

- «في هذه الحالة سنرتدي ملابس البحر».

- «لا يهمّ، خاصة وأن هناك رياحاً. فاليوم ليس مناسباً للاستلقاء على الرمال لاكتساب السمرة».

- «أكره أن أرتدي لباس البحر وأنا معك».

- «وأنا كذلك. لكن من المحتمل أن تهدأ الريح غداً».

في طريق الإستيرال، وبينما كان ديفيد يقود السيارة الأزوتا القديمة يجرّب الفرامل بوقفات مفاجئة، ويحسُّ بأن المحرّك في حالة سيئة ويحتاج إلى إصلاح، وكان ثلاثتهم في السيارة، قالت كاترين: هناك منطقتان أو ثلاث نسبح فيها دون ملابس عندما نكون وحدنا. فهذه هي الطريقة الوحيدة لاكتساب السمرة الحقيقية».

قال ديفيد: «اليوم غير مناسب لذلك. فالجوّ عاصف جداً».

فقالت كاترين للفتاة: «ورغم ذلك يمكننا السباحة دون ملابس إذا كنت ترغبين.

Twitter: @ketab_n

وإذا لم يتضايق ديفيد. من الممكن أن يكون هذا شيئاً ظريفاً».

قالت الفتاة: «كم أُحبّ ذلك!» وسألت ديفيد: «هل يضيرك ذلك؟».

في المساء أعدّ ديفيد المارتيني وقالت الفتاة: «أكلُّ شيء دائماً بمثل هذه الروعة كما كان اليوم؟».

قال ديفيد: «كان يوماً سعيداً».

لم تكن كاترين قد خرجت من حجرتها بعد، وكان هو والفتاة جالسين أمام مشرب صغير كان السيد أيرول قد أقامه في الشتاء الماضي في ركن من القاعة الكبيرة التي تتسم بالروح الريفية لإقليم البروفينسال.

قالت الفتاة: «عندما أشرب أرغب في قول أشياء لا ينبغي عليّ أبداً أن أقولها».

- «إذن لا تقوليها».
- «إذن ما فائدة الشراب؟».
- «ليست هذه هي الفائدة. أنت لم تشربي إلا كأساً واحدة».
- «هل تضايقت عندما كنا نسبح؟».
- «كلا، وهل كان ينبغي أن أتضايق؟».
- «كلا، أحببت أن أراك».

قال: «ذلك عظيم. كيف حال المارتيني؟».

- «إنه قويّ جداً لكنه يعجبني، ألم يسبق لك أنت وكاترين أن سبحتما أبداً على ذلك النحو مع أي شخص آخر؟».
- «لا، ولماذا نفعل ذلك؟».
- «سأكتسب سمرة حقيقية».
- «أنا واثق أنك ستكونين كذلك».
- «هل تفضّل ألا أكون داكنة السمرة؟».
- «لونك لطيف هكذا. فليكتس كل جسمك بهذا اللون، إذا كنت ترغبين».
- «أعتقد أنك تفضل أن تكون إحدى فتاتيك افتح لوناً من الأخرى».
- «أنتِ لست فتاتي».

قالت: «بل فتاتك، قلت لك ذلك من قبل».

- «لم تعودي تحمرّين خجلاً».

Twitter: @ketab_n

- «تغلّبت على ذلك عندما ذهبنا إلى السباحة، آمل ألاّ نفعل ذلك من الآن ولفترة طويلة. وهذا هو السبب في أنني قلت كل شيء، لأتغلب على ذلك. ذلك هو سبب قولي لك».

قال ديفيد: «تبدين جميلة في هذا القميص الكشمير».

- «قالت كاترين ينبغي أن نرتديه نحن الاثنتين. هل تضايقت لأنني قلت لك؟».

- «لقد نسيت كل ما قلته لي».
- «بأنني أُحبّك».
- «لا تتكلمي بمثل هذا الأسلوب السخيف».

- «ألا تصدق أن ذلك يحدث للناس على مثل هذا النحو؟ الذي حدث هو أنني وقعت في غرامكما أنتما الاثنين».

- «لا يقع المرء في غرام شخصين في آن واحد».
قالت: «أنت لا تعرف».

قال: «كلام سخيف. إنه مجرد أسلوب للتعبير».

- «ليس كذلك على الإطلاق. إنها حقيقة».

- «أنت تعتقدين أنها كذلك. هراء».

قالت: «لا بأس. فلتكن كذلك. لكنني موجودة هنا».

قال: «أجل. أنت موجودة بالفعل». وكان يتطلع إلى كاترين وهي تقطع الحجرة مبتسمة وسعيدة.

قالت: «أهلاً بالسباحين. أوه يا للخسارة! لم أدرك ماريتا وهي تشرب كأسها الأولى».

قالت الفتاة: «ما زلنا فيها».

- «ماذا كان أثرها عليها، يا ديفيد؟».
- «جعلها تتكلّم بطريقة سخيفة».

- «سنبدأ بكأس جديدة، يا لكما من عظيمين لإحياء هذا البار. إنه نوع من البارات المؤقتة. سنجلب له مرآة، فالبار لا يكون جيداً دون مرآة».

قالت الفتاة: «يمكننا الحصول على واحدة غداً. كم أودّ أن أشتريها».

Twitter: @ketab_n

قالت كاترين : «لا داعي للإسراف . سنشتريها معاً وبعدها يمكننا كلنا أن نرى بعضنا عندما نتكلم بطريقة سخيفة وندرك مدى السخف الموجود فيه ، لا يمكنك خداع مرآة في بار» .

قال ديفيد : «يحدث ذلك ، عندما أبدو غريباً ومضحكاً في مرآة أعلم أنني تائه فيها» .

قالت كاترين : «أنت لا تتوه أبداً . كيف تتوه بصحبة فتاتين؟» .

قالت الفتاة وقد احمرت خجلاً للمرة الأولى هذا المساء : «حاولت أن أقول له» .

قالت كاترين : «إنها فتاتك كما أنني فتاتك . والآن كفّ عن جمودك ولتصبح لطيفاً مع فتاتيك . ألا يعجبك ما تبدوان عليه؟ أنا ذات الشعر الأشقر التي تزوجتها» .

- «بل أنت أكثر سمرة وشقرة من التي تزوجت بها» .

- «وأنت كذلك ، ولقد أحضرت لك فتاة أكثر سمرة كهدية ، ألا تعجبك هديتك؟» .

- «بل تعجبني كثيراً جداً» .

- «كيف تودّ أن يكون مستقبلك؟» .

- «لا أدري شيئاً عن مستقبلي» .

سألته الفتاة : «لا أعتقد أنه مستقبل معتم ، أليس كذلك؟ .

قالت كاترين : «عظيم جداً . هي ليست جميلة وثريّة ، وموفورة الصحة وجذابة فقط ، بل هي قادرة على إطلاق النكات . ألست سعيداً بما أحضرته لك؟» .

قالت الفتاة : «أفضل أن أكون هدية معتمة اللون ، على أن أكون مستقبلاً معتماً» .

قالت كاترين : «لقد قالت نكتة ثانية» . أعطها قبلة يا ديفيد ، قدّمها إليها كهدية خالصة» .

وضع ديفيد ذراعه حول الفتاة وقبّلها وبدأت هي تقبّله وأدارت رأسها بعيداً ، ثم شرعت في البكاء ورأسها منكس إلى أسفل وكلتا يديها مستندتان إلى البار .

قال ديفيد لكاترين : «تقوم بنكتة رائعة الآن» .

قالت الفتاة : «أنا على ما يرام . لا تنظرا إلي . أنا على ما يرام» .

وضعت كاترين ذراعها حولها وقبلتها وربتت على رأسها .

قالت الفتاة : «سأكون على ما يرام . أرجوكما . أعلم أنني سأكون على ما يرام» .

قالت كاترين : «أنا آسفة جداً» .

Twitter: @ketab_n

قالت الفتاة: «أرجوك دعيني أذهب. يجب أن أذهب».

وعندما ذهبت الفتاة وعادت كاترين إلى البار قال ديفيد «وبعد».

فقالت كاترين: «لم يكن ينبغي أن تقول ذلك. أنا آسفة يا ديفيد».

- «سوف تعود».
- «ألا تعتقد أن كل ما حدث كان نوعاً من الادّعاء؟».
- «كانت دموعها حقيقية إذا كان ذلك ما تقصدين».
- «لا تتغابَ. أنت لست غبياً».
- «أنا قبّلتها بتحفُّظ تامّ».
- «نعم في فمها».
- «وأين تتوقّعين مني أن أقبّلها».
- «أنت على صواب. أنا لم أنتقدك».
- «أنا سعيد لأنك لم تطلبي منّي أن أقبّلها عندما كنّا على الشاطىء».

قالت كاترين: «فكرت في ذلك».

ضحكت، وتحدثت مثلما كانت في الأيام الأولى قبل أن يشاركهما أحد في حياتهما وقالت: «هل اعتقدت أنني سأفعل ذلك؟».

؟- «أجل اعتقدت أنك ستفعلين، لذا فقد غطست في المياه».
- «خيراً فعلت».

ضحكت كاترين ثانية وقالت: «حسناً، لقد ابتهجنا».

قال ديفيد: «شكراً لله. أحبّك، يا ديفيل، والحقيقة أني لم أقبّلها حتى يحدث كلّ ذلك».

قالت كاترين: «لا داعي لأن تقول لي. فلقد رأيتك. كان مجهوداً بائساً».

- «أتمنى لو تذهب».

قالت كاترين: «لا تكن قاسي القلب. والحقّ أنني أنا التي شجعتها».

- «وأنا حاولت ألاّ أشجّعها».
- «لقد حرّضتُها عليك. سأذهب وأحضرها».
- «كلا. انتظري قليلاً. فهي واثقة جداً من نفسها».
- «كيف يمكنك ذلك يا ديفيد؟ وأنت قد أهنتها منذ لحظة».
- «أنا لم أفعل».

Twitter: @ketab_n

- «شيء ما قد أهانها. سأذهب وأحضرها».

لكن لم يكن هناك داعٍ لذلك، لأن الفتاة عادت إلى البار حيث كانا واقفين واحمرت خجلاً وقالت: «أنا آسفة». كان وجهها مغسولاً وشعرها ممشطاً واتجّهت ناحية ديفيد وقبّلته في فمه بسرعة قائلة: «تعجبني هديتي. هل أخذ أحد شرابي؟».

قالت كاترين: «ألقيته. سيقوم ديفيد بإعداد كأس جديدة».

قالت: «آمل أنك ما زلت تحبّ أن يكون لديك فتاتان. لأنني فتاتك سوف أكون فتاة كاترين أيضاً».

قالت كاترين: «أنا لست مولعة بالفتيات».
كانت هادئة جداً، لكن صوتها لم يبد طبيعياً سواء بالنسبة لها أو لديفيد.

- «على الإطلاق؟».
- «لم يكن لي ولع بهن قط».

- «بإمكاني أن أكون فتاتك إذا رغبت في أن يكون لك فتاة، وأيضاً فتاة لديفيد».

فسألتها كاترين: «ألا تعتقدين أن ذلك نوع من الاستحواذ الكبير؟».

قالت الفتاة: «كان ذلك هو السبب في حضوري إلى هنا. اعتقدت أن ذلك هو ما كنت ترغبين فيه».

قالت كاترين: «لم يكن لي فتاة على الإطلاق».

قالت الفتاة: «أنا غبية جداً. ولم أكن أعرف. أليس ذلك صحيحاً؟ أرجو ألاّ تستخري مني؟».

- «أنا لا أسخر منك».

- «لم أكن أعلم أنني غبيّة إلى هذا الحدّ الكبير». قالت ذلك وهي تعني أنها «أخطأت» هذا ما أعتقده ديفيد وكذلك كاترين.

في تلك الليلة قالت كاترين وهما في الفراش: «لم يكن ينبغي على الاطلاق أن أدعك تتعلّق بها بأيّ شكل.. بأيّ شكل من الأشكال».

- «أتمنّى لو لم تكوني رأيتها على الإطلاق».
- «ربما كان يحدث ما هو أسوأ. من الممكن أن نسايرها ونتخلّص منها، هذا أفضل أسلوب».

Twitter: @ketab_n

- «يمكن أن تطردها»..
- «لا أعتقد أن ذلك هو الأسلوب للتخلّص منها الآن، ألا تعني أيّ شيء بالنسبة لك؟».

- «أوه بالتأكيد».
- «أعلم أنها تعني بالفعل، لكنني أحبّك، وكلّ ذلك هراء، وأنت تعلم أنه كذلك أيضاً».

- «أنا لا أعلم شيئاً عن ذلك، يا ديفيل».
- «حسناً، لا يتحتّم علينا أن نكون وحيدين، أستطيع أن أقرّر بأنك لن تكون وحيداً إلا إذا متّ».

Twitter: @ketab_n

الفصل الثاني عشر

كان اليوم هو اليوم الثالث لهبوب الريح، لكنها لم تكن آنذاك بالعنف والقوة نفسهما. وقد جلس إلى المائدة يعاود قراءة القصة من البداية إلى حيث توقّف، ويصحّح بينما هو يقرأ. مضى مع القصة متعايشاً معها تماماً، حتى أنه عندما سمع صوت الفتاتين بالخارج لم ينصت إليهما. وعندما مرّتا من أمام النافذة رفع يده ملوّحاً لهما. فلوّحتا له وابتسمت الفتاة السمراء فوضعت كاترين أصابعها على شفتيها. بدت الفتاة حلوة هذا الصباح، ووجهها مشرق ولونها بهيج. وكانت كاترين جميلة كعادتها دائماً. وسمع صوت محرك السيارة وعرف أنها السيارة «البجاتي». عاود قراءة القصة. كانت قصة جيدة وفرغ منها تقريباً قبل الظهر.

كان الوقت متأخراً جداً لتناول الإفطار، كما أنه كان متعباً بعد العمل ولا يرغب في قيادة السيارة «الأزوتا» القديمة داخل المدينة بفراملها السيئة ومحرّكها الضخم غير المضبوط، رغم أن المفاتيح كانت موجودة مع مذكرة تركتها كاترين له، تقول فيها إنهما ذهبتا إلى «نيس» وسيلقيان نظرة على المقهى بحثاً عنه وهما في طريق عودتهما إلى البيت.

فكر: ما أبغيه، لترٌ من البيرة الباردة في كوب من الزجاج السميك مع تفاحة بالزيت منثور عليها فلفل مجروش. لكن البيرة في هذه المنطقة الساحلية ليست جيدة، وفكر بسعادة في «باريس» وفي الأماكن الأخرى التي كان فيها، وكان سعيداً لأنه كتب شيئاً يعلم أنه جيّد وأنه قد انتهى منه. كان ذلك أول شيء يكتبه وينتهي منه منذ أن تزوّجا. فكّر: الانجاز هو الذي ينبغي عليك أن تفعله. إذا لم تنجز، فلا شيء يستحقّ حتى اللعنة. غداً سأشرع في تكملة القصة السردية من حيث توقّفت، وأواصل الكتابة حتى أتمّها. وكيف ستنهيها؟ كيف ستقوم بإنهائها الآن؟

Twitter: @ketab_n

حالما بدأ يفكر خارج نطاق عمله، عاوده ثانية كل ما كان قد أغلق عليه باب فكره. فكر في الليلة الماضية، وفي كاترين والفتاة اليوم وهما على الطريق، الطريق نفسه الذي قطعه هو وكاترين منذ يومين مضيا، وشعر بالغثيان. لا بد أنهما في طريق عودتهما الآن. الوقت بعد الظهر، ربما تكونان في المقهى. لقد قالت له لا تكن وحيداً. لكنها كانت تقصد شيئاً آخر كذلك. من المحتمل أنها تعرف ما تفعله. من المحتمل أنها تعرف كيف تتقلب الأمور. ربما كانت تعرف بالفعل. وأنت لا تعرف.

رغم أنك كتبت، فإنك الآن قلق، من الأفضل لك أن تكتب قصة أخرى، اكتب أصعب قصة إذا كان لا بد أن تكتب وأنت تعلم ذلك. هيا ابدأ بالكتابة، ينبغي عليك أن تصمد حتى تكون ذا نفع بالنسبة لها، أي نفع كنت بالنسبة لها، قال، كثير. كلا، ليس كثيراً. كثيراً تعني الكفاية. هيا وابدأ القصة الجديدة غداً. تبّاً للغد، ومن يضمن ماذا يكون الغد؟ هيّا وابدأ الآن.

وضع المذكرة والمفتاح في جيبه وعاد إلى حجرة العمل وجلس وكتب أول فقرة من القصة الجديدة التي كان يعدل دائماً عن كتابتها منذ عرف كتابة القصة. كتب بجمل بسيطة واضحة رغم كل المشاكل التي اعترضته لمعايشتها لتخرج حيّة نابضة. لقد كتب البداية، وكان كل ما ينبغي عليه هو أن يواصل. قال، هذا كل شيء. أنت ترى كم هو سهل ذلك الذي لا تستطيع أن تفعله؟ بعد ذلك خرج إلى الشرفة وجلس طالباً ويسكي وصودا.

أحضر ابن أخي صاحب البيت الزجاجات والثلج وكأساً من البار، وقال:

- «سيدي لم يتناول إفطاره».
- «كنت أعمل لفترة طويلة».

قال الصبي: «هذا مؤسف. أأستطيع إحضار أيّ شيء؟ ساندوتش؟».

- «ستجد في حجرتنا علبة سمك ماكرو بالنبيذ. افتحها وأحضر لي قطعتين في طبق».
- «قد لا تكون باردة».
- «لا يهمّ. أحضرها».

جلس وأكل السمك بالنبيذ وشرب الويسكي والصودا. ولم يغيّر من الأمر شيئاً أن السمك لم يكن بارداً، قرأ صحيفة الصباح فيما هو يأكل.

فكّر: كنّا في «لجرودي روا» نأكل السمك الطازج، لكن ذلك كان منذ فترة طويلة. وما أن بدأ يتذكر أيام «لجرودي روا» حتى سمع صوت السيارة قادمة فوق التل.

Twitter: @ketab_n

قال للصبيّ: «ارفع هذه الأشياء». ونهض متجهاً ناحية البار فصبّ لنفسه كأساً من الويسكي، وضع ثلجاً وأكمل الكأس بالصودا. كان طعم السمك المحفوظ بالنبيذ ما زال في فمه فتناول زجاجة المياه المعدنية وشرب منها.

سمع صوتيهما ثم دخلتا من الباب في مثل سعادة الأمس ومرحه. رأى كاترين برأسها الناصع البياض ووجهها الأسمر تفيض حيوية وابتهاجاً، والفتاة الأخرى السمراء وأثر عبث الريح ما زال في شعرها، عيناها تلمعان جداً، وفجأة احمرت خجلاً واقتربت ناحيته.

قالت كاترين: «لم نتوقف عندما اكتشفنا أنك لست موجوداً بالمقهى».

- «عملتُ لوقت متأخر. كيف حالك، يا ديفيل؟».
- «أنا في أحسن حال. لا تسألني عن حالها».

فسألته الفتاة: «هل عملت جيّداً، يا ديفيد».

فقالت كاترين: «هكذا تكون الزوجة الصالحة. لقد نسيت أن أسأل».

- «ماذا فعلتما في (نيس)؟».
- «أنستطيع أن نتناول شراباً وبعد ذلك نخبرك؟».

كانتا تجلسان قريباً منه عن يمين وشمال وأحس بكلتيهما.

سألته الفتاة ثانية: «هل عملت جيداً»؟

قالت كاترين: «بالطبع عمل جيداً، ذلك هو الأسلوب الوحيد الذي يعمل به دائماً، يا حمقاء».

- «هل عملت جيداً، يا ديفيد؟».

قال: «نعم». وأدار رأسها إليه وقال: «شكراً».

قالت كاترين: «ألا نتناول الشراب؟ لم نفعل شيئاً على الإطلاق. اشترينا بعض الأشياء فقط، وطلبنا أشياء أخرى، وعملنا فضيحة».

- «لم نعمل أيّة فضيحة بالفعل».

قالت كاترين: «لا أدري. لا شأن لي».

سأل ديفيد: «ماذا كانت الفضيحة».

قالت الفتاة: «لا شيء يذكر».

قالت كاترين: «أنا لا أهتم. لكنها أعجبتني».

- «علّق أحدهم على بنطلونها في نيس».

قال ديفيد: «هذه ليست بفضيحة، فتلك مدينة كبيرة. وعليك أن تتوقّعي مثل هذه

Twitter: @ketab_n

الأشياء إذا ذهبت إلى هناك».

فسألت كاترين: «هل يبدو مظهري غريباً؟. كم أودّ لو أنهم أحضروا المرآة. هل أبدو غريبة المظهر بالنسبة لك؟».

- «كلا».

تطلع ديفيد إليها. فبدت شقراء جداً مشوّشة الشعر، وسمرتها أدكن من أي وقت مضى، ومنتشية جدّاً ومتحدّية.

قالت: «ذلك عظيم. لأنني جرّبت ذلك الأمر».

فقالت الفتاة: «أنت لم تفعلي أيّ شيء».

- «لقد فعلت وأعجبني ذلك، وأنا أريد شراباً آخر».

فقالت الفتاة: «إنها لم تفعل أيّ شيء، يا ديفيد».

- «هذا الصباح، أوقفت السيارة على امتداد الطريق وقبّلتها وقبّلتني هي، وفي طريق عودتنا من نيس فعلنا الشيء نفسه، وعندما نزلنا من السيارة الآن حالاً».

نظرت كاترين إليه بحب لكن بريبة ثم قالت: «كان شيئاً لطيفاً، لكنه أعجبني. قبّلها أنت أيضاً. فالصبيّ ليس موجوداً».

فأدار ديفيد الفتاة فتشبّثت به فجأة وتبادلا القبلات. لم يكن يقصد تقبيلها ولم يكن يعلم أن الأمر سيصل إلى هذا المدى عندما فعل ذلك.

قالت كاترين: «هذا يكفي».

قال ديفيد للفتاة: «كيف حالك؟».

كانت خجلة وسعيدة مرة ثانية.

قالت له الفتاة: «أنا سعيدة بالأسلوب الذي عبرت به».

قالت كاترين: «كل واحد سعيد الآن. لقد شاركنا كلنا في الذنب».

تناولوا غداءً لذيذاً جداً وشربوا «الثافل» البارد خلال تناولهم المشهّيات ولحم الدجاج الرومي، والسلاطة والفاكهة والجبن، كانوا جائعين جداً، وأخذوا يتبادلون النكات ولم يكن أحد منهم في عزلة.

قالت كاترين: «هناك مفاجأة مذهلة على العشاء أو قبله، أتعلم يا ديفيد، أنها تنفق النقود مثل هنديّ ثريّ سكران».

سألت الفتاة: «أهم لطاف؟ أم أنهم مثل المهراجات؟».

Twitter: @ketab_n

- «سيحكي لك ديفيد عنهم . فهو من أوكلاهوما».
- «ظننت أنه من شرق أفريقيا».
- «كلا، بعض أسلافه هربوا من أوكلاهوما وأخذوه إلى شرق أفريقيا عندما كان صغيراً جداً».
- «لا بدّ أن ذلك كان مثيراً حقاً».
- «كتب رواية عن فترة إقامته في شرق إفريقيا عندما كان صبيّاً».
- «أعرف».

سألها ديفيد: «هل قرأتها؟».

قالت: «قرأتها. هل تريد أن تسألني عنها؟».

قال: «كلا. فهي مألوفة لي».

قالت الفتاة: «لقد جعلتني أبكي. أهو والدك الذي كان فيها؟».

- «بطريقة أو بأخرى».
- «لا بدّ أنك كنت تحبّه كثيراً».
- «فعلاً».

قالت كاترين: «لم تتحدّث معي قط عنه».

- «أنت لم تسأليني قط».
- «هل بإمكانك أن تتحدّث عنه؟».

قال: «كلا».

قالت الفتاة: «لقد أحببت الرواية».

قالت كاترين: «لا تبالغي».

- «لم أكن أبالغ».
- «عندما قبّلته...».
- «أنت طلبت مني ذلك».

قالت كاترين: «إن ما أردت قوله عندما قاطعتني، هو، هل فكرت فيه ككاتب عندما كنت تقبّلينه وأعجبت به للغاية؟».

ملأ ديفيد كأساً من «الثافل» وشرب شيئاً منه.

قالت الفتاة: «لا أدري، لم أكن أفكّر».

قالت كاترين: «أنا سعيدة، كنت أخشى أن يصبح ذلك، مثل موضوع القصاصات».

Twitter: @ketab_n

بدت الفتاة متحيّرة حقيقة فشرحت لها كاترين.

- «قصاصات الصحف حول روايته الثانية. كتب روايتين، كما تعرفين».

- «قرأت رواية «الصدع» فقط».

- «الثانية كانت عن الطيران، أثناء الحرب، إنها الشيء الجيّد الوحيد الذي لم يكتب أحد مثله عن الطيران».

- «قاذفات القنابل».

قالت كاترين: «انتظر حتى تقرأها. فهذه الرواية كان من الممكن أن تودي بحياتك لكي تكتبها. وتدمّرك تدميراً كاملاً. لا تعتقدي أبداً أنني لا أعرف رواياته لأنني لا أفكر فيه ككاتب عندما أقبّله».

قال ديفيد: «أعتقد أنه ينبغي علينا أن نرتاح فترة القيلولة. يجب أن تنامي قليلاً، يا ديفيل. فأنت متعبة».

قالت كاترين: «لقد تكلمت كثيراً جداً. كان غداء لذيذاً، وأنا آسفة إذا كنت قد تحدّثت كثيراً إلى حدّ الزهو».

قالت الفتاة: «بل أحببتك عندما تحدّثت عن الروايات. كنت مدهشة».

قالت كاترين: «أنا لا أحس بأنني مدهشة. أنا متعبة. ألديك الكثير من الكتب لقراءتها؟».

قالت الفتاة: «لديّ كتابان. فيما بعد سأقترض بعض الكتب لو استطعت».

- «أتسمحين لي بالحضور لرؤيتك فيما بعد؟».

قالت الفتاة: «إذا رغبت في ذلك».

لم ينظر ديفيد إلى الفتاة ولم تنظر هي إليه.

قالت كاترين: «ألن أزعجك؟».

قالت الفتاة: «ليس لديّ شيء هامّ أقوم به».

استلقى كل من كاترين وديفيد جنباً إلى جنب على السرير في حجرتهما والريح تهبّ بالخارج في يومها الأخير، ولم يكن وقت القيلولة هذا مثل الوقت نفسه في الأيام الخوالي.

- «هل بإمكاني أن أحكي لك الآن؟».

- «أفضل كثيراً لو أغفلنا ذلك».

Twitter: @ketab_n

- «كلا، دعني أحكي لك. هذا الصباح عندما أدرت محرك السيارة كنت خائفة، وحاولت القيادة بحرص شديد، وأحسست داخلي بخواء، وما كدت أرى مشارف «كان» فوق التل، حتى كان الطريق خالياً تماماً خاصة بجوار البحر، فنظرت خلفه فوجدته خالياً، فانحرفت عن الطريق في دغل من الأعشاب. مثل أعشاب الساج. قبّلتها وقبّلتني وجلسنا في السيارة. وأحسست بغربة شديدة، ثم عاودنا السير بالسيارة إلى نيس. ولا أدري إذا كان من المفروض أن يحكي الناس ذلك أم لا. لم أكن أهتمّ ساعتها، وذهبنا إلى كل مكان واشترينا كل شيء. هي تحبّ شراء الأشياء، وأبدى أحدهم ملاحظة وقحة، لكنها في الحقيقة لم تكن شيئاً يستحقّ الاهتمام، بعد ذلك توقّفنا في طريق عودتنا إلى البيت، وقالت لي إنّ من الأفضل لو أنني كنت فتاتها فقلت أنا لا يهمني أي وضع، وكنت سعيدة حقاً لأنني فتاة بأيّ حال من الأحوال، ولم أكن أعرف ماذا أفعل، لم أشعر قط من قبل، بأنني جاهلة تماماً بخصوص ذلك. لكنها كانت رقيقة، وأرادت أن تساعدني على ما أعتقد. لا أدري، على أي حال كانت رقيقة. وعندما كنت أقود السيارة كانت سعيدة، ومبتهجة ورقيقة للغاية بالطريقة نفسها التي نكون نحن عليها أحياناً، أو عندما أكون أنا بالنسبة لك، أو كل منا بالنسبة للآخر، وقلت لها أنا لا أستطيع القيادة إذا هي فعلت ذلك. وهكذا توقّفنا. أنا قبّلتها فقط لكنني أعلم أنه حدث بالنسبة لي، لذا فقد مكثنا هناك لفترة ثم قدت السيارة مباشرة إلى البيت. قبّلتها هنا قبل أن ندخل وكنا سعيدتين، ولقد أعجبت بذلك ولا زالت».

قال ديفيد بحذر: «وهكذا فقد فعلتها الآن، وما زلت تعايشينها».

- «أنا لست كذلك. لقد أعجبني ذلك وسأسعى لتحقيقه».

- «كلا. لا ينبغي عليك فعل ذلك».

- «أقسم سأفعلها وأفعلها. طالما أنا أعايشها وأتخطّاها».

- «من الذي يقول إنّك ستتخطينها؟».

- «أقسم. لكنني حقيقة ينبغي أن أفعل ذلك، يا ديفيد. لم أكن أتصور أبداً أنني سأكون هكذا».

. لم يقل أي شيء.

قالت: «ساعود؛ أؤكد لك أنني سأتخطّى ذلك بقدر يقيني بمعرفة كل شيء. أرجوك أن تثق بي».

لم يقل أيّ شيء.

Twitter: @ketab_n

- «إنها تنتظرني. ألم تسمعني وأنا أسألها؟ إن ذلك مثل التوقّف في منتصف أي شيء».

قال ديفيد: «أنا ذاهب إلى باريس، يمكنك أن تلحقي بي في المصرف».

قالت: «كلا، كلا. ينبغي أن تساعدني».

- «لا أستطيع مساعدتك».

- «بل تستطيع. لا يمكن أن ترحل، لا أستطيع احتمال ذلك إذا رحلت. لا أريد أن أكون معها. إنه فقط شيء ينبغي عليّ فعله. ألا تستطيع أن تفهم؟ أرجوك أن تفهم؟ إنك دائماً تفهم».

- «ليس في هذه الجزئية».

- «أرجوك حاول، لقد تفهمت دائماً من قبل، أنت تعرف أنّك تفهمت كل شيء، أليس كذلك؟».

- «أجل، من قبل».

- «لقد بدأ هذا الأمر معنا ولن يُمارَس إلا معنا فقط، عندما أنتهي من ذلك، أنا لست واقعة في غرام أيّ أحد آخر».

- «لا تفعلي ذلك».

- «لا بد أن أفعل. كلّ ما حدث لي، منذ أن ذهبت إلى المدرسة، أني أتيحت لي الفرص لفعل ذلك، وكانوا يرغبون في فعلها معي. ولم أرغب أبداً في فعلها ولم أفعلها على الإطلاق. لكن الآن ينبغي أن أفعل».

لم يقل أي شيء.

- «أرجوك أن تتفّهم الوضع».

لم يقل أيّ شيء.

- «على أية حال هي واقعة في غرامك، ويمكنك أن تنالها وتغسل كل شيء بتلك الطريقة».

- «أنت تقولين كلاماً مجنوناً، يا ديفيل».

قالت: «أعرف ذلك. سأكفّ عن الكلام».

قال: «فلتنامي قليلاً. استلقي فقط بالقرب مني وبهدوء، وسرعان ما يستغرق كلانا في النوم».

قالت: «رغم ذلك أحبّك، وأنت شريكي الحقيقي في ذلك الأمر كما قلت لها.

Twitter: @ketab_n

قلت لها الكثير جداً عنك، لكنها تفضل الحديث حصراً عن ذلك الأمر دون كل ما قلته لها، أنا هادئة الآن، لذا فسوف أذهب».

- «لا. لا تذهبي».

قالت: «بل سأذهب. انتظرني. لن أتأخر كثيراً».

عندما عادت إلى الحجرة لم يكن ديفيد موجوداً هناك، فتوقّفت لفترة طويلة وتطلّعت إلى السرير ثم ذهبت إلى باب الحمّام وفتحته ووقفت وتطلّعت في المرآة بطولها. لم يكن على وجهها أيّ تعبير، تطلعت إلى نفسها من رأسها إلى أخمص قدميها، وليس على وجهها أيّ تعبير على الإطلاق. كان ضوء النهار قد تلاشى تقريباً عندما دخلت الحمّام وأغلقت الباب خلفها.

Twitter: @ketab_n

الفصل الثالث عشر

انطلق ديفيد بالسيارة من «كان» في الغسق، كانت الريح قدهدأت، وترك السيارة في المكان المعتاد وسار عبر الممر إلى حيث ينبعث النور على الفناء المبلط والحديقة. خرجت ماريتا من الباب واتجهت ناحيته.

قالت: «كاترين تشعر بتعب شديد. أرجوك كن رفيقاً بها».

قال ديفيد: «عليكما اللعنة أنتما الاثنتين».

- «بالنسبة لي، نعم. لكن ليس بالنسبة لها. لا ينبغي أن تلعنها، يا ديفيد».

- «لا تقولي لي ما يجب علي وما لا يجب.».

- «ألا تريد أن تقوم برعايتها؟».

- «ليس بشكل شخصي».

«أنا أفعل».

- «بالتأكيد، لقد فعلتِ ذلك».

قالت: «لا تكن أحمق. أنت لست بأحمق. أقول لك إن الأمر خطير».

- «أين هي؟».

- «هناك في انتظارك».

دخل ديفيد من الباب. كانت كاترين جالسة في البار الخالي.

قالت: «هاللو. لم يُحضروا المرآة».

قال: «هاللو ديفيل. آسف لتأخري».

Twitter: @ketab_n

صدمه ما بدت عليه من وهن شديد وصوتها الخافت.

قالت: «ظننت أنك قد سافرت».

- «ألم تلاحظي أنني لم آخذ أي شيء؟».

- «لم ألاحظ. وأنت لست في حاجة لأن تأخذ أي شيء حتى تسافر».

قال ديفيد: «كلا. لقد ذهبت إلى المدينة ليس إلا».

- «أوه طيب» قالت ذلك ونظرت إلى الحائط.

قال: «الريح تخف حدّتها. سيكون الغد يوماً طيّباً».

- «أنا لا أهتمّ بالغد».

- «بالطبع تهتمّين بذلك».

- «كلا لا أهتمّ، ولا تسألني عن ذلك».

قال: «لن أسألك عن ذلك. هل تناولت شراباً؟».

- «لا».

- «سأعدّ شراباً».

- «لن يفيد ذلك شيئاً».

- «من المحتمل. فنحن ما زلنا نحن».

بينما كان يعدّ الشراب أخذت هي ترقبه بشكل آلي وهو يقلبه ثم يصبّه في الكؤوس.

قالت: «ضع فيه زيتوناً مخلّلاً».

ناولها كأسها ورفع كأسه وقرعها بكأسها قائلاً: «في صحتّنا».

سكبت كأسها على البار وأخذت تتطلّع إلى الشراب وهو يسيل فوق الخشب ثم التقطت الزيتون ووضعته في فمها.

قالت: «لم يعد هناك نحن. لم يعد هناك شيء بعد».

أخرج ديفيد منديله من جيبه ومسح البار وأعدّ شراباً آخر.

قالت كاترين: «كلّه خداع».

ناولها ديفيد كأسها فنظرت إليه ثم سكبته على البار، وقام ديفيد بتنظيفه ثانية وعصر منديله، ثم شرب كأس شرابه المارتيني وجهّز كأسين أُخْرَيين.

قال: «لا بد أن تشربي هذه الكأس. اشربيها فقط».

قالت: «أشربها فقط». رفعت الكأس وقالت: «ها هو في صحّتك وصحة منديلك اللعين».

Twitter: @ketab_n

شربت الكأس دفعة واحدة ولم تبق فيها شيئاً ثم رفعتها، ونظرت إليه، وكان ديفيد على يقين من أنها ستقذف بها في وجهه. بعد ذلك وضعتها والتقطت منه زيتونة فأكلتها بحرص شديد وناولت النواة لديفيد.

قالت: «حجر نصف ثمين. ضعها في جيبك. سأحصل على واحدة أخرى، إذا كنت ستعدّ لي كأساً».

- «لكن على شرط أن تشربيه ببطء».

قالت كاترين: «أوه، أنا على ما يرام الآن تماماً، من المحتمل أنك لم تلاحظ الفرق. أنا متأكدة أن ذلك يحدث لكل إنسان».

- «تشعرين بتحسّن؟».

- «كثير من التحسّن في الحقيقة. أنت فقدت شيئاً لتوّك، ولقد ضاع، هذا كلّ ما في الأمر، إن كل ما نفقده هو كلّ ذلك الذي حصلنا عليه. لكننا نحصل على شيء جديد. ليس هناك مشكلة، أليس كذلك؟».

- «هل أنت جائعة؟».

- «كلا. لكنني متأكدة أن كل شيء سيكون على ما يرام. لقد قلت ذلك، ألم تقل أنت ذلك؟».

- «بالطبع، سيكون كل شيء على ما يرام».

- «أتمنّى لو أتذكّر ما الذي فقدناه. لكن لا يهمّ، أليس كذلك؟ أنت قلت إن ذلك لا يهمّ».

- «كلاّ».

- «إذن دعنا نبتهج. فلتمضِ الأمور كما يحلو لها».

قال: «لا بد أنه شيء نسيناه. وسوف نتذكّره».

- «لقد فعلتُ شيئاً وأنا أعرف. لكنه انتهى الآن».

- «هذا عظيم».

- «لم تكن غلطة أحد آخر مهما كان الأمر».

- «لا تتحدّثي عن الأخطاء».

ابتسمت وقالت: «أعرف ما هو الآن. لكنني لم أكن غير مخلصة، حقيقة يا ديفيد، كيف يتسنّى لي أن أكون كذلك؟ لا يمكن أن أكون. وأنت تعلم ذلك. كيف يمكنك أن تقول إنني كذلك؟ لماذا قلت ذلك؟».

Twitter: @ketab_n

- «أنت لم تكوني كذلك».

- «بالطبع لم أكن كذلك. وأتمنى لو أنك لم تقل ذلك على الإطلاق».

- «أنا لم أقل ذلك، يا ديفيل».

- «شخص ما قال ذلك. لكنني لم أكن كذلك. لقد فعلت فقط ما قلت إنني سأفعله. أين ماريتا؟».

- «في حجرتها على ما أعتقد».

- «أنا سعيدة لأنني عِلى ما يرام ثانية، ما دمت قد سحبت كلامك فأنا على ما يرام. كنت أودّ أن تكون فعلت ذلك حتى أستطيع أن أصفح عنك. لقد عدنا إلى أنفسنا ثانية، أليس كذلك؟ أنا لم أقتل علاقتنا».

- «كلا».

ابتسمت ثانية وقالت: «ذلك عظيم. سأذهب وأحضرها. هل يضيرك؟ كانت قلقة من أجلي. قبل أن تعود».

- «كانت كذلك؟».

قالت كاترين: «لقد تكلّمت كثيراً. دائماً ما أتكلم كثيراً جداً. إنها ممتعة للغاية، يا ديفيد، لو تسنّى لك أن تعرفها. لقد كانت رائعة جداً معي».

- «عليها اللعنة!».

- «كلا. لقد سحبت كلامك. تذكّر؟ لا أريد أن يحدث كل ذلك مرة أخرى. أتَعِدُني؟ شيء يبعث على الضيق، حقاً».

- «لا مانع. أحضريها. سوف تسعد عندما تراك على ما يرام ثانية».

- «أعلم أنها ستسعد، ويجب عليك أن تجعلها تشعر بالراحة أيضاً».

- «بالتأكيد، هل تشعر هي بالضيق؟».

- «عندما كنت أنا كذلك فقط. عندما عرفت أنني كنت غير مخلصة. لم أكن كذلك من قبل قط. ديفيد، اذهب أنت وأحضرها، عندئذ لن تشعر بالضيق. كلا، لا عليك، سأذهب أنا».

خرجت كاترين من الباب، وراقبها ديفيد وهي تمضي، أصبحت حركتها أقل آلية وصوتها كان أصفى، وعندما عادت كانت تبتسم وصوتها كان أكثر طبيعية.

Twitter: @ketab_n

قالت: «ستحضر خلال دقيقة. إنها خلاّبة، يا ديفيد. أنا سعيدة جداً لأنك سمحت لها أن تأتي».

دخلت الفتاة فقال ديفيد: «كنّا في انتظارك».

نظرت إليه ثم حوّلت بصرها بعيداً. ثم عادت ونظرت إليه ثانية وتمالكت زمام نفسها بشدة وهي تقول: «أنا آسفة لتأخري».

قال ديفيد: «تبدين جذّابة جداً»، والحق أنها كانت تبدو كذلك، لكن عينيها كان فيهما أكبر قدر من الحزن.

قالت كاترين: «جهّز لها شراباً، من فضلك يا ديفيد». وقالت للفتاة: «أنا شربت كأسين».

قالت الفتاة: «أنا سعيدة لأنك تشعرين بتحسّن».

قالت كاترين: «لقد جعلني ديفيد أشعر بالتحسن مرة أخرى، حكيت له عن كل شيء، وكيف كان الأمر ممتعاً وهو يفهم تماماً. هو يوافق حقيقة».

نظرت الفتاة إلى ديفيد، وفهم من الطريقة التي كانت أسنانها تعضّ بها شفتها العليا ما قالته له بعينيها.

فقال: «كان الجوّ كئيباً في المدينة. لقد افتقدت السباحة».

قالت كاترين: «أنت لا تعرف ما الذي افتقدته. لقد افتقدت كلّ شيء. كان ذلك هو الشيء الذي كنت أودّ أن أفعله طيلة حياتي، والآن وقد فعلته فقد أحببته».

كانت الفتاة مطرقة ببصرها إلى أسفل في الكأس.

- «إن أروع ما في الأمر هو أنني أحسّ بأنني ناضجة للغاية الآن، لكنها عملية مجهدة. بالطبع كان ذلك ما رغبت فيه، أما الآن وقد فعلته فقد اتضح لي أنني لست سوى صبيّ تحت التمرين في هذه المسألة، إلا أنني لن أكون كذلك دائماً».

قال ديفيد: «تنقصك الخبرة وهذا شيء مسلم به» ثم توقف برهة وقال بابتهاج شديد: «ألا تتحدّثين عن أيّ موضوعات أخرى؟ فالشذوذ الجنسي شيء مُملّ وموضة قديمة. لا أتصور أناساً مثلنا يصرّون أبداً على الحديث في ذلك».

قالت كاترين: «أعتقد أنه شيء ممتع جداً حقيقة بالنسبة للذي يمارسه لأول مرة».

Twitter: @ketab_n

قال ديفيد: «ذلك بالنسبة للشخص الذي يمارسه فقط، أما بالنسبة للآخرين فهو كريه جداً. ألا توافقينني يا هيرس؟».

فسألته كاترين: «هل ناديتها هيرس؟ ذلك اسم لطيف مضحك».

قال ديفيد: «لأنني لا أستطيع أن أناديها بيا سيدتي أو صاحبة العصمة. ألا توافقينني يا هيرس، بخصوص الشذوذ الجنسيّ؟».

قالت: «دائماً ما فكرت بأنه شيء مبالغ فيه وقبيح. لكنه الشيء الوحيد المتاح للفتيات، لأنه ليس لديهن شيء أفضل».

قالت كاترين: «لكن الممارسة الأولى بالنسبة لأي شيء ممتعة».

قال ديفيد: «نعم، لكن، أترغبين في التحدّث بصفة دائمة عن ذهابك لأول مرة إلى «ستيبلش بارك» أو كيف أنك، شخصياً وحدك وبمفردك تماماً، وبمحض اختيارك ركبت طائرة وأصبحت معلقة ما بين السماء والأرض تماماً؟».

قالت كاترين: «لقد خجلت. أنظر إليّ لترى إذا لم أكن خجلة».
أحاطها ديفيد بذراعه.

وقال: «لا تخجلي. تذكّري فقط أنك تؤدين سماع هيرس العزيزة تستعيد ذكرياتها عن كيفية صعودها إلى تلك الطائرة، هي والطائرة فقط، وليس هناك شيء بينها وبين الأرض، تخيّلي الأرض. بحرف الألف الكبير، وطائرتها فقط، وكان من المحتمل أن يُقتلوا ويتعرّض كلاهما لضربات ساحقة، وتفقد هي نقودها وصحتها وكرامتها وحياتها. (بحرف الحاء الكبير)، وأحباءها أو أنا أو أنت أو المسيح، (وكلها بحروف كبيرة)، لو أنها «اصطدمت»، ضعي كلمة اصطدمت بين قوسين».

ـ «هل شعرت أبداً أنك وحيدة، يا هيرس؟».
قالت الفتاة «كلا، لم يحدث لي حتى الآن. لكنني أودّ تناول كأس أخرى. أنا أحبّك، يا ديفيد».

قالت كاترين: «قبّلها ثانية بالطريقة نفسها التي فعلتها من قبل».
قال ديفيد «فيما بعد. فأنا الآن أُعدّ الشراب».
قالت كاترين: «أنا سعيدة جداً، إذ ساد الصفاء بيننا جميعاً، وأصبح كل شيء على ما يرام».

قالت ذلك وهي مفعمة جداً بالحيويّة والنشاط وصوتها طبيعيّ وأكثر استرخاء.

Twitter: @ketab_n

- «لقد نسيت المفاجأة التي اشترتها هيرس هذا الصباح، سأذهب لإحضارها».

عندما خرجت كاترين، أمسكت الفتاة يد ديفيد وضمّتها بحنان وقبّلتها. جلسا وأخذ كل منهما ينظر إلى الآخر، لمست يده بأصابعها وهي شاردة. ولفّت أصابعها حول يده ثم فكّتها. قالت: «لسنا في حاجة إلى الكلام. فأنت لا تريد مني أن ألقى عليك خطبة. أليس كذلك؟».

- «لا. لكن ينبغي علينا أن نتحدّث أحياناً».
- «أتودّ مني أن أرحل؟»
- «من الأفضل لك أن ترحلي».
- «هل تقبّلني إذن حتى أطمئنّ بأن كلّ شيء على ما يرام لو بقيت؟».

كانت كاترين قد وصلت والخادم الشابّ يحمل علبة كافيار كبيرة، ودلواً به ثلج على صينية بها طبق من الخبز المحمّص.

قالت: «تلك قبلة رائعة. رآها الجميع، لذا لم يعد هناك ما تخشاه من إثارة فضيحة أو أيّ شيء. أنهم يجهزّون بعض البيض وبعض البصل».

وضعت كاترين قطعة رماديّة كبيرة من الكافيار بين قطعتين من الخبز المحمّص الرقيق وقالت:

- «اشتريت لك هيرس علبة من «البولنجير بروت ١٩١٥»، ومنها ما هو مثلج، ألا تعتقد أنه ينبغي أن نشرب زجاجة من هذا؟».

قال ديفيد: «بالتأكيد، دعينا نشربه كله أثناء الأكل».

- «أليس ذلك من حسن الحظّ يا هيرس، خاصّة وأنا بمثل هذا الثراء؟ لذا فلن يكون لديك ما تقلقين من أجله، سوف نقوم برعايته رعاية جيّدة، أليس كذلك يا هيرس؟».

قالت الفتاة: «يجب أن نبذل قصارى جهدنا. أنا أحاول التعرف على احتياجاته. هذا كلّ ما استطعنا اكتشافه اليوم».

Twitter: @ketab_n

الفصل الرابع عشر

لم يكن قد نام سوى ساعتين تقريباً، عندما أيقظه ضوء النهار. ونظر إلى كاترين وهي نائمة في هدوء وتظهر سعيدة في نومها. تركها وهي تبدو جميلة وشابّة عليها سمة البراءة، وذهب إلى الحمّام، فاغتسل وارتدى بنطلوناً قصيراً وسار عاري القدمين عبر الحديقة إلى الحجرة التي يعمل بها. كانت السماء صافية رائعة بعد هدوء الريح والجوّ عابقاً بنسائم الصباح المنعشة ليوم جديد من أيام أواخر الصيف.

بدأ ثانية في كتابة قصّته الجديدة الصعبة، مقتحماً كل شيء كان قد كفّ عن مواجهته لمدة أعوام. عمل حتى حوالي الساعة الحادية عشرة، وعندما انتهى من عمل اليوم أغلق الحجرة وخرج، فوجد الفتاتين تلعبان الشطرنج على منضدة في الحديقة. بدت كلتاهما نضرة يافعة جذابة مثل سماء ذلك الصبح الصافية الرائقة.

قالت كاترين: «إنها تهزمني ثانية. كيف حالك يا ديفيد؟».

ابتسمت له الفتاة بخجل شديد.

فكر ديفيد: إنهما أحلى فتاتين رآهما على الإطلاق، ترى ما الذي سيجلبه لنا يومنا هذا؟

قال: «كيف حالكما؟».

قالت الفتاة: «نحن على أحسن حال. هل حالفك الحظ؟».

قال: «كله صعب المنال لكنه ليس من المحال».

ـ «لم تتناول شيئاً للإفطار».

قال ديفيد: «تأخّر الوقت جداً لتناول الإفطار».

Twitter: @ketab_n

قالت كاترين: «غير معقول. أنت الزوجة لهذا اليوم، يا هيرس، اجعليه يتناول الافطار».

سألته الفتاة: «أتفضّل قهوة وبعض الفاكهة، يا ديفيد، لا بد أن تأكل شيئاً».

قال ديفيد: «سأتناول قهوة دون حليب فقط».

- «سأحضر لك شيئاً ما لتتناوله».

قالت ذلك واتّجهت إلى داخل الفندق.

جلس ديفيد بجوار كاترين على المنضدة، ووضعت هي قطع الشطرنج والرقعة على كرسيّ. داعبت شعره قائلة: «هل نسيت أن لك رأساً فضّياً مثل رأسي؟».

قال: «نعم».

- «ستكون أفتح وأفتح لوناً من ذلك، وسأصبح أنا أكثر شقره وأكثر سمرة بالنسبة لجسدي؟».

- «سيكون ذلك رائعاً».

- «نعم، ولقد تخطيت كل شيء».

عادت الفتاة اللطيفة السمراء تحمل صينية عليها إناء صغير به كافيار ونصف ليمونة، وملعقة وقطعتان من الخبز المحمّص، والخادم الصغير، يحمل دلواً به زجاجة من «البولنجير» وصينية عليها ثلاث كؤوس.

قالت الفتاة: «سيكون هذا مفيداً بالنسبة لديفيد. بعد ذلك يمكننا الذهاب للسباحة قبل الغداء».

لا بعد السباحة والاستلقاء في الشمس على الشاطىء وتناول غداء ضخم استغرق وقتاً طويلاً، وشرب المزيد من «البولنجر»، قالت كاترين: «أنا متعبة حقاً، وناعسة».

قال ديفيد: «سبحت كثيراً، سنرتاح فترة القيلولة».

قالت كاترين: «أنا أريد أن أنام حقيقة».

سألتها الفتاة: «أتشعرين أنك على ما يرام، يا كاترين؟».

- «نعم، ولكنني ناعسة جداً».

قال ديفيد: «سنأخذك إلى الفراش». وسأل الفتاة: «هل معك ميزان حرارة؟».

قالت كاترين: أنا متأكدة بأن حرارتي ليست مرتفعة. أريد فقط أن أنام لمدة طويلة».

Twitter: @ketab_n

عندما كانت في السرير أحضرت الفتاة ميزان الحرارة، وقاس ديفيد درجة حرارة كاترين وجسّ نبضها. كانت الحرارة عادية، والنبض مائة وخمسة.

قال: «النبض سريع إلى حدّ ما، لكنني لا أعرف نبضك العادي».

- «ولا أنا أيضاً. لكن من المحتمل أن يكون سريعاً جداً».

قال ديفيد: «لا أعتقد أن النبض يعني شيئاً كثيراً مع حرارة عادية. لكن إذا كانت حرارتك مرتفعة، فسأحضر طبيباً من كان».

قالت كاترين: «لا أريد طبيباً. أريد أن أنام فقط، أيمكنني أن أنام الآن؟».

- «أجل يا جميلتي. ناديني إذا أردت».

وقفا يراقبانها وهي تستغرق في النوم. ثم انصرفا بهدوء تام. سار ديفيد فوق الممر المبلط بالحجارة وتطلع من خلال النافذة. كانت كاترين نائمة في هدوء، وتنفّسها منتظم. أحضر مقعدين ومنضدة وجلسا في الظل بجوار نافذة كاترين وأخذا يتطلّعان إلى البحر الأزرق من خلال أشجار الصنوبر.

سألها ديفيد: «ما رأيك في حالتها؟».

- «لا أدري. لقد كانت سعيدة هذا الصباح. بالضبط كما رأيتها عندما انتهيت من كتابتك».

- «والذي حدث الآن؟».

- «ربما يكون مجرد ردّ فعل للذي حدث بالأمس. إنها فتاة طبيعية يا ديفيد، وهذا أمر طبيعيّ».

قال: «بدت بالأمس وكأنها حزينة على موت إنسان تحبه. لم تكن على ما يرام». نهض وسار ناحية النافذة وتطلع إلى الداخل، كانت كاترين نائمة في الوضع نفسه وتتنفس برقّة. فقال للفتاة «إنها نائمة جيّداً، ألا تودّين أن تنامي لفترة قصيرة؟».

- «أعتقد ذلك».

قال: «سأذهب إلى حجرتي التي أعمل بها. بها باب يفضي إلى حجرتك موصد من كلا الجانبين».

سار فوق الممر المبلط بالحجر، وأغلق باب حجرته بالمزلاج، ثم فتح مزلاج الباب الموصل إلى الحجرتين. وقف وانتظر، وسمع بعد ذلك صوت المزلاج يفتح في الجانب

Twitter: @ketab_n

الآخر من الباب، ثم فتح الباب، جلسا جنباً إلى جنب على السرير وأحاطها بذراعه وقال ديفيد: «قبّليني».

قالت: «أحب أن أقبّلك. أحبّ ذلك كثيراً جداً. لكنني لا أستطيع فعل ذلك الشيء الآخر».

- «لا تستطيعين؟».
- «كلا، لا أستطيع».

بعد ذلك قالت: «أليس هناك أي شيء أستطيع أن أفعله لك الآن؟ أنا خجلة جداً بخصوص ذلك الشيء الآخر، لكنك تعلم كيف يمكن أن يؤدّي ذلك إلى متاعب».

- «استلقي فقط إلى جواري».
- «أحبّ ذلك فعلاً».
- «افعلي ما يحلو لك».

قالت: «سأفعل، وأنت أيضاً أرجوك. فلنفعل كل ما في وسعنا».

ظلت كاترين نائمة طول فترة الظهيرة وجزءاً من بداية المساء. أما ديفيد والفتاة فكانا جالسين في البار يتناولان الشراب.

قالت الفتاة: «ألن يُحضروا المرآة أبداً؟».

- «هل سألت الرجل العجوز أيرول عنها؟».
- «نعم. وسعد لذلك».
- «من الأفضل أن أدفع رسم زجاجات البولنجير أو شيئاً من هذا القبيل».
- «أعطيته أربع زجاجات وزجاجتين ممتازتين من البراندي، فهو يقوم برعايتنا. إنما زوجته هي التي أخشى منها المتاعب».
- «أنت على صواب تماماً».
- «أنا لا أريد أن أسبّب مشاكل، يا ديفيد».

قال «كلا. لا أعتقد ذلك».

كان الخادم الصغير قد حضر ومعه المزيد من الثلج، وجهّز ديفيد كأسين من المارتيني وناولها واحدة. ووضع الخادم الزيتون ثم عاد إلى المطبخ.

قالت الفتاة: «سأذهب لأرى كيف حال كاترين، وهل هي على ما يرام أم لا».

Twitter: @ketab_n

غابت حوالي عشر دقائق، فوقع بصره على كأسها فقرر أن يشربها قبل أن تفقد برودتها. أمسك الكأس في يده ورفعها إلى شفتيه، فأحس عندما لمست شفتيه أنها تعطيه إحساساً بالسعادة لأنها كأسها. كان ذلك شيئاً واضحاً ولا يمكن إنكاره. فكر: ذلك كلّ ما أنت في حاجة إليه. ذلك كل ما أنت في حاجة إليه حتى «تصبح الأمور منضبطة تماماً. فلتُحِبَّ كلاً منهما. ما الذي حدث لك منذ شهر مايو الماضي؟ ما الذي زاد عليك بأيّ حال؟ وعندما قرب الكأس إلى شفتيه مرة أخرى، حدث رد الفعل نفسه مرة أخرى. قال لنفسه: لا بأس، تذكّر أن تؤدّي العمل. العمل الذي أهملته. من الأفضل أن تبدأ بالعمل.

عادت الفتاة، وعندما رآها قادمة، ووجهها مشرق بالسعادة عرف كيف كان يشعر حيالها.

قالت: «هي ترتدي ملابسها. إنها تشعر بتحسّن. أليس ذلك رائعاً؟».

قال: «نعم» وهو يشعر بالحب لكاترين كالعادة دائماً.

ـ «ماذا حدث لشرابي؟».

قال: «شربته، لأنه شرابك».

ـ «حقاً يا ديفيد». واحمرت خجلاً وكانت سعيدة.

قال: «ها هي تماماً مثلما كانت بقدر المستطاع، ها هي كأس جديدة».

تذوّقت الشراب ومرّت بشفتيها بمنتهى الرقّة فوق حافة الكأس، ثم ناولته له، وفعل هو الشيء نفسه وأخذ رشفة طويلة.

قال: «أنت جميلة جداً، وأنا أحبك».

Twitter: @ketab_n

الفصل الخامس عشر

سمع محرّك السيارة «البجاني» يدور، وكانت ضجّته بمثابة مفاجأة واقتحام لهدوء المكان الريفيّ الذي كان يقطن فيه حيث تختفي ضجة السيارات. كان منعزلاً تماماً عن كلّ شيء فيما عدا القصّة التي كان يكتبها ويعايشها فيما هو يكتبها. أما الأجزاء الصعبة التي كان يخشاها، فقد أخذ يواجهها الآن واحداً بعد الآخر، وبينما كان يخلق الشخصيات، ويحدد المكان والأيام والليالي، والجوّ، كانت كل الأحداث متجسّدة أمامه وهو يكتب. واصل الكتابة حتى أحسّ بأنه متعب كما لو أنه كان قد قضى الليل يعبر صحراء بركانية وعرة، وأشرقت عليه الشمس وعلى الآخرين عند مشارف بحيرات رماديّة جافّة. وقد استطاع أن يحسّ بثقل بندقيّة مزدوجة معلّقة في كتفه، ويده على فوهتها، ويستشعر طعم الحصى في فمه. وعبْر وميض البحيرات الجافّة استطاع أن يرى الزرقة البعيدة للجرف. لم يكن أمامه أحد، في حين كان خلفه صفّ طويل من الحّمالين عرف أنهم قد وصلوا إلى هذه النقطة متأخّرين ثلاث ساعات.

لم يكن هو، بالطبع، الذي وقف هناك ذلك الصباح، ولا حتى ارتدى تلك السترة القطنية المرقعة من قماش مضلّع كلح لونه وأصبح أبيض تقريباً، وتعفن عند الإبطين من أثر العرق، حتى أنه خلعها وناولها إلى خادمه الذي يعدّه أخاً، ويشاركه الذنب في التأخير والدراية به، مراقباً إيّاه وهو يشمّ الرائحة الخليّة النتنة، ويهز رأسه في احتقار، ثم وهو يشدّ على أسنانه بينما كان يطوح بالسترة فوق كتفه السوداء ممسكاً إياها من أكمامها عندما شرعوا في اختراق تلك الأرض الجافّة الرمادية، قابضين على مواسير البنادق بأيديهم اليمنى وهي فوق أكتافهم على حين تتجه الأجزاء الخشبيّة الثقيلة (الدباشك) إلى الخلف تشير ناحية صف الحمّالين.

Twitter: @ketab_n

لم يكن هو ذلك الشخص، لكنه كان إيّاه بينما كان يكتب، وعندما يقرأ أحد ما ذلك، في النهاية، أياً كان من يقرأ ذلك، سيكتشف أنه هو. وما سيجدونه عندما يصلون إلى الجرف، إذا ما وصلوا إليه، وسيجعلهم يصلون إلى مشارفه عند ظهر ذلك اليوم، سيكتشف أيضاً، أياً كان من يقرأ، أن ما يوجد هناك ما زال موجوداً وسيظلّ موجوداً دائماً.

فكّر: إن كل ما اكتشفه والدك قد اكتشفه من أجلك أيضاً، الطيبة، الروعة، الشرّ، منتهى الشر، منتهى الشرّ الأكيد، الشرّ الحقيقي، ثم ما هو أكثر سوءاً. وفكر: إنه لمن العار لرجل بمثل هذه الموهبة، أن ينحو هذا المنحى رغبة في التدمير والمرح. ودائماً ما جعلته هذه القصّة يتذكّر أباه، وكان على يقين بأن أباه كان سيحبّ هذه القصة.

كان الوقت يقارب الظهيرة، عندما خرج من الحجرة وسار عاري القدمين على البلاطات الحجرية للممرّ المؤدي إلى مدخل الفندق. وجد عمالاً بالحجرة الكبيرة يثبتون مرآة على الحائط خلف البار، ومعهم السيد «ايرول» والخادم الصغير، فتحدّث إليهم ثم ذهب إلى المطبخ حيث وجد السيدة.

سألها: «ألديك أيّ نوع من البيرة، يا سيدتي؟».

قالت بالفرنسية: «بالتأكيد، يا سيد بورن». وأحضرت له زجاجة من الثلاّجة.

قال: «سأشرب من الزجاجة».

قالت: «كما يرغب السيد. لقد ذهبت السيدتان إلى نيس على ما أعتقد. هل عملت جيّداً يا سيدي؟».

- «جيداً جداً».
- «لقد بذلت جهداً كبيراً في العمل يا سيدي. وليس من المستحب ألا تتناول إفطارك».
- «أيوجد شيء من ذلك الكافيار باقياً في العلبة؟».
- «أنا متأكدة أنه يوجد».
- «سآخذ مقدار ملعقتين مليئتين».

قالت السيدة: «أنت غريب يا سيدي، بالأمس تناولته مع الشمبانيا. واليوم مع البيرة».

قال ديفيد: «لأنني وحدي اليوم. هل لديك علم إذا كانت دراجتي موجودة بالمخزن أم لا».

Twitter: @ketab_n

قالت السيدة: «لا بد أن تكون موجودة».

تناول ديفيد ملء ملعقة من الكافيار وقدم العلبة للسيدة قائلاً لها: «تناولي شيئاً، يا سيدتي، إنه مفيد جدّاً».

قالت: «لا يصحّ».

قال لها: «لا تكوني حمقاء، خذي شيئاً. هناك بعض الخبز المحمّص. وتناولي كأساً من الشمبانيا. يوجد بعض منها في الثلاجة».

أخذت السيدة ملء ملعقة من الكافيار ووضعتها فوق قطعة من الخبز المحمّص بقيت من الإفطار وصبّت لنفسها كأساً من النبيذ الروزيه (الوردي).

قالت: «إنه رائع. ينبغي أن ننحّيه جانباً الآن».

سألها ديفيد: «هل تشعرين بتأثير جيّد؟ سأتناول ملعقة أخرى».

- «آه، يا سيدي. لا ينبغي أن تمزح على هذا النحو».

قال ديفيد: «لم لا. فشركائي في المزاح ليسوا موجودين. إذا عادت هاتان المرأتان الجميلتان فأرجو أن تخبريهما أنني ذهبت للسباحة».

- «بالتأكيد، الصغيرة بها نوع من الجمال. ليست في جمال السيدة بالطبع».

قال ديفيد: «أنا لا أجدها قبيحة إلى حدّ كبير».

- «إنها نوع من الجمال، يا سيدي، وجذّابة جداً».

قال ديفيد: «ستظل تبدو هكذا إلى أن يحدث شيء آخر. إذا كنت ترين أنها حلوة».

- «سيدي» قالتها بنوع من التأنيب العميق.

سألها ديفيد: «لماذا كلّ هذه التجهيزات؟».

- «للمرآة الجديدة في البار، هديّة ساحرة جداً للفندق».

قال ديفيد: «كل إنسان له سحره. السحر والكافيار».

وأضاف: «اطلبي من الصبيّ أن يفحص إطارات الدراجة ريثما أنتعل حذاءً، وأبحث عن القبعة، لو سمحت؟».

- «سيدي يفضل أن يسير حافي القدمين. أنا كذلك في الصيف».

- «سنخرج معاً ذات مرة عاريي الأقدام».

Twitter: @ketab_n

- «سيّدي» قالتها وضمّنتها كل شيء.
- «هل أيرول غيور؟».

قالت: «بدون شك، سأخبر السيّدتين الجميلتين بأنك ذهبت للسباحة».

قال: «احتفظي بالكافيار بعيداً عن أيرول. إلى اللقاء».
- «إلى اللقاء يا سيدي».

على الطريق الإسفلتي المتوهّج الصاعد خلال أشجار الصنوبر، بعد أن غادر الفندق، أحسّ بالجذب على يديه وكتفيه وبطن قدميه وهو يدفع بدالات الدراجة صاعداً الطريق في الشمس الحارّة ورائحة أشجار الصنوبر والنسمات الحقيقية الآتية من البحر، أحنى ظهره إلى الأمام وجذب يديه بخفّة، وشعر بأن إيقاع ضرباته بدت أكثر انتظاماً وسلاسة عما كانت عليه في بداية ركوبه الدراجة، عندما مرّ بعلامة حجريّة للطريق، وبعد ذلك عند أول علامة مسافات كيلومترية ثم العلامة الثانية. ثم بدأ الطريق في الانحدار بمحاذاة البحر، فأوقف الدراجة ونزل فحملها على كتفه وسار إلى أسفل على الممر الترابي حتى الشاطىء. أسند الدراجة إلى شجرة صنوبر تفوح منها رائحة الصمغ في يوم حارّ، وهبط إلى الصخور، وخلع ملابسه واضعاً خفّه القماشي فوق البنطلون والقميص والقبعة، وغاص في الماء عند الصخور إلى داخل المياه العميقة الزرقاء، ومر بدرجات متنوّعة من الإضاءة تحت الماء وعندما رفع رأسه هزّها ليخلص أذنيه من الماء، ثم سبح في عرض البحر. استلقى عائماً على ظهره وراقب السماء والسحابات البيضاء الأولى التي كانت قادمة مع الهواء.

عاد سباحة إلى الشاطىء وتسلّق الصخور الداكنة الحمراء فجلس هناك تحت الشمس ينظر من أعلى إلى البحر. كان سعيداً لكونه وحده ولانتهائه من عمله لهذا اليوم. ثم بدأ يواتيه الإحساس بالوحدة الذي ينتابه دائماً بعد الانتهاء من العمل، وبدأ يفكر في الفتاتين وبدأ يفتقدهما، لم يفتقد واحدة دون الأخرى، بل افتقد كلتيهما معاً. ثم بدأ يفكر فيهما، ليس بشكل نقديّ، ولا كمشكلة من مشاكل الحبّ أو الهيام أو كنوع من الالتزام ولا في الذي حدث أو قد يحدث، ولا كأيّة مشكلة من مشاكل السلوك الآن أو فيما بعد، لكنه ببساطة فكّر كم افتقدهما. كان يحسّ بالوحدة دون وجودهما، كلّ على حدة، والاثنتين معاً، كان يريد الاثنتين معاً.

وإذ هو جالس على هذا النحو تحت الشمس فوق الصخور، متطلعاً إلى البحر، تبين له أنّه من الخطأ أن يرغب في الاثنتين معاً، لكنه كان يرغب في ذلك. قال لنفسه: لا يمكن

Twitter: @ketab_n

أن ينتهي الموقف مع كلتيهما نهاية حسنة، ولن يتسنى لك أن تعرف. لكن لا داعي لإلقاء اللوم على من تحبّ، ولا حتى توزيع اللوم، سيكون الزمن كفيلاً بتوزيع اللوم وليس أنت.

تطلّع إلى البحر وحاول أن يفكر بصفاء في الموقف، لكن دون جدوى، إن ما حدث لكاترين شيء في منتهى السوء. والأسوأ منه هو أنه بدأ يهتمّ بالفتاة الثانية. لم يكن ينبغي عليه أن يختبر ضميره حتى يعرف إن كان يحب كاترين أو إن كان مخطئاً في حب امرأتين، وأنه لا فائدة ترجى من ذلك أبداً. ولم يكن يعرف بعد كم من المتاعب يمكن أن تنتج عن ذلك. كان فقط على إدراك من أن المشاكل قد بدأت. قال لنفسه: «أن ثلاثتكم وقع في الشرك فعلاً مثل ثلاثة تروس تقوم بإدارة عجلة». وأضاف قائلاً: بل إن أحد التروس قد تهشّمت أسنانه، أو على الأصح فسد تماماً. غاص في أعماق المياه الباردة إلى حيث لا يشعر بافتقاد أحد، ثم طفا على السطح وهز رأسه وسبح إلى مسافة بعيدة. ثم استدار ليسبح عائداً إلى الشاطىء.

ارتدى ملابسه، وهو ما يزال مبتلاً بمياه البحر، ووضع قبعته داخل جيبه، ثم صعد إلى الطريق ومعه دراجته فامتطاها وقادها فوق التل وهو يحسّ بعدم كفاءة فخذيه لقلّة التدريب، بينما كان يضغط بمشطيْ قدميه على البدالات، أثناء صعوده مع الدفع المتواصل حتى يصل إلى الطريق وكأنه هو ودراجته حيوان ذو عجلات. ثم اندفع منحدراً وأصابعه تضغط على الفرامل، يأخذ المنعطفات بسرعة، حتى بلغ الطريق الإسفلتي المتوهّج داخل أشجار الصنوبر ووصل إلى الساحة الخلفية للفندق حيث بدا البحر بزرقة الصيف خلف الأشجار.

لم تكن الفتاتان قد عادتا بعد، فذهب إلى الحجرة وأخذ حمّاماً، واستبدل ملابسه بقميص نظيف وبنطلون قصير وذهب إلى البار بمزآته الجديدة الأنيقة. نادى الصبيّ وطلب منه أن يحضر ليمونة وسكيناً وبعض الثلج وعلّمه كيف يصنع «توم كولينز». ثم جلس على مقعد البار الطويل ونظر في المرآة ورفع كأسه. فكر: لا أدري إذا كان ينبغي عليّ أن أشرب معك أم لا لو أنني قابلتك منذ أربعة شهور مضت. أحضر له الصبيّ صحيفة «الإكليريير دي نيس» فقرأها أثناء انتظاره. لقد أصيب بخيبة أمل عندما لم يجد الفتاتين قد عادتا، وافتقدهما، وبدأ يصيبه القلق.

عندما وصلتا، أخيراً، كانت كاترين مرحة جدّاً ومبتهجة، على حين كانت الفتاة منكسرة الفؤاد، وهادئة جدّاً.

Twitter: @ketab_n

قالت كاترين لديفيد: «هاللو يا عزيزي. أوه، أنظر إلى المرآة. لقد أحضروها بالفعل. مرآة ممتازة جداً بالرغم من أنها تكشف كل شيء بشكل خطير، سأذهب لأغتسل استعداداً للغداء. آسفة لتأخرنا».

قالت الفتاة لديفيد: «لقد مكثنا بالمدينة وتناولنا شراباً، أنا آسفة إذ جعلتك تنتظر».

قال ديفيد: «ألك في شراب؟».

أشارت الفتاة بإصبعين. دفعت وجهها وقبّلته وانصرفت. وعاد ديفيد لقراءة الصحيفة.

عندما عادت كاترين كانت ترتدي بنطلوناً وقميصاً أزرق غامقاً من اللينو يحبه ديفيد، وقالت: «عزيزي، أرجو ألا تكون متضايقاً. فلم تكن غلطتنا في الحقيقة. رأيت جان ودعوته لتناول شراب معنا فقبل وكان لطيفاً جداً».

- «الحلاّق؟».

- «بالطبع. جان، وهل هناك أحد آخر يدعى جان أعرفه في (كان)؟ كان في منتهى اللطف وسأل عنك. أأستطيع تناول كأس من المارتيني، يا عزيزي؟ لقد شربت كأساً واحدةً فقط».

- «أعتقد أن الغداء جاهز الآن».

- «مجرد كأس واحدة، يا عزيزي».

جهّز ديفيد كأسين من المارتيني على راحته، ثم حضرت الفتاة، وكانت ترتدي فستاناً أبيض من الشاركسكين وبدت منتعشة ونضرة. وقالت: «أيمكنني أن أتناول كأساً كذلك، يا ديفيد؟ فقد كان الجو حاراً اليوم؟ كيف كان الجوّ هنا؟».

قالت كاترين: «كان يجب أن تبقي هنا وتقومي على رعايته».

قال ديفيد: «قضيت وقتي على ما يرام. كان البحر رائعاً جداً».

قالت كاترين: «أنت تستخدم كلمات وصفيّة. تضفي الحيوية على كل شيء».

قال ديفيد: «آسف».

قالت كاترين: «وتلك كلمة أخرى متكلفة (داندي). اشرح لفتاتك الجديدة معنى كلمة «داندي»، فهي من التراث الأمريكي».

Twitter: @ketab_n

قالت الفتاة: «أعتقد أنني أعرف كلمة (داندي). إنها الكلمة الثالثة من اغنية[1] «يا تكي دودول داندي». أرجو ألا تتضايقي يا كاترين».

قالت كاترين: «أنا لست متضايقة. لكن منذ يومين مضيا عندما كنتما تقومان بتلك الحركات الإغرائية حيالي، فإن ذلك كان شيئاً متكلّفاً (داندي) واليوم إذا انتابني أدنى إحساس بذلك، فعليكما أن تتصرّفا، كما لو أنني حمار، ولا أدري شيئاً».

قالت الفتاة: «أنا آسفة، يا كاترين».

قالت كاترين: «مرة أخرى آسفة وآسفة. كما لو أنك لم تعلميني القليل الذي أعرفه».

قال ديفيد: «ألا ينبغي أن نتناول الغداء؟ لقد كان يوماً حاراً، يا ديفيل، وأنت متعبة».

قالت كاترين: «أنا متعبة من كل الناس. أرجو أن تعذراني».

قالت الفتاة: «ليس هناك ما يستوجب الاعتذار. آسفة إذا كنت خشنة. أنا لم أحضر إلى هنا لكي أكون على هذا النحو». واتجهت ناحية كاترين وقبلتها برقة وحنان وهي تقول: «والآن أنت على ما يرام، ألا ينبغي أن نذهب إلى المائدة؟».

سألت كاترين: «ألم نتناول الغداء بعد؟».

قال ديفيد: «كلا، يا ديفيل، سنتناوله الآن».

عندما انتهى الغداء الذي حاولت كاترين خلاله أن تكون على قدر من اليقظة، فيما عدا بعض لحظات من الشرود، قالت «أرجو المعذرة إذ يتحتّم علي أن أنام».

قالت الفتاة: «دعيني أذهب معك وأبقى معك حتى تنامي».

قالت كاترين: «لقد شربت كثيراً جداً في الحقيقة».

قال ديفيد: «سأذهب أنا أيضاً وأنام قليلاً».

قالت كاترين: «كلا أرجوك يا ديفيد، تعال عندما أنام إذا كنت تريد».

بعد حوالي نصف ساعة عادت الفتاة من الحجرة وهي تقول: «إنها على ما يرام، لكن يجب أن تكون على حذر وتعاملها بلطف وتفكّر فيها».

---

(١) أغنية شعبية أمريكية.

Twitter: @ketab_n

في الحجرة كانت كاترين قد استيقظت عندما جاء ديفيد واتجه إليها وجلس على السرير.

قالت: «أنا لست مريضة على الإطلاق. كل ما في الأمر أنني شربت كثيراً. أعرف ذلك، أنا آسفة إذا كنت كذبت عليك بخصوص ذلك، كيف تسنّى لي أن أفعل ذلك. يا ديفيد؟».

- «أنت لا تذكرين».
- «كلا. لقد فعلت ذلك عن عمد. هل ستصفح عني ثانية؟ لقد شفيت من أعراض العاهرات».
- «لم تكوني على هذا النحو قط».
- «إن كل ما أرغبه أن تصفح عني ثانية. وسوف أكون فتاتك الحقيقية، فتاتك الحقيقية بصدق. أيعجبك ذلك؟».

قبّلها.

- «قبّلني بحنان».

وقالت: «أوه. أرجوك كن بطيئاً».

سبحوا في منطقة الخليج الصغير التي قصدوها أول يوم. وكان ديفيد قد خطّط أن يبعث بالفتاتين للسباحة، على أن يأخذ هو السيارة «الأزوتا» القديمة إلى «كان» لإصلاح الفرامل وضبط المحرّك. لكن كاترين طلبت منه أن يتكرم ويسبح معهما ويقوم بإصلاح السيارة في اليوم التالي، وبدت سعيدة للغاية ومبتهجة بعد أن نامت لفترة قليلة، أما ماريتا فقالت له بجدّية تامة: «هل تسمح وتأتي معنا؟» وهكذا قاد السيارة وأوصلهما إلى الشاطىء وأظهر لكلتيهما وهم على الطريق مدى خطورة استخدام الفرامل بهذا الشكل.

قال لماريتا: «ستقتلين نفسك بهذه السيارة. إنها جريمة أن تقوديها وهي على هذه الحال».

سألته: «أينبغي عليّ شراء سيارة جديدة؟».

- «كلا بحق المسيح. دعيني فقط أُصلح الفرامل حتى تستطيعي استعمالها».

قالت كاترين: «نحن بحاجة إلى سيارة كبيرة بها حجرة تسعنا جميعاً».

قال ديفيد: «هذه سيّارة جيدة، إنما تحتاج لكثير من الإصلاحات. لكنها سيّارة كبيرة جداً بالنسبة لك».

Twitter: @ketab_n

قالت الفتاة: «فلتر إذن إمكانية إصلاحها جيّداً، وإذا لم يكن في استطاعتهم فسوف نحصل على سيارة من الطراز الذي ترغبه».

بعد ذلك عرضوا أجسامهم للشمس على الشاطىء، وقال ديفيد بتكاسل: «هيّا ننزل إلى البحر».

قالت كاترين: «صُبَّ بعض الماء على رأسي. فقد أحضرت دلواً في الحقيبة القماش».

ثم قالت: «أوه، إن ذلك رائع. أيمكن أن أحصل على دلو آخر؟ صُبّه على وجهي».

تمدّدت على الشاطىء فوق ثوبها الأبيض في الشمس على حين سبح ديفيد والفتاة في عرض البحر وحول الصخور عند فتحة الخليج الصغير. كانت الفتاة تسبح أمامه وديفيد يلحق بها. أدركها وأمسك بقدمها ثم احتواها بين ذراعيه وقبّلها وهما يحركان أقدامهما في الماء. أحست بعدم ثبات وغربة وهي في الماء. وبدا كل منهما في طول الآخر بينما كانا يحركان أقدامهما ليقفا في الماء وجسماهما ملتصقان وهما يتبادلان القبل. ثم غطست برأسها أسفل الماء وتراجع هو للخلف ثم طفت على سطح الماء ضاحكة تهز رأسها الأملس مثل رأس عجل البحر، وقربت شفتيها من شفتيه ثانية وتبادلا القبلات حتى غطسا تحت الماء معاً. استلقيا جنباً إلى جنب وهما طافيان على الماء ثم تلامسا وقبّلا بعضهما بسعادة وضراوة ونزلا تحت الماء ثانية.

قالت عندما ظهر على سطح الماء ثانية: «أنا لا أبالي بأيّ شيء الآن، وينبغي أن تكون كذلك».

قال: «أنا لا أبالي» وسبحا إلى الشاطىء.

قال لكاترين: «من الأفضل أن تهبطي إلى البحر، يا ديفيل. فرأسك سيغدو ساخناً جداً».

قالت: «لا بأس. دعنا ننزل. ولندع هيرس تكتسب السمرة الآن. دعني فقط أدهنها ببعض الزيت».

قالت الفتاة: «ليس كثيراً جداً. أيمكنني أن أحصل على دلو من الماء على رأسي أيضاً؟».

قالت كاترين: «رأسك مبتلّ بما فيه الكفاية».

Twitter: @ketab_n

قالت الفتاة: «أُريد فقط أن أستشعر ذلك».

قالت كاترين: «اذهب يا ديفيد وأحضر لها دلواً بارداً من الماء».

بعد أن صبّ الماء الصافي البارد على رأس ماريتا تركاها مستلقية ووجهها على ذراعيها، وسبحا في عرض البحر. سبحا في سهولة مثل كائنات البحر، وقالت كاترين:

- «ألا يبدو الأمر رائعاً إذا لم أكن مجنونة؟».
- «أنت لست مجنونة».

قالت: «ليس هذا المساء. على أيّ حال لن يكون متأخراً جداً. أيمكننا أن نسبح أكثر؟».

- «نحن على أروع ما يكون يا ديفيل».
- «لا بأس. دعنا نعود، لكن المياه العميقة جميلة هنا».
- «أتريدين الغوص مرة قبل أن نخرج؟».

قالت: «مجرد مرة، في ذلك الجزء العميق جداً».

- «سوف نسبح تحت الماء إلى أقصى ما نستطيع أن نتحمّل».

Twitter: @ketab_n

الفصل السادس عشر

استيقظ والضوء يسمح فقط برؤية جذوع أشجار الصنوبر، وغادر الفراش، وهو حريص على ألا يوقظ كاترين، فارتدى بنطلونه القصير وخرج. وظهرت آثار أقدامه على بلاطات الممر بطول الفندق حتى حجرة عمله بسبب الندى. عندما فتح الباب أحس ثانية بلمسة الهواء القادم من البحر الذي بشّر بحالة جو اليوم.

لم تكن الشمس قد أشرقت عندما جلس وشعر بأنه قد أغفل جزءاً من الزمن في القصّة. لكن بينما كان يعاود قراءة ما خطّته يده بوضوح وعناية وأخذته الكلمات بعيداً إلى ذلك البلد الآخر، فقد تلك الميزة ووجد نفسه مواجهاً بالمشكلة نفسها. وعندما أشرقت الشمس من وراء البحر، كانت قد أشرقت بالنسبة له منذ فترة طويلة مضت، وهو يعبر البحيرات الرمادية المرّة الجافة، وحذاؤه الطويل ذو الرقبة قد ابيضّ من أثر الأملاح القلوية. أحس بحرارة الشمس على رأسه ورقبته وظهره، وكان قميصه مبلّلاً. وأحسّ بالعرق يجري على ظهره وبين فخذيه. عندما وقف ناهضاً واستراح، وهدأت أنفاسه، أحس بأن قميصه قد جفّ من العرق عندما وجده مشدوداً إلى الخلف من عند كتفيه ورأى البقع البيضاء الناتجة عن ملح عرقه عندما جفّ. استطاع أن يستشعر ويرى نفسه واقفاً هناك وتيقن أنه ليس ثمة ما يفعله سوى أن يستمرّ.

في العاشرة والنصف كان قد خلّف البحيرات وراءه. بعد ذلك وصل إلى النهر وإلى غيضة كبيرة من أشجار التين، حيث أقاموا معسكرهم. كان لحاء جذوع الشجر أخضر وأصفر. والفروع ثقيلة. وقرود البابون تأكل ثمار التين البرية، وتقذف بعضها بثمار التين وتكسرها على الأرض. كانت الرائحة كريهة.

Twitter: @ketab_n

لكن الساعة كانت العاشرة والنصف في ساعة يده هو. عندما تطلع إلى الحجرة حيث يجلس إلى منضدة يحسّ نسيم البحر في تلك اللحظة، والزمن الحقيقي كان وقت المساء حيث كان يجلس مستنداً إلى جذع شجرة لونه أصفر رمادي، وفي يده كأس من الويسكي الممزوج بالماء وثمرات التين تتدحرج بعيداً، ويراقب الحمّالين يسلخون حيوان كنغر كان قد اصطاده في أول دغل حشائش مرّوا به قبل أن يصلوا إلى النهر.

فكّر: سأتركهم مع اللحم، ولتكن ليلتهم سعيدة في هذا المعسكر ولا يهمّ ماذا يحدث بعد ذلك. وهكذا وضع أقلامه وكرّاسته في الحقيبة وأغلقها خارجاً من الباب وسار فوق بلاطات الممر، التي أصبحت الآن دافئة حتى بلغ مدخل الفندق.

كانت الفتاة جالسة إلى إحدى الموائد تقرأ كتاباً، وترتدي قميص صيادين مقلماً وتنّورة تنس، وخفّاً قماشياً، وعندما رأته تطلعت إليه فاعتقد ديفيد أنها ستحمرّ خجلاً، لكنه يبدو أنها تحكّمت في ذلك وقالت: «صباح الخير، يا ديفيد. هل عملت جيداً؟».

قال: «نعم، يا جميلتي».

عندئذ نهضت وقبّلته قبلة الصباح قائلة: «أنا سعيدة جداً إذن. ذهبت كاترين إلى كان، وقالت لي إنّ عليّ أن آخذك للسباحة».

ـ «ألم ترغب في أن تذهبي معها إلى المدينة؟».

ـ «لا. أرادتني أن أبقى. قالت إنك استيقظت مبكراً جداً لتعمل وستصبح وحيداً عندما تنتهي، أيمكنني أن أطلب شيئاً للإفطار؟ لا ينبغي عليك دوماً ألا تتناول الإفطار».

اتجهت الفتاة إلى المطبخ وعادت بصينية عليها بيض مخفوق بلحم الخنزير، وخردل إنجليزيّ وسوفورا.

سألته: «أكان العمل صعباً اليوم؟».

قال: «كلا. إنه صعب دائماً لكنه سهلٌ أيضاً. لقد عملت جيّداً جداً».

ـ «أتمنى لو أستطيع مساعدتك».

قال: «لا أحد يستطيع المساعدة».

ـ «لكنني أستطيع المساعدة في أمور أخرى، أليس كذلك؟».

كان على وشك أن يقول «ليس ثمة أمورٌ أخرى» لكنه لم يقلها، وبدلاً من ذلك قال: «لديك أمورك وأنت تفعلينها».

Twitter: @ketab_n

مسح آخر ما تبقّى من البيض والخردل في الصحن المسطح، بقطعة من الخبز ثم شرب بعض الشاي وسألها: «هل نمت؟».

قالت الفتاة: «جيّداً جداً. آمل ألاّ يكون ذلك عدم وفاء».

ـ «كلا. هذا ذكاء».

سألته الفتاة: «ألا يمكننا أن نكفّ عن التعامل بهذا الأسلوب المهذّب للغاية؟ إن كل شيء بيننا كان بسيطاً جداً ورائعاً حتى الآن».

قال: «نعم. دعينا نكفّ. دعينا نكفّ حتى عن...».

ـ «أنا لا أستطيع يا ديفيد، هراء».

قالت: «لا بأس». ونهضت.

واستطردت: «إذا كنت تريد الذهاب للسباحة فسأكون في حجرتي».

نهض وقال: «أرجوك، لا تذهبي، لقد كففت عن أكون مخادعاً».

قالت: «لا تكفّ من أجلي. أوه يا ديفيد، كيف يمكن أن تدخل في نطاق شيء مثل هذا؟ مسكين يا ديفيد. ماذا تعني النساء بالنسبة لك؟».

كانت تربت على رأسه وتبتسم له: «سأذهب لإحضار لوازم السباحة إذا أردت أن تسبح».

قال: «عظيم. وسأذهب لإحضار خفّي القماش».

استلقيا على الرمال حيث فرش ديفيد أثواب الشاطىء والمناشف في ظلّ صخرة حمراء. وقالت الفتاة: «اذهب أنت واسبح، سألحق بك بعد ذلك».

نهض ببطء شديد فابتعد عنها واختفى على الشاطىء، وغطس إلى أسفل حيث كان الماء بارداً، فسبح في العمق، وعندما ظهر على السطح أخذ يسبح ضد الأمواج القصيرة المتلاطمة من أثر الريح، ثم اتّجه إلى حيث كانت الفتاة في انتظاره واقفة في الماء حتى وسطها ورأسها الأسود الأملس الشعر مبتلٌّ وجسدها الأسمر الفاتح يتقطّر منه الماء. احتواها بشدّة، على حين كانت الأمواج تغطّيهما.

تبادلا القبلات وقالت: «كل آثامنا غُسلت في المحيط».

ـ «ينبغي أن نعود».

ـ «دعنا نغطس معاً مرة واحدة وكل منا يحتضن الآخر تماماً».

هناك في الفندق لم تكن كاترين قد عادت، وبعد أن أخذا حمّاماً وبدّلا ملابسهما،

Twitter: @ketab_n

جلس ديفيد وماريتا في البار وفي يد كل منهما كأس من المارتيني. تطلّع كلٌّ منهما للآخر في المرآة. وراقب كل منهما الآخر باهتمام شديد. ثم مرّر ديفيد إصبعه تحت أنفه بينما كان ينظر إليها فاحمرّت خجلاً.

قالت: «أُريد المزيد من مثل هذه الأشياء، أشياء خاصّة بنا فقط، وهكذا لن أكون غيوراً».

قال: «لن أبحر إلى مراسٍ كثيرة جداً. فمن المحتمل أن تقطعي الحبال».

- «كلا. سأجد ما يشغلني ويعينني».

قال: «ذلك عمليّ جداً يا هيرس».

- «أودّ لو أُغيّر هذا الاسم. ألا تريد؟».

قال: «الأسماء تسري حتى النخاع».

قالت: «إذن دعنا حقيقة نغيّر اسمي. هل يضايقك ذلك كثيراً؟».

- «كلا... يا هايا».

- «هايا».

- «أليس جيّداً؟».

- «جيد جداً. إنه اسم مختصر فيما بيننا. ولا يستعمله أحد آخر إطلاقاً».

- «ما معنى هايا؟».

- «الإنسانة التي تحمّر خجلاً، الإنسانة المتواضعة».

احتضنها بشدة واستندت عليه، ورأسها على كتفه.

قالت: «قبّلني قبلة واحدة».

دخلت كاترين إلى الحجرة الكبيرة وبدت مهتاجة، مليئة بالانتشاء والمرح.

قالت: هل اصطحبته للسباحة؟ أنتما الاثنين تبدوان في غاية الروعة، رغم أنكما ما زلتما مبتلّين من أثر الحمّام، دعاني أنظر إليكما».

قالت الفتاة: «بل دعيني أنظر إليك، ماذا فعلت بشعرك؟».

قالت كاترين: «لون فضّي. هل يعجبك؟ إنه اللون الذي يجرّبه جان معي».

قالت الفتاة: «لون جميل».

كان شعر كاترين غريباً ومتنافراً مع وجهها الأسمر. التقطت كأس ماريتا وبينما كانت

Twitter: @ketab_n

ترتشف منها، رأت نفسها في المرآة وقالت: «هل استمتعتما بسباحة لطيفة؟».

قالت الفتاة: «كلانا سبح جيداً، لكن ليس لوقت طويل مثل الأمس».

قالت كاترين: «هذا شراب ممتاز جدّاً، يا ديفيد. ما الذي يجعل شرابك أفضل من أيّ شراب يُعدّه أيّ إنسان آخر؟».

قال ديفيد: «لأنني أُضيف إليه شراب الجنّ».

- «أيمكنك أن تعدّ لي كأساً لو سمحت؟».

- «أنت لست بحاجة إلى كأس الآن. فستتناول الغداء».

قالت: «نعم أعرف. وسأنام بعد الغداء. ولا داعي للخوض في تفاصيل صبغ شعري، وإعادة صبغته وكلّ ما يختصّ بذلك، فهذا شيء مجهد».

سألها ديفيد: «ما اللون الذي عليه شعرك الآن حقيقة؟».

قالت: «أقرب إلى اللون الأبيض. يعجبك، لكنني أود الاحتفاظ بهذا اللون لنرى كم من الوقت سيبقى».

سألها ديفيد «أيّ درجة من اللون الأبيض؟».

قالت: «في لون رغوة الصابون تقريباً. هل تذكر؟».

في المساء بدت كاترين مختلفة الشكل تماماً عما كانت عليه في منتصف النهار، كانت تجلس على المشرب عندما عادا من السباحة. وتوقّفت الفتاة عند حجرتها على حين توجه ديفيد إلى الحجرة الكبيرة الرئيسية وقال:

- «ما الذي فعلته بنفسك الآن، يا ديفيل؟».

- «غسلت كلّ ذلك الهراء بالصابون السائل. فقد تركت الصبغة بقعاً رمادياً على الوسادة».

بدت أخّاذة جدّاً، بلون شعرها الفضّي الفاتح مما جعل وجهها يبدو أكثر سمرة مما بدت من قبل على الإطلاق.

قال: «أنت جميلة بدرجة مذهلة. لكنني أرغب في ألا يمسّوا شعرك أبداً».

- «فات الوقت لذلك. أأستطيع أن أخبرك بشيء آخر؟».

Twitter: @ketab_n

- «بالتأكيد».

- «ابتداءً من الغد لن أتناول أيّ مشروب، وسوف أدرس الإسبانية وأعاود القراءة وأكفّ عن التفكير في نفسي فقط».

قال ديفيد: «يا إلهي! كان يومك مشحوناً جدّاً. والآن، اسمحي أن اتناول شراباً وأذهب إلى حجرتي لأبدل ثيابي».

قالت كاترين: «سأكون هنا. ارتدِ قميصك الأزرق الغامق، لو سمحت؟ ذلك القميص الذي اشتريته لك شبيهاً بقميصي».

أخذ ديفيد راحته في الحمّام وفي تغيير ملابسه. وعندما عاد كانت الفتاتان تجلسان معاً على المشرب وودّ لو يستطيع تصويرهما معاً.

قالت كاترين: «أخبرت هيرس بكل شيء عن عزمي الجديد. عن الشخص الذي كنته واعرضت عنه تواً، وكيف أنني أريدك أن تحبّها أيضاً وباستطاعتك أن تتزوجها كذلك. لو أنها ستقبلك».

- «نستطيع أن نفعل ذلك في أفريقيا لو كنتُ ولدت مسلماً. إذ يُسمح للرجل بثلاث زوجات غير زوجته».

قالت كاترين: «أعتقد أنه يكون من الأفضل كثيراً لو أننا كنا متزوجين. وفي هذه الحالة لن يوجه إلينا أحد أيّ انتقاد. هل تقبلين الزواج منه حقاً، يا هيرس؟».

قالت الفتاة: «نعم».

قالت كاترين: «أنا سعيدة جداً. فكل ما كنت قلقة عليه، أصبح الآن سهلاً جداً».

سأل ديفيد الفتاة السمراء: «أتتزوجينني حقاً؟».

قالت الفتاة: «نعم. اطلبني».

نظر ديفيد إليها. كانت جادّة ومضطربة، وتذكّر وجهها وعينيها المغلقتين في الشمس ورأسها الداكن فوق الثوب الأبيض المفروش على الرمال الصفراء، عندما كانت مستلقية هناك ومارسا الحب آخر مرة. قال «سأطلبك. لكن ليس في هذا البار اللعين».

قالت كاترين: «هذا ليس أي نوع من البارات. إنه بارنا الخاص. ونحن اشترينا المرآة، كما أتمنى أن نزوّجك الليلة».

قال ديفيد: «لا تقولي أيّ كلام».

Twitter: @ketab_n

قالت كاترين: «أنا لا أقول هراء. حقيقة أنا أعني ذلك بصدق».

سألها ديفيد: «أتريدين شراباً؟».

قالت كاترين: «كلا، أودّ أن أُحقق ما قلته أولاً. أنظر إليّ وافهم. كانت الفتاة مطرقة إلى أسفل. قالت: «فكرت في الأمر برّمته بعد ظهر اليوم. فكرت فيه فعلاً. ألم أقل لك، يا ماريتا؟».

قالت الفتاة: «أخبرتني بالفعل».

أحس ديفيد أنها جادّة في هذا الشأن، وأنهم قد وصلوا إلى مرحلة من سوء الفهم لم يعرف لها سبباً.

قالت كاترين: «أنا ما زلت زوجتك، ولنبدأ بذلك. أُريد ماريتا أن تكون زوجتك أيضاً، لتساعدني ثم ترثني».

- «وما الداعي لأن تَرِثَ؟».

قالت: «الناس يكتبون وصاياهم، وهذا أكثر أهميّة من الوصية».

سأل ديفيد الفتاة: «ما رأيك؟».

- «أنا أودّ ذلك لو أنك ترغب».

قال: «عظيم. أيضيرك لو تناولت شراباً؟».

قالت كاترين: «بكل سرور، تناول كأساً. أنت ترى أنني لا أعمل على تدميرك لو أنني مجنونة، أو لست بقادرة على اتخاذ قرار، كما أنني لن أكف عن الكلام أيضاً، لقد قرّرت ذلك أيضاً، إنها تحبّك وأنت تحبّها قليلاً، أستطيع أن أُقرّ ذلك، لن تجد شخصاً آخر مثلها، وأنا لا أُريدك أن ترتمي في أحضان أية عاهرة، أو تكون وحيداً».

قال ديفيد: «هيّا في صحّتك. فأنت في صحة موفورة».

قالت كاترين: «حسناً، سنفعل ذلك. سنحقّق كل شيء».

Twitter: @ketab_n

الفصل السابع عشر

كانت الشمس ساطعة في الحجرة حينذاك، وكان يوماً جديداً. قال لنفسه: من الأفضل لك أن تعمل. لا يمكنك أن تعيد الأمر إلى ما كان عليه. شخص واحد فقط يستطيع أن يفعل ذلك، هي لا تستطيع أن تعرف كيف ستستيقظ، ولا إذا كانت ستكون موجودة عندما تستيقظ. دعك من مشاعرك الآن. من الأفضل لك أن تعمل، يجب أن تضفي على عملك معنى. لن تحقّق شيئاً من هذه الأمور الأخرى. لن يفيدك شيء. وأنت لم تستفد شيئاً منذ أن بدأت تلك الحالة.

أخيراً عندما عاود الكتابة في القصّة كانت الشمس ساطعة تماماً، وكان قد نسي الفتاتين. كان من الضروريّ أن يفكر فيما فكّر فيه والده وهو جالس في ذلك المساء وظهره مستند إلى جذع أخضر مصفر لشجرة تين وبيده كوب معدنيّ مطليّ بالميناء، به ويسكي ممزوج بالماء. لقد تعامل والده ببساطة تامّة مع الشرّ، ولم يعطه أيّة فرصة على الإطلاق، منكراً أهميّته، حتى أصبح بلا كيان أو شكل أو حتى شخصيّة. فكر ديفيد: لقد تعامل هو مع الشرّ كصديق عزيز يوثق به، والشرّ، الذي وجّهته إليه عَبْرَ هجومها عليه، لم يتيقّن أبداً أنها قد تُحقّقه. كان يعلم أن والده رجل صنديد، وعلى يقين أنه على خلاف معظم الناس، ولا يقهره سوى الموت. لقد عرف أخيراً ما كان والده يفكّر فيه. وإذ عرفه، لم يضعه في القصّة. بل كتب ما فعله والده وما أحسّ به، ومن خلال كل ذلك، تجسّدت شخصية والده، وما كان يقوله لـ «مولو» كان هو ما قاله. نام بعمق على الأرض تحت الشجرة واستيقظ وسمع سعال نمر. بعد ذلك لم يسمع سعال النمر في المعسكر، لكنه علم أنه كان موجوداً وعاود النوم. النمر يأتي دائماً وراء رائحة اللحم، وثمة لحم كثير، وهكذا فلم تكن هناك مشكلة. في الصباح وقبل بزوغ الشمس كان جالساً بجوار رماد النار وبيده كوب شلي

Twitter: @ketab_n

معدنيّ مطليّ بالميناء، وسأل «مولو» عما إذا كان النمر قد أخذ اللحم، فقال «مولو»: «كلا» ثم قال هو: «هناك الكثير في المنطقة التي سنذهب إليها، قل لهم أن يتحركوا حتى يمكننا البدء في الصعود».

كانوا يسيرون لليوم الثاني خلال الأشجار العالية ومنطقة شبه ريفية فوق جرف، عندما توقّف عن الكتابة أخيراً، وكله سعادة بالمنطقة وباليوم وبالمسافة التي قطعوها. لقد أصبحت لديه الآن مقدرة والده على النسيان وعدم الخشية من أي شيء قادم. كان لا يزال أمامه يوم وليلة في تلك المنطقة الريفية المرتفعة عندما توقّف عن الكتابة وقد عايش الأحداث هناك يومين وليلة.

وحتى بعد أن ترك تلك المنطقة كانت شخصية والده ما تزال تتقمّصه، بينما كان يغلق باب الحجرة ويمشي عائداً إلى الحجرة الكبيرة والبار.

أخبر الصبيّ أنه لا يريد إفطاراً، وطلب منه أن يحضر له ويسكي وصودا وصحيفة الصباح. كان الوقت بعد الظهر وكان في نيته أن يأخذ السيارة الأزوتا القديمة لإصلاحها في «كان»، لكنه أدرك أن محلات إصلاح السيارات مغلقة حينذاك والوقت متأخر جداً. بدلاً من ذلك وقف عند البار لأنه المكان الذي ربما يجد فيه والده في تلك الساعة، وقد وصل لتوّه من المنطقة المرتفعة، ولكم افتقده. كانت السماء بالخارج تشبه تماماً تلك السماء التي تركها هناك، بزرقتها العالية وبعض السحب البيضاء الملفوفة، ورحّب بوجود والده في البار إلى أن حملق في المرآة واكتشف أنه وحده. كان في نيّته أن يسأل والده عن أمرين. وأعطته حياة والده، التي عاشها بشكل مأساوي أكثر من أيّ إنسان آخر عرفه على الإطلاق، نصيحة رائعة. استخلصها من التجارب المرّة لكل أخطائه السابقة، بالإضافة إلى أخطائه الجديدة التي كان على وشك اقترافها، والتي عرضها بدقّة وإحكام تام وأظهرت سطوة الرجل الذي كان يسمع أوامره المقتضبة الحاسمة ولم يكن يعيرها اهتماماً يزيد عن اهتمامه بالكتابة الدقيقة على تذكرة سفينة عابرة للقارات.

كان آسفاً لأن والده غاب، لكن كان باستطاعته سماع النصيحة بوضوح كافٍ، وابتسم. كان من الممكن أن يقدّم له والده هذه النصيحة بدقّة أكثر، لكنه، أي ديفيد، كان قد توّقف عن الكتابة لأنه شعر بالتعب، شعر بالتعب، إلى الحدّ الذي لم يستطع أن يكتب عنه بطريقة توفيه حقّه. والحق أنه لم يكن في مقدور أحد أن يوفيه حقّه، ولا حتى والده أحياناً. ولقد عرف الآن، أكثر من أيّ وقت مضى، لماذا كان دائماً يتوقّف عن كتابة هذه القصة، وعرف كذلك أنه لا ينبغي عليه أن يفكر فيها الآن طالما أنه قد تركها وإلا فإنه سيخرب قدرته على كتابتها.

Twitter: @ketab_n

قال لنفسه: لا داعي لأن تقلق على القصّة، لا قبل أن تبدأ ولا عندما تتوقّف. أنت محظوظ لأنك بدأت كتابتها، ولا داعي للارتباك بشأنها الآن. إذا لم تكن قادراً على احترام الطريقة التي تتناول بها حياتك فاحترم مهنتك. أنت على الأقل تعرف مهنتك. لكنها قصّة مرعبة جداً في الحقيقة. هي كذلك وحقّ الله.

ارتشف الويسكي بالصودا وتطلّع إلى الخارج في يوم من أيام أواخر الصيف. كان يهدىء نفسه كما كان يفعل دائماً، بذلك المارد القاتل (أي الشراب) الذي جعل كل شيء على نحو أفضل. وتساءل أين ذهبت الفتاتان. لقد تأخرتا ثانية وتمنى ألا يكون قد حدث لهما شيء سيّىء هذه المرة، لم تكن له شخصية والده المأساوية، ساعده على ذلك كونه أصبح كاتباً، وعندما انتهى من شرب الويسكي شعر بأنه أقلّ من أن يكون واحدة من هاتين الشخصيتين. لم يعرف صباح يوم من الأيام استيقظ فيه بسعادة، إلا عندما مسّته أحداث اليوم، وقد تقبّل هذا اليوم مثلما تقبل كل الأيام الأخرى بالنسبة له. لقد فقد قدرته الشخصية على المعاناة، أو ظنّ أنه كذلك، وكان يتأثّر بصدق فقط بما يحدث للآخرين، اعتقد ذلك، مخطئاً بالطبع لأنه لم يكن يعرف حينئذ كيف أن قدرات الفرد من الممكن أن تتغيّر ولا كيف يمكن أن يتغيّر الآخرون، وكان ذلك إحساساً مريحاً. فكّر في الفتاتين وتمنّى أن تعودا. لقد أصبح الوقت متأخّراً جداً لممارسة السباحة قبل الغداء، لكنه كان يرغب في رؤيتهما. فكر في الاثنتين معاً. بعد ذلك ذهب إلى حجرته الخاصّة به وبكاترين فأخذ حمّاماً وحلق ذقنه. وبينما كان يحلق سمع صوت وصول السيارة فأحسّ فجأة بخواء في أمعائه. ثم سمع صوتيهما تضحكان فأخرج بنطلوناً قصيراً نظيفاً وقميصاً فارتداهما وخرج ليرى ما آلت إليه الأمور.

تناول ثلاثتهم مشروبات خفيفة ثم غداء خفيفاً لذيذاً، وشربوا نبيذ الثافل. وإذ كانوا يتناولون الفاكهة والجبن قالت كاترين:

- «هل أحكي له؟».

قالت الفتاة: «إذا كنت ترغبين» والتقطت كأس نبيذها وشربت شيئاً منها.

قالت كاترين: «نسيت كيف أخبره الأمر. لقد انتظرنا كثيراً جداً».

قالت الفتاة: «ألا تستطيعين تذكّره؟».

- «كلا، لقد نسيته، لكنه كان رائعاً. لقد أنجزناه تماماً وكان رائعاً في الحقيقة».

صبّ ديفيد لنفسه كأساً أخرى من الثافل.

سأل: «هل تسعين إلى تحقيق شيء ملموس؟».

Twitter: @ketab_n

قالت كاترين: «أنا أعرف الحقيقة الملموسة. فبالأمس قضيت فترة القيلولة معي ثم ذهبت إلى حجرة ماريتا، أما اليوم فبإمكانك أن تذهب إلى هناك فقط. لكنني أفسدت المسألة الآن، وما أرغبه هو أنه يمكننا جميعاً أن نقضي فترة القيلولة معاً».

- «ليست القيلولة» سمع ديفيد نفسه يقول ذلك.

قالت كاترين: «لا أظن ذلك، حسناً، أنا آسفة لأنني عبرت خطأ عن الموضوع، ولم أستطع مقاومة قول ما رغبت فيه».

قال لكاترين في الحجرة: «فلتذهب إلى الجحيم».

- «كلا، يا ديفيد. لقد أرادت أن تفعل ما طلبته منها. ربما تستطيع هي أن تقول لك».

وأضافت: «لك ذلك، ليست تلك هي النقطة المهمّة. اذهب وتحدّث معها يا ديفيد. وإذا كنت تريد ممارسة الحبّ معها فافعل ذلك جيّداً من أجلي».

- «لا تتكلمي ببذاءة».
- «أنت الذي استعملتها، أنا أردّها لك فقط. مثل كرة التنس».

قال ديفيد: «لا بأس. ما المفروض أن تقوله لي؟».

قالت كاترين: «كلماتي. كلماتي التي نسيتها. لا تبدو جاداً هكذا، وإلا فلن أدعك تذهب. فمنظرك يبدو كئيباً عندما تكون جاداً. من الأفضل أن تذهب قبل أن تنسى كلماتي».

- «فلتذهبي إلى الجحيم أنت أيضاً».
- «هذا عظيم. أنت الآن تستجيب بشكل أفضل. تعجبني عندما تكون أكثر لا مبالاة. أعطني قبلة. أعني قبلة تحيّة ما بعد الظهر. من الأفضل حقيقة أن تذهب، وإلا فإنها ستنسى كلامي حقّاً. ألا ترى كم أنا عاقلة وطيبة؟

- «أنت لست عاقلة ولا طيّبة».
- «لكنك معجب بي رغم ذلك».
- «بالتأكيد».
- «أتريد أن أخبرك بسر؟».
- «سرّ جديد؟».
- «بل سرّ قديم».

Twitter: @ketab_n

- «لا بأس».
- «ليس من الصعب إفسادك، ومن المُمتع جداً إفسادك».

- «كان ينبغي أن تعرفي ذلك».
- «هذا سرٌ مضحك. ليس هناك أي إفساد، نحن نمزح فقط، هيا اذهب ودعها تقول لك كلامي قبل أن تنساه أيضاً. هيا وكن ولد لطيفاً، يا ديفيد».

في الحجرة الموجودة في آخر الفندق استلقى ديفيد على السرير وقال: «ما حقيقة الموضوع كله؟».

قالت الفتاة: «هو ما قالته بالضبط الليلة الماضية. إنها تعني ذلك حقاً. وأنت لا تعلم إلى أي مدى تقصد هي ذلك».

- «هل قلت لها إننا مارسنا الحب؟».
- «كلا».
- «لقد عرفت ذلك».
- «هل هذا يهمّ؟»
- «لا يبدو كذلك».

قالت الفتاة: «تناول كأساً من النبيذ، يا ديفيد، واسترح. أنا لا أبالي. آمل أن تعرف ذلك».

- «وأنا كذلك».

ثم التقت شفاهما معاً وأحس بجسدها يلامس جسده ونهديها يلامسان صدره، وبشفتيها تطبقان على شفتيه ثم تنفرجان، ورأسها يتحرك من جنب إلى جنب، وبالجزء المعدني لحزامه على بطنه ثم في يده.

استلقوا على الشاطىء وأخذ ديفيد يراقب السماء وحركة السحب ولا يفكر على الإطلاق. فالتفكير لن يؤدّي إلى نتيجة، وعندما استلقى على الأرض كان قد فكر بأنه إذا لم يفكّر فإن كل شيء خاطىء ربما ينزاح بعيداً. كانت الفتاتان تتحدثان، لكنه لم يكن يصغي إليهما، رَقَد وأخذ يراقب سماء سبتمبر، وعندما توقّفت الفتاتان عن الكلام فجأة، بدأ يفكّر دون أن ينظر إلى الفتاة. وسألها: «فيم تفكرين؟».

قالت: «لا شيء».
قالت كاترين: «أسألني أنا».

Twitter: @ketab_n

ـ «أستطيع أن أخمن ما كنت تفكرين فيه».
ـ «كلا، لا تستطيع. كنت أفكر في البرادو».
سأل ديفيد الفتاة: «هل ذهبت إلى هناك؟»
قالت: «ليس بعد».

قالت كاترين: «سنذهب، متى يمكننا الذهاب، يا ديفيد؟».

قال ديفيد: «في أيّ وقت، أودّ الانتهاء من هذه القصّة أولاً».
ـ «هل تعمل بجدّية في القصّة؟».
ـ «ذلك ما أقوم به. لا أستطيع أن أعمل بجديّة أكبر من تلك».
ـ «لم أقصد أن تتعجّل في كتابتها».

قال «لن أفعل ذلك. إذا كنتما تحسّان بالضجر هنا، فبإمكانكما أن تذهبا الآن، وسألحق بكما هناك».

قالت ماريتا: «لا أريد أن أفعل ذلك».

قالت كاترين: «لا تكوني حمقاء، هذا مجرّد نبل منه».
ـ «كلا. يمكنكما الذهاب».

قالت كاترين: «ألن يكون من المضحك أن نذهب بدونك؟ أنت تعرف ذلك. نحن الاثنتين في اسبانيا، سيكون ذلك مضحكاً».

قالت ماريتا: «إنه يعمل، يا كاترين».

قالت كاترين: «يستطيع أن يعمل في إسبانيا. ولا بد أن الكثير من الكتّاب الإسبانيين قد عملوا في إسبانيا. وسأراهن على أنني أستطيع الكتابة بشكل جيد لو أنني كنت كاتبة».

قال ديفيد: «أستطيع الكتابة في اسبانيا، متى تريدان الذهاب؟».

قالت ماريتا: «غير معقول، يا كاترين، فهو في منتصف القصّة».

قالت كاترين: «إنه يكتب منذ أكثر من ستة أسابيع، لماذا لا نستطيع الذهاب إلى مدريد؟».

قال ديفيد: «قلت نستطيع الذهاب».

قالت الفتاة لكاترين: «كيف تجرؤين على فعل ذلك، كيف تجرؤين حتى لمحاولة فعل ذلك. أليس لك ضمير على الإطلاق؟».

Twitter: @ketab_n

قالت كاترين : «ومن أنت حتى تتحدّثي عن الضمير؟» .

- «لديّ ضمير تجاه بعض الأمور» .

- «هذا رائع . أنا سعيدة لمعرفة ذلك، والآن هل تسمحين وتكونين مهذّبة ولا تتدخّلي عندما يحاول إنسان ما أن يحقق الأفضل بالنسبة لكل شخص» .

قال ديفيد : «أنا ذاهب للسباحة» .

نهضت الفتاة وتبعته . وهناك، خارج الخليج عندما كانا يحركان أرجلهما إلى أعلى وإلى أسفل في الماء قالت : «إنها مجنونة» .

- «لا داعي لأن تلوميها» .

- «لكن ما الذي تنوي أن تفعله؟» .

- «أنهي القصة وأبدأ في أخرى» .

- «وما الذي ستفعله أنت وأنا!» .

- «ما في وسعنا» .

Twitter: @ketab_n

الفصل الثامن عشر

انتهى من القصة خلال أربعة أيام، وحمّلها كلّ الضغوط التي نشأت أثناء الكتابة، وكان الجانب المتواضع فيه يخشى عدم إمكانية تحقيق كتابتها كما ينبغي، وكما تصوّر أن تكون عليه.

سألته الفتاة: «كيف الحال اليوم؟».

- «أنهيت القصة».

- «أأستطيع قراءتها؟».

- «إذا كنت ترغبين في ذلك».

- «ألا يضيرك حقيقة؟».

- «إنها في الكراستين بأعلى الحقيبة».

ناولها مفتاح الحقيبة ثم جلس على البار وشرب ويسكي بالصودا وقرأ صحيفة الصباح. عادت هي وجلست على مقعد من مقاعد البار الطويلة على مبعدة قليلة منه وشرعت تقرأ القصة.

عندما انتهت منها بدأت تقرأها ثانية، على حين أعدّ لنفسه كأساً ثانية من الويسكي بالصودا وأخذ يراقبها وهي تقرأ. عندما انتهت من قراءتها للمرة الثانية قال: «هل أعجبتك؟».

قالت: «إنها ليست بالشيء الذي يعجبك أو لا يعجبك، إنه والدك، أليس كذلك؟».

- «بالتأكيد».

Twitter: @ketab_n

- «أكان على هذا النحو، عندما كففت عن حبّه؟».
- «كلا. دائماً ما أحببته. كان كذلك عندما تمنّى لي أن أعرفه».
- «إنها قصّة فظيعة لكنها رائعة».
قال: «أنا سعيد لأنها أعجبتك».

قالت: «سأعيدها الآن. أُحب الذهاب إلى الحجرة عندما يكون الباب موصداً».

قال ديفيد: «لنا أن نفعل ذلك».

عندما عادا من الشاطىء وجدا كاترين في الحديقة.
قالت: «أخيراً عدتما».

قال ديفيد: «أجل، لقد استمتعنا بالسباحة، تمنّيت أن تكوني معنا هنا».

قالت: «حسناً، إنني لم أكن هناك، إن كان ذلك يهمّك».

سألها ديفيد: «أين ذهبت؟».

قالت: «كنت في «كان» لبعض شؤوني الخاصة. تأخرتما على موعد الغداء».

قال ديفيد: «أنا آسف. أتريدين تناول شيء قبل الغداء؟».
قالت ماريتا: «بعد إذنك، لو سمحت يا كاترين سأعود خلال دقيقة».
سألت كاترين ديفيد: «أما زلت تشرب قبل الغداء؟».

قال: «نعم، لا أعتقد أن ذلك يهم، طالما أن الإنسان يقوم بتدريبات بما فيه الكفاية».

- «كان هناك كأس فارغة على البار عندما جئت إلى هنا».

قال ديفيد: «أجل، فلقد شربت كأسين من الويسكي في الواقع».

قلّدته وقالت: «في الواقع، أنت اليوم بريطاني جداً».

قال: «صحيح؟ أنا لا أحس بذلك على الإطلاق، أحس بأنني تاهيتّي نصف أبله».

قالت «إن ما يثير غضبي هو طريقة كلامك. اختيارك للألفاظ».

قال: «فهمت. ألا تريدين جرعة قبل أن يُجّهزوا الطعام؟».
- «لا داعي لأن تكون مهرّجاً».

قال: «إن أحسن المهرّجين من لا يتكلمون».

Twitter: @ketab_n

قالت: «لم يتهمك أحد بأنك أحسن المهرِّجين. لا مانع بأن أتناول كأساً إذا لم يكن يجهدك كثيراً أن تُعدَّه لي».

أعد ثلاث كؤوس من المارتيني، وكانت كلّ كأس على حدة، ثم صبّها داخل إبريق كانت توجد به قطعة كبيرة من الثلج وأخذ يقلبه.

- «لمن ذلك الشراب الثالث؟».
- «لماريتا».
- «لعشيقتك؟».
- «لمن؟».
- «لعشيقتك».

قال لها ديفيد: «لقد قلتها حقيقة، لم أكن أودّ على الإطلاق سماع تلك الكلمة تنطق، ولم آمل أبداً في سماعها مدى حياتي. أنت في الحقيقة رائعة».

- «إنها كلمة عادية جداً».

قال ديفيد: «إنها كذلك في حدّ ذاتها. لكنها تحتاج إلى الشجاعة التامّة المطلقة لاستعمالها في الحوار العادي. ديفيل، فلتكوني طيّبة الآن. ألم تستطيعي أن تقولي عشيقتك السمراء؟».

أشاحت كاترين ببصرها بعيداً بينما كانت ترفع كأسها.
قالت: «لقد تعودت على استخدام هذا النوع من المزاح».
سألها ديفيد: «ألا تحاولين أن تكوني رقيقة؟ فكلانا رقيق».

قالت: «ها هي تأتي من يحلو لك أن تسمّيها، تبدو حلوة وبريئة كالعادة دائماً. يجب أن أقول إنني سعيدة لأنني نلتها قبل أن تفعل أنت. قولي لي يا عزيزتي ماريتا، هل قام ديفيد بالعمل قبل أن يبدأ الشراب اليوم؟».

سألته ماريتا: «هل شربت يا ديفيد؟».

قال ديفيد: «لقد أنهيت القصة».
- «وأعتقد أن ماريتا قرأتها بالفعل؟».
- «أجل، قرأتُها».

- «أتعرفين، أنا لم أقرأ أبداً قصة لديفيد. أنا لا أتدخل أبداً في شؤون الآخرين. وكل ما حاولته فقط أن أُهيّء له ظروفاً ماديّة مريحة حتى يتسنى له القيام بالعمل على

Twitter: @ketab_n

أحسن وجه بقدر الإمكان».

احتسى ديفيد رشفة من شرابه ونظر إليها. كانت لا تزال الجميلة السمراء الرائعة نفسها كالعادة، خاصّة وأن شعرها الأصفر الأبيض الشاحب كان بمثابة الندبة فوق جبينها. عيناها فقط هما اللتان تغيّرتا، وشفتاها كانتا تنطقان بكلام لم يسبق لهما التفوّه بمثله.

قالت ماريتا: «أعتقد أنها قصّة جيّدة جداً. قصة غريبة أو كما يمكننا أن نقول رعوية (قالت رعوية بالفرنسية). إلا أنّها تحوّلت إلى شيء فظيع بطريقة لا أستطيع شرحها. أعتقد أنها قصّة رائعة. (قالت رائعة بالفرنسية).

قالت كاترين: «حسناً. كلنا نتكلم الفرنسية كما تعرفين. كان ينبغي أن تعبّري عن انطباعك الجيّاش هذا بالفرنسية».

قالت ماريتا: «لقد أثّرت فيّ القصة تأثيراً عميقاً».

- «الآن ديفيد هو الذي كتبها، أم لأنها من الدرجة الأولى حقاً؟».

قالت الفتاة: «لكلا السببين».

قالت كاترين: «حسناً، أهناك ما يمنعني إذن من قراءة هذه القصة غير العادية؟ فقد رصدت النقود من أجلها».

سألها ديفيد: «رصدت ماذا؟».

- «ربما ليس كذلك بالضبط. كان لديك بالفعل ألفٌ وخمسمائة دولار عندما تزوجتني، وقد حقّق ذلك الكتاب مبيعات نتيجة للحملات الإعلانية المحمومة، أليس كذلك؟. وأنت لم تقل لي قط كم حقّق من إيرادات. لكنني رصدت مبلغاً احتياطياً، ولا بدّ أن تعترف بأنك قد عشت في ظروف أكثر راحة عما كنت عليه قبل أن تتزوّجني».

لم تقل الفتاة أي شيء وراقب ديفيد الخادم وهو يعدّ المائدة في الشرفة. تطلّع في ساعته. كان الوقت متقدماً عشرين دقيقة عن الميعاد المعتاد لتناولهم الغداء.

قال: «لو سمحتما لي، أودّ أن أذهب إلى الداخل وأغتسل».

قالت كاترين: «لا داعي للتظاهر بهذا الأدب الجمّ الزائف. ماذا يمنعني من قراءة القصة؟».

- «لأنها مكتوبة بالقلم الرصاص. لم تنسخ بعد. وأنت لا ترغبين في قراءتها بهذا الشكل».

Twitter: @ketab_n

- «ماريتا قرأتها بهذا الشكل».
- «إذن اقرأيها بعد الغداء».
- «أريد أن أقرأها الآن، يا ديفيد».
- «في الحقيقة أنا لا أريدك أن تقرأيها قبل الغداء».
- «هل هي مقزّزة؟».
- «القصّة عن أفريقيا قبل الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤. إبان حرب الماجي - ماجي. عن الثورة الشعبية في تانجانيقا عام ١٩٠٥».
- «لم أكن أعلم أنك تكتب روايات تاريخية».

قال ديفيد: «لا شأن لك بذلك. إنها قصة حدثت في أفريقيا عندما كان عمري ثمانية أعوام تقريباً».

- «أريد أن أقرأها».

انتحى ديفيد ركناً قصيّاً في البار وهو يهز نرداً في فنجان من الجلد. على حين جلست الفتاة على مقعد طويل من مقاعد البار مجاور لكاترين. كان يراقبها وهي تراقب كاترين وهي تقرأ.

قالت: «البداية جيّدة جداً. رغم أن خطك شنيع. المنطقة رائعة المكان. والذي أسمته ماريتا خطأ «رعوياً»».

وضعت الكراسة الأولى فالتقطتها الفتاة ووضعتها في حجرها، وعيناها ما تزالان تراقبان كاترين.

واصلت كاترين قراءتها ولم تقل شيئاً حتى تلك اللحظة. وما أن بلغت منتصف الجزء الثاني، حتى مزّقت الكرّاسة نصفين ورمتها على الأرض.

قالت: «إنها شيء فظيع. شيء وحشيّ. أكان والدك على هذا النحو؟».

قال ديفيد: «كلا. بل كان ذلك أحد جوانبه. أنت لم تنتهي من قراءة القصة».

- «لا شيء يجبرني على إنهائها».
- «لم أكن أرغب منك أن تقرأيها على الإطلاق».

سألته الفتاة: «أيمكنني أن آخذ المفتاح، يا ديفيد، لأضعها في الحقيبة؟» ثم قامت بجمع نصفي الكراسة من على الأرض. وكانت قد مُزّقت بالطول فقط وليس بالعرض. ناولها ديفيد المفتاح.

Twitter: @ketab_n

قالت كاترين: «إنه أفظع شيء على الإطلاق كتب في كراسة طفل. أنت وحش».

قال ديفيد: «لقد كانت ثورة غريبة جداً».

قالت: «وأنت شخص غريب جداً لتكتب عن ذلك».

- «لقد طلبت منك ألا تقرأي القصّة».

أخذت تبكي حينذاك. وقالت: «أنا أكرهك».

كانا في حجرتهما على السرير والوقت متأخر.

قالت كاترين: «سوف ترحل هي. ولك أن تحتجزني أو تطلّقني».

- «كلا، هذا ليس صحيحاً».

- «لكنك اقترحت أن نذهب إلى سويسرا».

- «إذا كنت مجهدة يمكننا زيارة طبيب ممتاز. وفي الوقت نفسه نذهب إلى طبيب الأسنان».

- «كلا. إنهم يودّون احتجازي. أنا أعرف. فكل ما هو بريء بالنسبة لنا جنون بالنسبة لهم. أنا أعرف الكثير عن تلك الأماكن».

- «ستكون رحلة جميلة وسهلة بالسيارة. ويمكننا المرور على «إيكس» و «سان ريميه» ثم نعبر نهر الرون من «ليون» إلى «جنيف». يمكننا أن نزور الطبيب ونأخذ بنصيحته ونجعل من ذلك رحلة طريفة».

- «لن أذهب».

- «ولا حتى إلى طبيب ممتاز ذكيّ، يمكنه أن...».

- «لن أذهب. ألم تسمعني؟ لن أذهب. لن أذهب. أم تريدني أن أصرخ؟».

- «لا بأس، لا تفكّري في ذلك الآن. حاولي فقط أن تنامي».

- «سأنام، إذا لم يكن ينبغي عليّ الذهاب».

- «ليس هناك ما يجبرنا».

- «إذن سأنام، هل ستعمل في الصباح؟».

- «نعم. ربما كالعادة».

قالت: «ستعمل جيّداً. أعرف أنك قادر على ذلك. عمت مساء، يا ديفيد، نم جيداً أيضاً».

لم ينم إلا بعد فترة طويلة. عندما نام حلم بأفريقيا. كانت أحلاماً جميلة، حتى أيقظه

Twitter: @ketab_n

ذلك الحلم . عندئذٍ نهض وتوجّه من ذلك الحلم مباشرة ليكتب . وفّق تماماً في كتابة القصة الجديدة قبل أن تسطع الشمس فوق البحر ولم يرفع بصره مما هو منهمك فيه ليرى إلى أيّ مدى احمرَّ قرصُ الشمس . في القصة كان ينتظر بزوغ القمر، وأحس بشعر كلبه تحت يده بينما كان يربت عليه ليهدأ، وراقب الاثنان بزوغ القمر حتى ظهر ظلاّهما، كانت ذراعه حول رقبة الكلب آنذاك وأحس به يرتجف . وسكنت كل أصوات الليل . لم يسمعا صوت الفيل ولم يره ديفيد، إلى أن التفت الكلب برأسه وبدا مستكيناً لديفيد . عندئذٍ غطّاهما ظلّ الفيل ومرّ بهما دون أيّة جلبة على الإطلاق، وشما رائحته خلال النسمة الخفيفة التي هبّت من الجبل . كانت رائحته نفّاذة ونتنة جداً . وعندما مرّ أمام ديفيد، اكتشف أن الناب الأيسر طويل جدّاً يكاد يلمس الأرض . انتظرا مرور أفيال أخرى بعده، لكن لم يحدث، وانطلقا يجريان في ضوء القمر . داوم الكلب على أن يكون خلفه، وعندما توقّف ديفيد كان أنف الكلب عند باطن ركبته . كان ديفيد يرغب في رؤية الفيل الذكر ثانية، فلحقا به عند حافة الغابة . كان ميمّماً شطر الجبل، وكان يمشي ببطء حينذاك خلال نسمات الليل المعتدلة . اقترب ديفيد أكثر ليراه ويشمّ رائحته النتنة، لكنه لم يستطع أن يرى الناب الأيمن . كان خائفاً من الاقتراب أكثر من ذلك ومعه الكلب، فأخذه بعيداً من اتّجاه الريح نحو جذع شجرة، وحاول أن يجعله يفهم . اعتقد أن الكلب سيبقى عند الشجرة، وبالفعل بقي، لكن عندما اتّجه ديفيد ناحية جسد الفيل شعر بأنف الكلب الرطب في باطن ركبته .

تبع الاثنان الفيل حتى وصل إلى منطقة مفتوحة تحوطها أشجار . وقف الفيل هناك يحرك أذنيه الضخمتين . كان جسده في الظل، أما رأسه فلا بد أنه كان في ضوء القمر . وصل ديفيد خلفه وأطبق على فكّيّ الكلب برقّة ثم تحرك بخفّة دون تنفّس إلى يمينه عبر نسيم الليل الذي أحسّه على خديه، متماشياً معه، ولا يسمح له على الإطلاق أن يمر بينه وبين جسد الفيل، حتى استطاع أن يرى رأس الفيل وأذنيه الكبيرتين تتحرّكان ببطء . كان الناب الأيمن في سمك ساقه، وكان مقوّساً إلى أسفل ويكاد يلمس الأرض .

عاد هو والكلب، والريح تهبّ حينذاك على رقبته، وخرجا من الغابة حتى وصلا إلى المنطقة المفتوحة المليئة بالأشجار . كان الكلب يسير أمامه حينذاك، وتوقّف عند شرك مزدوج كان ديفيد قد نصبه عندما كانا يقتفيان أثر الفيل . فألقى بالشرك على كتفه بسيوره الجلدية وحلقاته، وانطلق عائداً على الطريق المعهود إلى المزرعة وحربته المفضلة التي يحتفظ بها دائماً في يده . كان القمر عالياً حينذاك، وتساءل عن عدم دقّ الطبول في المزرعة . لا بد أن هناك شيئاً غير عادي لو أن والده كان هناك ولم تقرع الطبول .

Twitter: @ketab_n

الفصل التاسع عشر

كانا مستلقيين فوق الرمال الثابتة لأصغر خليج من الخلجان الثلاثة التي كانا يقصدانها دائماً عندما يكونان وحدهما. وقالت الفتاة: «إنها لا تريد أن تذهب إلى سويسرا».

- «ولا ينبغي أن تذهب إلى مدريد كذلك. فاسبانيا مكان سيّء للاستجمام».
- «أشعر كما لو أننا متزوّجان طوال حياتنا، وليس لدينا شيء أبداً سوى المشاكل». وأزاحت شعره من فوق جبينه وقبّلته.
- «أتريد أن تسبح الآن؟».
- «نعم. دعينا نقفز من فوق الصخرة العالية. أعلى صخرة».

قالت: «اقفز أنت. أما أنا فسأسبح، وأقفز أنت من فوق رأسي».

- «لا بأس. لكن ابقي ثابتة في الماء عندما أقفز».
- «فلنَرَ إلى أي حدّ يمكنك أن تقفز بالقرب منّي».

عندما تطلّعت إلى أعلى، رأته يحافظ على توازنه فوق الصخرة العالية، منحنياً بلونه البنّي مقابل لون السماء الزرقاء. ثم قفز في اتجاهها وانبثقت المياه مرتفعة من خلف كتفيها.

واستدار تحت الماء، وظهر أمامها وهز رأسه قائلاً: «قفزت بطريقة ممتازة جداً».

سبحا في الماء إلى أقصى مدى وعاد، ثم جفّف كل منهما الآخر وارتديا ملابسهما على الشاطىء.

Twitter: @ketab_n

- «هل أعجبك حقاً أن أقفز لأصل إلى قربك؟».
- «بل أحببت ذلك».

قبّلها فأحست بالانتعاش والبرودة من أثر السباحة وهي لا تزال تحسّ بمذاق البحر.

دخلت كاترين بينما كانا لا يزالان جالسين في البار. كانت مجهدة وساكنة ومؤدّبة.

عندما جلسوا إلى المائدة قالت: «ذهبت إلى (نيس) ثم توجهت إلى الكورنيش وتوقفت عند «فايل فرانش» لأشاهد طرّاداً حربياً يدخل الميناء، وهذا ما جعلني أتأخر».

قالت ماريتا: «لم تتأخّري كثيراً».

قالت كاترين: «لكن الأمر كان غريباً، كلّ الألوان كانت براقة جدّاً. حتى الألوان الرمادية كانت كذلك. وأشجار الزيتون كانت تتلألأ».

قال ديفيد: «كان ذلك ضوء الظهيرة».

قالت: «كلا، لا أعتقد ذلك. لم أكن على ما يرام، لكنني استرحت عندما توقّفت لمشاهدة السفينة. لم تكن بمثل تلك الضخامة حتى يطلق عليها مثل هذا الاسم الضخم».

قال ديفيد: «أرجو أن تتناولي قطعة من اللحم. فأنت لم تأكلي أيّ شيء».

قالت: «آسفة، إنه لحم جيّد، يعجبني التوريندوس».
- «أتودّين شيئاً آخر بدلاً من اللحم؟».

- «لا، سأتناول سلاطة. أتعتقد أنّ بإمكاننا أن نشرب زجاجة بيريه جويه؟».

- «بالطبع».

قالت: «إنه نبيذ ممتاز على الدوام، ودائماً كان يسعدنا تناولُه».

بعد ذلك، عندما كانا في حجرتهما، قالت كاترين: «أرجوك، يا ديفيد لا تتضايق. فالأمور تفاقمت بسرعة كبيرة في الفترة الأخيرة».

سألها: «كيف؟» بينما كان يربت على جبهتها.

- «لا أدري. فجأة هذا الصباح وجدت نفسي عجوزاً، وحتى الوقت لم يكن هو الوقت المناسب من العام، ثم بدأت الألوان تصبح زائفة. أصابني القلق وأردت أن أطمئنّ على رعايتك».

- «أنت تقومين برعاية رائعة لكل الناس».

Twitter: @ketab_n

- «كنت سأفعل ذلك، لكنني متعبة جداً، وليس هناك وقت، وأعلم أن الأمر سيصبح مهيناً جداً إذا نفدت النقود، واضطررت للاستدانة، وأنا لم أقم بتثبيت أي شيء ولا حتى وقّعت على أي شيء، وإنما انحدرت إلى هذا الحال الذي أنا عليه. كما أصابني القلق على كلبك».

- «كلبي؟».

- «نعم. كلبك الموجود في القصّة عن أفريقيا. فلقد ذهبت إلى الحجرة لأرى ما إذا كنت في حاجة لأي شيء وقرأت القصّة، بينما كنت تتحدث أنت وماريتا في الحجرة الأخرى. لم أسترق السمع. تركت المفاتيح في جيب البنطلون القصير الذي غيّرته».

قال لها: «لكني أتممتُ نصفها فقط».

قالت: «إنها قصّة رائعة. لكنها أفزعتني. لقد كان الفيل غريباً جداً، وكذلك والدك. لم يعجبني على الإطلاق، لكنني أعجبت بالكلب أكثر من أيّ شيء آخر، فيما عداك أنت، يا ديفيد، وأنا قلقة جداً من أجله».

- «كان كلباً رائعاً. لا داعي لأن تقلقي عليه».

- «أأستطيع أن أقرأ ماذا حدث له اليوم في القصّة؟».

- «بالتأكيد، إذا أردت ذلك. لكنه يجلس الآن في المزرعة، وليس هناك داع لأن تقلقي من أجله».

- «إذا كان على ما يرام فلا داعي لأن أقرأ القصة حتى تعود إليه، كيبو. اسم لطيف فعلاً».

- «إنه اسم جبل. في الجانب الآخر من (موانزا)».

- «أنت وكيبو. أحبكما كثيراً. فأنتما متشابهان إلى حدّ كبير».

- «تشعرين بتحسّن، يا ديفل».

قالت كاترين: «ربما. آمل ذلك. لكن لن يدوم ذلك طويلاً. عندما كنت أقود السيارة هذا الصباح كنت في منتهى السعادة ثم فجأة أصبحت عجوزاً. عجوزاً للدرجة التي لا أحفل فيها بأي شيء».

- «أنت لست عجوزاً».

- «بل أنا كذلك، أنا أعجز من ملابس أمي القديمة، ولن أعمر أكثر من كلبك، ولا حتّى في القصّة».

Twitter: @ketab_n

الفصل العشرون

ما أن انتهى ديفيد من الكتابة حتى شعر بالجوع والخواء لأنه واصل الكتابة طويلاً بعد النقطة التي كان ينبغي أن يتوقّف عندها. لم يرَ لذلك أهمية في ذلك اليوم لأنه كان يكتب في الجزء المجهد من القصّة، ولم يشعر بالتعب إلا حين التقطوا الأثر مرة أخرى. كان قد ظلّ لفترة طويلة أكثر نشاطاً وأفضل لياقة من الرجلين، وضاق ذرعاً باقتفائهما البطيء للأثر، وفترات التوقّف المنتظمة التي كان والده يقوم بها كلّ ساعة. كان باستطاعته أن يتحرّك أسرعَ من «جوما» ومن والده، وعندما بدأ يحس بالتعب كانا هما كالعادة دائماً، وعند الظهر أخذوا الراحة المعتادة لمدة خمس دقائق فقط، ثم لاحظ أن «جوما» كان يزيد من سرعة خطوته قليلاً. من المحتمل أنه لم يفعل ذلك وربما بدا له أنه أسرع، لكن الروث كان طازجاً حينذاك رغم أنه لم يكن دافئاً حتى للذي يلمسه. ناوله جوما البندقية ليحملها بعد أن بلغوا آخر خط الروث، لكنه بعد ساعة تطلع إليه واستردها ثانية. كانوا يسيرون بمحاذاة سفح جبل منحدر، لكن الأثر كان يتجه إلى أسفل عندئذٍ، ومن ثغرة في الغابة رأى منطقة أشجار مهشمة.

قال والده: «من هنا يبدأ الجزء الصعب، يا ديفي».

في تلك اللحظة عرف أنه لا بدّ أن يعاد إلى المزرعة طالما أنه قد دلّهم على بداية الأثر. كان جوما يعرف ذلك منذ فترة طويلة. وعلم والده بذلك في تلك اللحظة، ولم يكن في وسعه أن يفعل شيئاً. كان هذا أحد أخطائه، وليس هناك ما يفعل الآن سوى المغامرة. نظر ديفيد إلى آثار أقدام الفيل المستديرة المفلطحة واكتشف الأماكن التي وطئت فيها الحشائش والأماكن التي كسرت فيها أفرع الأشجار وانفرطت الحبوب الجافّة للأزهار بعد التحطيم. التقط جوما الحبوب وتطلّع إليها تحت الشمس. وناول جوما الحبوب الجافة

Twitter: @ketab_n

إلى والد ديفيد ففركها بين أصابعه. لاحظ ديفيد الزهور البيضاء التي سقطت وأصابها الجفاف، لكنها لم تجفّ تماماً ولم تسقط عنها حبوب لقاحها.

قال والده: «سيبدأ في التلاعب بنا. هيّا بنا نمضي».

وحتى وقت متأخر من بعد الظهر كانوا لا يزالون يقتفون الأثر خلال المنطقة المحطمة. كان النعاس قد غلبه في ذلك الوقت لفترة طويلة، وعندما راقب الرجلين اكتشف أن النوم هو عدوّه الحقيقي، وتابع خطوهما وحاول أن يقاوم النعاس الذي غلبه في النهاية، كان الرجلان يتبادلان الراحة بعد كل ساعة من المطاردة. والذي كان عليه الدور في الراحة كان يطل عليه في فترات منتظمة ليطمئن على وجوده معهم، عندما أقاموا معسكراً مؤقتاً عند حلول الظلام في الغابة، سرعان ما راح في النوم حالما جلس، ثم استيقظ ورأى جوما يمسك حذاءه ويتحسّس قدميه العاريتين المتورّمتين. كان والده قد نشر معطفه فوقه وجلس إلى جواره ومعه قطعة من اللحم البارد وقطعتان من البسكويت. قدم له شاياً بارداً في وعاء ما.

قال والده: «ينبغي عليه أن يأكل، يا ديفي. قدماك على ما يرام. مثل قدمي جوما تماماً. كلْ ذلك ببطء، واشرب بعض الشاي، وعد للنوم ثانية، ليس لدينا أيّ مشكلة».

- «أنا آسف لأنني كنت نعِساً».

- «أنت وكيبو تجوّلتما طوال الليل تصطادان. لماذا لا تنام إذن؟ بإمكانك أخذ المزيد من اللحم إذا كنت تريد».

- «أنا لست جائعاً».

- «عظيم. نحن على ما يرام لمدة ثلاثة أيام. سوف نحصل على ماء غداً. فكثير من الجداول تطلع من الجبل».

- «إلى أين هو ذاهب؟».

- «جوما يعتقد أنه يعرف».

- «أليس ذلك سيئاً؟».

- «ليس سيئاً جدّاً، يا ديفي».

قال ديفيد: «سأُعاود النوم. لست في حاجة إلى معطفك».

قال والده: «أنا وجوما على ما يرام. دائماً ما أنام متدفئاً، أنت تعرف».

نام ديفيد حتى قبل أن يقول له والده «ليلة طيبة»، ثم استيقظ فجأة وضوء القمر يسقط

Twitter: @ketab_n

على وجهه، ففكر في الفيل وأذنيه الكبيرتين وهما تتحركان أثناء وقوفه في الغابة، ورأسه متدلٍّ إلى أسفل من ثقل الأنياب. واعتقد ديفيد أن الخواء الذي أحسّ به بالليل عندما تذكّره كان بسبب استيقاظه جائعاً. لكن الأمر لم يكن كذلك واكتشفه في الأيام الثلاثة التالية.

في القصة حاول أن يبعث الفيل حيّاً مرة أُخرى حين رآه هو وكيبو بالليل عندما كان القمر ساطعاً. فكر ديفيد: ربما أستطيع، ربما أستطيع. لكن عندما أغلق الحقيبة على ما أنجزه من عمل اليوم وخرج من الحجرة وأغلق الباب قال لنفسه: كلا، لا يمكنك أن تفعل ذلك. فالفيل عجوز وإذا لم يكن ذلك والدك فمن الممكن أن يكون شخصاً آخر. ليس أمامك إلا محاولة الكتابة بالطريقة التي جرت بها. لذا يجب أن تكتب كلّ يوم بأفضل ما تستطيع واستخدم الحزن الذي تحسّه الآن ليجعلك تستشعر كيف حدث الحزن المبكر. وينبغي عليك دائماً أن تتذكّر الأشياء التي تعتقد في صدقها لأنك إذا عرفتها فستكون متواجدة هناك في الكتابة وأنت لن تخدعهم. إن الكتابة هي الشيء الوحيد الراقي الذي تقوم به.

ذهب خلف البار وأخرج زجاجة «هيج» ونصف زجاجة «بيريه» باردة، وأعد لنفسه شراباً خرج به إلى المطبخ ليبحث عن السيدة. قال لها إنه سيذهب إلى «كان» ولن يعود على الغداء. وجهت إليه اللوم لتناوله الويسكي على معدة خاوية، فسألها إن كان لديها أية قطعة لحم باردة يلقي بها في معدته مع الويسكي. أحضرت له قطعة من لحم دجاج باردة وقطعتها شرائح ووضعتها في طبق مع سلاطة؛ وقصد البار فأعدّ لنفسه كأساً أُخرى وعاد ليجلس إلى مائدة المطبخ.

قالت السيدة: «سيدي، لا تشرب ذلك الآن قبل أن تأكل».

قال لها: «إنه مفيد لي، نحن نشربه مع الطعام مثل النبيذ في الحرب».

- «من الغريب أنكم لستم مدمنين».

- «مثل الفرنسيين». قال ذلك، وأخذا يناقشان عادات الشرب الفرنسية، التي اتفق عليها الاثنان؛ ثم أثارته بقولها إن زوجته قد تركته. قال لها إنه قد تعب منهما كلتيهما، وسألها إذا كانت هي على استعداد لأن تحتلّ مكانهما الآن؟. فقالت كلا، وعليه أن يظهر المزيد من إثبات رجولته قبل أن يستثير امرأة ناضجة. قال لها إنه سيذهب إلى «كان» حتى يتسنى له الحصول على وجبة مناسبة ويعود كالأسد، وعلى نسوة الجنوب أن يحذرن منه. تبادلا بحنان قبلة زبون معترف بالجميل

Twitter: @ketab_n

وسيدة شجاعة. ثم انصرف ديفيد ليأخذ حمّاماً ويحلق ويغيّر ملابسه.

أعطاه الحمّام إحساساً بالراحة، بالإضافة إلى أنه كان مبتهجاً بحديثه مع السيدة، فكر: لا أعرف ماذا ستقول لو أنها عرفت الموضوع كله. لقد تغيّرت الأمور منذ الحرب، والرجل وزوجته لديهما إحساس بتطور أسلوب الحياة ويرغبان في مواكبة التغيير. فنحن ثلاثة زبائن كلّنا من الشباب الطيّب، وما دمنا ندفع وليس هناك عنف فليس هناك ما يسوؤنا. لقد ذهب الروس، والإنجليز بدأ الفقر يصيبهم، والألمان تحطّموا، والآن يسود ذلك الاستخفاف بالقوانين الوضعيّة التي يمكن أن تكون بمثابة حلّ جيدّ لمنطقة الساحل كلّه. نحن الروّاد الأوائل لافتتاح الموسم الصيفيّ الذي ما زال يُعدُّ نوعاً من الجنون. نظر إلى وجهه في المرآة ونصفه محلوق. قال لنفسه: فليكن، أنت لست في حاجة لأن تكون ذلك الرائد، تماماً مثلما أنت لست في حاجة لأن تحلق نصف ذقنك الآخر. وبعد ذلك لاحظ بنوع من الحسّ النقدي الواعي، اللون الفضّي الغالب على شعره.

سمع صوت السيارة «البجاتي» على الطريق المنحدر ثم وصولها إلى الممرّ وتوقّفها.

دخلت كاترين الحجرة. كانت تضع وشاحاً على رأسها ونظارة شمسية خلعتها وقبّلت ديفيد، احتضنها بشدة وسألها: «كيف حالك؟».

قالت: «ليس على ما يرام. كان الجوّ حارّاً جدّاً». ابتسمت له ووضعت جبهتها على كتفه وقالت: «أنا سعيدة لأنني في بيتي».

خرج يُعدُّ شراب «توم كولينز» وأحضره إلى كاترين التي كانت قد انتهت من أخذ حمّام بارد. تناولت الكأس الطويلة الباردة ورشفت منها رشفة، وقربتها من بشرتها السمراء الناعمة عند بطنها. وأخذت تلامس بالكوب حلمتيّ ثدييها فانتصبتا، ثم تناولت رشفة طويلة وقرّبت الكوب من بطنها ملامسة إياها ثانية، وقالت: «هذا شيء ممتع».

قبّلها وقالت: «أوه، ذلك لطيف، لا بد أنني نسيت ذلك. لا أرى سبباً وجيهاً يجعلنا نقلع عن ذلك؟ هل لديك سبب؟».

- «كلا».

قالت: «حسناً، ولا أنا كذلك. لن أدعك تلتفت إلى أيّة امرأة أخرى غير ناضجة. كانت هذه فكرة سخيفة».

قال ديفيد: «ارتدي ملابسك واخرجي».

Twitter: @ketab_n

- «كلا. أريد أن أداعبك مثل الأيام الخوالي».
- «كيف؟».
- «أنت تعرف. أريد أن أجعلك سعيداً».
- «سعيداً كيف؟».
- «بهذا الأسلوب».

قال. «احذري».

- «أرجوك».
- «لا بأس، إذا كنت ترغبين».
- «وبالطريقة نفسها التي حدثت في لجرودي روا لأولّ مرة؟».
- «إذا كنت ترغبين».
- «أشكرك لمنحك إياي هذا الوقت لأنك...».
- «لا تتكلمي».

- «ستكون بطريقة (لجرودي روا) نفسها، وأكثر رغبة، لأنها في وضح النهار، ونحن نحب بعضنا أكثر، لأنني قد رحلتُ. أرجوك دعنا نتمّ ذلك ببطء وببطء جداً..».

- «أجل ببطء».
- «هل لديك...».
- «أجل».
- «أجل».
- «ألديك استعدادٌ فعلاً؟».
- «أجل إذا كنت ترغبين».

- «آه، أرغب كثيراً وأنت كذلك، لدينا كلينا الرغبة. أرجو أن تكون بطيئاً ودعني أستمتع بذلك».

- «لك ذلك».

- «نعم سأفعل. سأفعل ذلك، آه نعم سأفعل، افعل. أرجوك تجاوب معي الآن. أرجوك هل تستطيع الآن...».

استلقيا على الملاءات، وساقا كاترين فوق ساقيه تداعب مشط رجله برقة، بأصابع قدميها، مستندة على مرفقيها ورفعت فمها من على فمه وقالت:

Twitter: @ketab_n

- «هل أنت سعيد لاستعادتي؟».

قال: «أنت، أنت موجودة بالفعل».

- «أنت لم تعتقد أنني سأعود. بالأمس كان كل شيء قد انتهى وانقضى، والآن أنا ها هنا، هل أنت سعيد؟».

- «نعم».

- «أتذكر، عندما كان كلّ ما أتمناه أن أكون سمراء للغاية، والآن أنا أدكن فتاة بيضاء في العالم».

- «والأكثر شقرة. في لون العاج. هذا ما أعتقده دائماً، وناعمة كملمس العاج أيضاً».

- «أنا سعيدة جداً وأريد أن أداعبك بالطريقة نفسها التي اعتدناها دائماً. لكن أنا هي أنا، لن أدعك تلتفت إليها بالطريقة التي كنت أفعلها ولا يبقى لي شيء. لقد انتهى ذلك».

قال ديفيد: «لا يبدو ذلك أبداً. لكنك حقيقة عدت لبهجتك ثانية. أليس كذلك؟».

قالت كاترين: «أنا كذلك بالفعل، أنا لست عابسة، أو كئيبة، أو أستحقّ الشفقة».

- «أنت لطيفة وجميلة».

قالت: «إن كل شيء قد أصبح رائعاً وتغيّر. سوف نتناوب الوقت. أنت لي اليوم وغداً. ولماريتا اليومان التاليان. يا إلهي أنا جائعة. هذه هي المرة الأولى التي أشعر فيها بالجوع منذ أسبوع».

عندما عاد ديفيد وكاترين من السباحة في وقت متأخر من بعد الظهر، انطلقا بالسيارة إلى «كان» بحثاً عن صحف باريس، ثم جلسا في المقهى وقرأ الصحف وتحدّثا ثم عادا إلى الفندق. بعد أن بدّل ديفيد ملابسه وجد ماريتا جالسة في البار تقرأ. تعرّف على الكتاب، فقد كان من تأليفه، الكتاب الذي لم تقرأه.

سألته: «هل استمتعتما بالسباحة؟».

- «نعم. سبحنا لفترة طويلة».

- «هل قفزت من فوق الصخور العالية؟».

- «كلا».

Twitter: @ketab_n

- «أنا سعيدة لذلك. كيف حال كاترين؟».
- «أكثر ابتهاجاً».
- «نعم. إنها ذكية جداً».
- «كيف حالك؟ هل أنت على ما يرام؟».
- «على خير حال. أقرأ هذا الكتاب».
- «ما رأيك فيه؟».
- «لا أستطيع أن أخبرك إلا بعد غد، أنا أقرأه ببطء حتى يبقى معي أطول فترة ممكنة».
- «ما هذا؟ أهو اتفاق؟».
- «أعتقد ذلك، لكن لا داعي لأن تقلق كثيراً على الكتاب ولا على ما أحسّه حيالك، فهو لم يتغيّر».

قال ديفيد: «لا بأس. لكنني افتقدتك بشدّة هذا الصباح».

قالت: «موعدنا بعد غدٍ. لا تقلق».

Twitter: @ketab_n

الفصل الواحد والعشرون

كان اليوم التالي في القصة سيّئاً جداً، لأنه عرف قبل الظهر بوقت طويل أن مسألة احتياجه للنوم ليست هي فقط التي تحدث فرقاً بين صبيّ ورجال. في الساعات الثلاث الأولى كان أكثر نشاطاً منها، وطلب البندقية عيار «٣٠٣ و» ليحملها، لكن جوما هزّ رأسه بالنفي. لم يكن يبتسم وكان دوماً أفضل صديق لديفيد، وهو الذي علّمه الصيد. فكر ديفيد: لقد أعطاني إياها بالأمس، وأنا اليوم أكثر لياقة من الأمس. وبالفعل كان كذلك حتى الساعة العاشرة، حين عرف أن اليوم لا بدّ أن يكون سيّئاً أو أسوأ من اليوم الذي قبله. كانت حماقة منه أن يفكر أن في استطاعته أن يقوم بالمطاردة مع والده، أو يفكر في القتال معه. عرف أيضاً أن ذلك ليس مناسباً لأنهم رجال، كانا صيادين محترفين، وعرف حينئذٍ لماذا لا يضيع جوما وقته حتى في مجرد ابتسامة. كانا على دراية تامّة بكلّ ما فعله الفيل، يتبادلان الرأي معاً بالإشارة دون كلام، وعندما كانت المطاردة تغدو صعبة كان والده يركن إلى رأي جوما دائماً. عندما توقفوا لملء زجاجات المياه من مجرى مائيّ، قال والده: «ضاع اليوم هباء، يا ديفي». بعد أن عبروا منطقة المحطة أخيراً وأخذوا يصعدون ثانية تجاه الغابة، تحولت آثار أقدام الفيل ناحية اليمين ليسير في ممرّ قديم للأفيال. رأى والده وجوما يتحدّثان، وعندما وصل إليهما كان جوما ينظر خلفه إلى الطريق الذي أتوا منه، وإلى جزيرة صخرية من التلال في المنطقة الجافّة، ويبدو أنه كان يقارن بينها وبين ثلاث قمم زرقاء لتلال على حدود الأفق.

قال والده مفسراً: «جوما يعرف أين هو ذاهب الآن. كان يعتقد أنه يعرف من قبل حتى وصل إلى هذه المنطقة الصعبة». تطلع خلفه إلى المنطقة التي كانوا قد قطعوها طوال

Twitter: @ketab_n

اليوم، واستطرد: «إن المكان الذي يتوجّه إليه الآن مكان يسهل الوصول إليه، لكن ينبغي علينا الصعود أولاً».

واصلوا الصعود حتى حلول الظلام، ثم أقاموا معسكراً مؤقتاً. وكان ديفيد قد اصطاد اثنين من الديكة البرية بمقلاعه ضمن سرب صغير كان يسير فوق الممر قبل غروب الشمس مباشرة. كانت الطيور قد جاءت لتفتّش عن شيء تقتات به في تراب ممر الأفيال القديم، تسير برشاقة وزهو، وعندما أصابت الحصاة ظهر أحدها وبدأ الطائر يهتز ويضرب بجناحيه في صوت مكتوم، أسرع إليه طائر آخر لينقره، فشيّع ديفيد حصاة أخرى ناحية صدر الطائر الثاني بعد أن جذب مقلاعه. وعندما تقدم ناحيته أسرعت الطيور بالفرار بعيداً. نظر جوما إلى الخلف وابتسم هذه المرة، والتقط ديفيد الطائرين، وهما ما برحا دافئين مكتنزين وريشهما ناعم، وضرب رأسيهما بمقبض سكين الصيد.

وحيث كانوا يعسكرون تلك الليلة قال والده: «لم أشاهد أبداً طيوراً من نوع «الفرانكولين» بمثل هذا الحجم. أحسنت صنعاً باصطيادك زوجاً منها».

قام جوما بطهو الطائرين، بشيّهما على قضيب فوق نار هادئة جدّاً، شرب والده الويسكي الممزوج بالماء في غطاء زمزميته بينما كانا مستلقيين يراقبان جوما وهو يقوم بالطهو، بعد ذلك ناول جوما كلاً منهما صدراً بالقلب وأكل هو الرقبتين والظهرين والفخذين.

قال والده: «هناك فرق كبير، يا ديفي، لقد أخذنا الآن مؤونة بما فيه الكفاية».

سأله ديفيد: «كم نبعد عنه؟».

فقال والده: «في الحقيقة نحن قريبان جداً منه. الأمر كلّه يتوقّف على ما إذا كان سيرحل عندما يطلع القمر. سيتأخر الليلة ساعة بالإضافة إلى ساعتين حتى نعثر عليه».

- «لماذا يعتقد جوما أنه يعرف المكان الذي يذهب إليه؟».
- «لأن جوما جرحه وقتل صديقه (اسكري) ليس بعيداً جداً من هنا».
- «متى؟».
- «هو يقول منذ خمسة أعوام. ذلك يعني أيّ وقت. هو يقول عندما كنت أنت كتكوتاً صغيراً».
- «وهل أصبح الفيل وحيداً منذ ذلك الوقت؟». ؟
- «هو يقول ذلك. فهو لم يره. سمع عنه فقط».
- «ما وزن النابين كما يقول هو؟».

Twitter: @ketab_n

- «ما يقرب من مئتي رطل. أضخم من أي شيء رأيته من قبل. هو يقول لم يوجد فيل قط بمثل هذه الضخامة أتى إلى هذه المنطقة».

قال ديفيد: «من الأفضل أن أنام، آمل أن أكون أفضل غداً».
قال والده: «كنت رائعاً اليوم، وكنت فخوراً جداً بك. وجوما أيضاً».

عندما استيقظ في الليل بعد أن طلع القمر، كان على يقين بأنهما ليسا فخورين به فيما عدا براعته في صيد الطائرين. لقد اكتشف مكان الفيل بالليل وتبعه ليتأكد من وجود نابيه ثم عاد ليخبر الرجلين، ودلّهما على أول الأثر. كان ديفيد يعلم أنهما فخوران بذلك. لكن عندما بدأت المطاردة المميتة أصبح غير ذا نفع بالنسبة لهما بل يشكل خطورة لنجاحهما، مثلما كان كيبو بالنسبة له، عندما اقترب جداً من الفيل بالليل، وتيقّن أنهما قد كرها نفسيهما لعدم إعادته عندما كان الوقت يسمح بذلك. كان وزن أنياب الفيل مئتي رطل لكل ناب. وما دامت هذه الأنياب قد نمت أكثر من معدلها الطبيعي، فإن الفيل يجب أن يُصاد من أجلهما، ولا بد لثلاثتهم الآن أن يقتلوه. كان ديفيد على يقين من أنهما لا بدّ أن يقتلاه حينئذٍ، لأنه، أي ديفيد، بقي في انتظارهما طوال النهار وظل يذرع المكان جيئة وذهاباً حتى أُنهك عند الظهيرة. ومع ذلك فربما يكونان فخورين به، لأنه فعل ذلك، لكنه لم يفعل أيّ شيء ذي نفع بالنسبة لعملية الصيد، وكان من الممكن أن يكونا أفضل كثيراً بدونه. ولمرات عديدة، خلال اليوم كان يتمنّى ألا يكون قد خدع الفيل أبداً، وفي فترة بعد الظهر تذكّر أمنيته في ألاّ يكون قد رأى الفيل على الإطلاق. عندما استيقظ في ضوء القمر عرف أن ذلك ليس صحيحاً.

طوال فترة الصباح، وبينما كان يكتب، حاول أن يتذكر بصدق، كيف كانت مشاعره وما الذي قد حدث في ذلك اليوم. وأصعب ما في الأمر لتحقيق الصدق هو كيف كانت مشاعره آنذاك والمحافظة عليها نقيّة وعدم خلطها بأيّ مشاعر أُخرى أحسّها فيما بعد. كانت تفاصيل المكان واضحة ومحددة مثل الصباح، حتى الاختصارات والإضافات الخاصة بالمعاناة، كتبها جيّداً. لكن مشاعره تجاه الفيل كانت أصعب جزء وكان على علم بضرورة تجنّب كتابتها على أن يعود إليها ليتأكد من أنها ستكون مثلما حدثت، في حينها، وليس فيما بعد. عرف أن مشاعره بدأت تتشكّل، لكنه كان في غاية الإجهاد ليتذكّرها تماماً.

أغلق الحقيبة وهو لا يزال مشغولاً بالمشكلة ومتعايشاً مع القصّة، وخرج من الغرفة إلى الممرّ الحجري المؤدّي إلى الشرفة، حيث كانت تجلس ماريتا على كرسيّ تحت شجرة من أشجار الصنوبر المواجهة للبحر. كانت تقرأ، وكان هو يسير عاري القدمين، فلم تسمعه. تطلّع ديفيد إليها وسعد لرؤيتها. وعندما تذكّر الموقف الغريب الذي حدث،

Twitter: @ketab_n

استدار متّجهاً إلى مبنى الفندق ومضى إلى حجرة كاترين. لم تكن موجودة بالحجرة، وكان لا يزال يعايش أفريقيا كواقع أكيد، أما كلّ ما حوله، حيث كان موجوداً، فهو غير حقيقي وزائف. خرج إلى الشرفة ليتحدّث إلى ماريتا.

قال: «صباح الخير. ألم تريْ كاترين؟».

قالت الفتاة: «ذهبت إلى مكان ما. قالت لي أن أخبرك بأنها ستعود».

فجأة أحسّ أن ما حوله كان حقيقياً.

- «ألا تعرفين إلى أين ذهبت؟».

قالت الفتاة: «لا. خرجت بدراجتها».

قال ديفيد: «يا إلهي. لم تركب الدراجة منذ اشترينا السيارة البجاتي».

- «ذلك ما قالته. إنها تعاود ركوبها. هل وفّقت في العمل هذا الصباح؟».

- «لا أدري. سأعرف غداً».

- «هل تناولت إفطارك؟».

- «لا أدري، فات الوقت».

- «أودُّك أن تأكل».

قال لها: «سأذهب لأغتسل».

عندما انتهى من الاستجمام وكان يحلق ذقنه وصلت كاترين. كانت ترتدي قميصاً قديماً من قمصان «لجرودي روا» وبنطلوناً قصيراً من اللينو مشقوقاً من عند أسفل الركبتين، وتشعر بالحر، وقميصها مبتلّ.

قالت: «شيء رائع. لكن لا بد أن أنسى ما يحدث لفخذيك عندما تكون في منطقة صاعدة».

- «هل ركبت الدراجة لمسافة طويلة، يا ديفل؟».

قالت: «ستة كيلو مترات. وهي لا تعدّ شيئاً، لكن لا بدّ أن أنسى كل شيء عن التعب».

قال ديفيد: «شيء فظيع أن تركبي الدراجة في هذا الحرّ، إلا إذا فعلت ذلك في الصباح الباكر. غير أنني سعيد لأنك عاودت ذلك مرة أخرى».

كانت تحت الرشّاش حينئذٍ وعندما خرجت قالت: «والآن، أنظر كم نحن أسمران

Twitter: @ketab_n

معاً. نحن في اللون نفسه الذي خطّطنا أنْ نكونه».

- «أنت أكثر سمرة».

- «ليس كثيراً. أنت أسمر بطريقة فظيعة، أنظر إلى كلينا معاً».

تطلع كلّ منهما إلى الآخر وهما متلامسان في المرآة الطويلة المثبتة في الباب.

قالت: «آه، يعجبك منظرنا. ذلك لطيف. كيف أبدو؟ تلمّس هنا وانظر».

وقفت مشدودة القامة جدّاً ووضعت يده على ثدييها.

قالت: «سأرتدي واحداً من أضيق قمصاني، وهكذا يمكنك أن تقول لي كيف أبدو، أليس من الطريف أن شعرنا ليس له لون على الإطلاق عندما يكون مبلولاً؟ إنه شاحب كحشائش البحر».

تناولت مشطاً، ومشطت شعرها إلى الخلف فبدت وكأنها خارجة من البحر توّاً.

قالت: «سأرتدي قميصي على هذا النحو الآن ثانية. مثلما كنا في (لجرودي روا) وهنا، أيام الربيع».

- «يعجبني شعرك وهو فوق جبهتك».

- «سئمت ذلك، لكن بإمكاني أن أفعل إذا كان يعجبك. أتعتقد أنّ بإمكاننا أن نذهب إلى المدينة ونتناول إفطارنا في المقهى؟».

- «ألم تتناولي إفطارك؟».

- «أردت أن أنتظرك».

قال: «لا بأس. دعينا نذهب ونتناول إفطارنا. فأنا جائع جداً».

تناولا إفطاراً شهياً وقهوة بالحليب، وخبز البريوش ومربى التوت وبيضاً مخفوقاً بلحم الخنزير، وعندما انتهيا سألته كاترين: «أيمكنك أن تذهب معي إلى محل جان؟ فاليوم ميعاد ذهابي لأغسل شعري وسأقصّه كذلك».

- «سأنتظرك هنا».

- «أرجوك أن تذهب معي، لقد فعلتَ ذلك من قبل، ولم يكن في ذلك إساءةٌ لأحد».

- «كلا، يا ديفل، فعلت ذلك ذات مرة وكانت مرة فقط. لا داعي لتكرارها. لا

Twitter: @ketab_n

تطلبي مني ذلك».

- «أنا لا أقصد شيئاً خاصاً بي: أردت أن نكون أشبه ببعضنا».

- «لا يمكن أن نكون الشيء نفسه».
- «بل يمكننا إذا تركتنا نفعل ذلك».
- «وأنا حقيقة لا أُريد أن أفعل ذلك».
- «حتى لو قلت إن ذلك كل ما أطلبه؟».
- «ألا يمكنك أن ترغبي في شيء يكون معقولاً؟».

- «بل أرغب. لكنني أُريد أن نكون الشيء نفسه، وأنت غالباً ما ترغب، ولن يكون هناك أيّ مشاكل لنفعل ذلك، فالبحر قد فعل كل شيء».

- «إذن دعي البحر يفعل ذلك».
- «لكنني أُريد ذلك اليوم».
- «وستكونين سعيدة على ما أعتقد».

- «بل أنا سعيدة الآن لأنك ستفعل ذلك وسأظلّ سعيدة، أنت تحبّني كيفما أبدو. أنت تعرف ذلك، فكّر في الأمر من هذا المنطلق».

- «شيء سخيف».
- «ليس سخيفاً، خاصة عندما يصدر منك، وتفعله لتسعدني».
- «إلى أي مدى ستشعرين بالضيق إن لم أفعل ذلك؟».
- «لا أدري. كثيراً جداً».

قال: «لا بأس، وهل يعني ذلك كثيراً بالنسبة لك حقاً».

قالت: «نعم. أشكرك. لن يستغرق الأمر وقتاً طويلاً. فلقد قلت لجان إنك ستحضر وسوف يُبقي المحل مفتوحاً من أجلنا».

- هل أنت دائماً على ثقة من أنني سأفعل هذه الأشياء؟».
- «أنا أعلم أنك توافق عندما تعلم أنني أرغب في الأمر كثيراً».
- «كم رغبت كثيراً في ألاّ أفعل. وعليكِ أن لا تطلبي مني ذلك».

- «لا داعي لأن تهتمّ. فلا شيء يستحقّ، وستصبح الأمور مجرد نكتة. لا تقلق على ماريتا».

- «ماذا عنها؟».

Twitter: @ketab_n

- «قالت إذا لم تكن ترغب في فعل ذلك من أجلي، فهي على استعداد لأن تطلب منك أن تفعل ذلك لي من أجلها».

- «لا داعي للإدّعاء!».

- «كلا. قالت ذلك هذا الصباح».

قالت كاترين: «أودّ لو تنظر إلى نفسك».

- «أنا سعيد لأنني لا أستطيع».

- «أودّ لو تنظر في المرآة».

- «لا أستطيع».

- «أنظر إليّ فقط. وسترى الحال التي أنت عليها. ولقد فعلتها، وليس في إمكانك أن تفعل أيّ شيء الآن. ذلك هو المنظر الذي تبدو عليه».

قال ديفيد: «كيف تسنّى لنا أن نفعل ذلك حقيقة؟ لا يمكن أن أبدو بالشكل الذي تبدين عليه».

قالت كاترين: «حسناً، لكننا فعلنا. وأنت فعلت. لذا يجب عليك أن تحبّ ذلك الوضع».

- «لا يمكن أن نكون فعلنا ذلك، يا ديفل».

- «بل فعلنا. وأنت على علم بذلك أيضاً. أنت فقط لا تريد أن تنظر ونحن الآن ملعونان. أنا كنت، وأصبحت أنت الآن كذلك. أنظر إليّ وسترى كم سيعجبك ذلك!».

نظر ديفيد إلى عينيها اللتين أحبّهما وإلى سمرة وجهها وإلى لون شعرها العاجي الذي لا يُصدّق، وكيف كانت تبدو سعيدة. وبدأ يتأكد أن ما سُمِحَ بحدوثه ليس إلا نوعاً من الغباء التام.

Twitter: @ketab_n

الفصل الثاني والعشرون

لم يعتقد ديفيد أن بإمكانه مواصلة الكتابة في القصة ذلك الصباح، وظل لفترة طويلة عاجزاً. لكنّه كان على يقين أنه لا بد أن يكتب، وأخيراً بدأ. وهم يتتبّعون مسار الفيل خلال ممر الأفيال القديم في منطقة وعرة صعبة من الغابة. ويبدو أن هذا الممرّ كانت الأفيال تستعمله منذ قديم الزمن، حين بردت الحمم البركانية التي تدفّقت من الجبل ونمت فوقها الأشجار وطالت وتشابكت أغصانها. كان جوما في منتهى الثقة وهم يتحرّكون بسرعة. كان كلاهما، والده وجوما، يبدوان واثقين جداً من نفسيهما، وكان السير خلال ممر الأفيال سهلاً جداً، حتى أن جوما ناوله البندقية ٣٠٣ و. ليحملها، بينما كانوا يمضون خلال ضوء الغابة المتقطّع. ثم افتقدوا الأثر بسبب كميات وفيرة من الروث الحديث وآثار أقدام مستديرة مفلطحة لقطيع من الأفيال وصل الممرّ من داخل الغابة الكثيفة من ناحية اليسار. انتزع جوما البندقية ٣٠٣ و. من ديفيد بغضب. ولم يدركوا القطيع إلا بعد الظهر، ورأوا أجساد الأفيال الرمادية خلال الأشجار وآذاناً كبيرة تتحرك وخراطيم تعسعس في جلبة وغير جلبة، وفرقعة فروع الأشجار المتكسّرة، وجذوع الأشجار المقتلعة التي تسقط فوق أجساد الفيلة وسقوط الروث.

وأخيراً عثروا على أثر الذكر العجوز، الذي إختلط مع مسار أفيال صغيرة. نظر جوما إلى والد ديفيد وفتح فمه بشبه ابتسامة مظهراً أسنانه المنتظمة وهزّ والده رأسه. وبدا الاثنان وكأن بينهما سراً قذراً، تماماً مثلما رآهما عندما كانا في المزرعة في تلك الليلة.

لم يمض وقت طويل حتى توصّلا إلى السرّ. كان على الجانب الأيمن من الغابة، وقادت إليه آثار أقدام الذكر العجوز. كانت جمجمة فيل بارتفاع صدر ديفيد أبيضّ لونها من الشمس والمطر. وكانت تبدو على الجبهة كآبة عميقة وعلى الخطوط المنحدرة من بين

Twitter: @ketab_n

تجويف العينين الفارغ، وتصل إلى فتحتين منشوهتين حيث انتزعت الأنياب. أشار جوما إلى المكان الذي كان وقف فيه الفيل الضخم الذي يتتبّعون أثره، بينما كان ينظر إلى الجمجمة التي أزاحها الفيل بخرطومه قليلاً عن المكان الذي كانت مستقرّة فيه على الأرض حيث بدت آثار أنيابه وقد لامست الأرض بجانبها. أشار إلى الثقب الوحيد الذي كان موجوداً في عظام الجبهة البيضاء الكثيبة، ثم إلى أربعة ثقوب متقاربة على العظم بجوار فتحة الأذن. فتح فمه بشبه ابتسامة إلى ديفيد وإلى والده وأخرج من جيبه رصاصة عيار «٣٠٣ ر ـ» وأدخل مقدمتها في الفتحة الموجودة في عظام الجبهة.

قال والده: «هنا أصاب جوما الذكر الضخم. هذا هو «أسكرى» صديقه الحقيقي، لأنه كان فيلاً ضخماً أيضاً. بادر هو بالهجوم وصرعه جوما وأجهز عليه بطلقة في الأذن».

كان جوما يشير إلى العظام المبعثرة وكيف أن الفيل الضخم دار حولها وكان جوما ووالد ديفيد في منتهى السعادة بما وجداه.

سأل ديفيد والده: «ما هي الفترة التي قضاها هو وصديقه معاً؟».

قال والده: «ليس لديّ أدنى فكرة. اسأل جوما».

ـ «اسأله أنت لو سمحت».

تحدّث والده وجوما معاً، ونظر جوما إلى ديفيد ضاحكاً. قال له والده: «يقول ربما قدَّر عمرك أربع مراتٍ أو خمساً. هو لا يعلم ولا يهتمّ لذلك حقاً».

فكر ديفيد: لكنني أهتمّ. لقد رأيته في ضوء القمر، وكان وحيداً بينما كان كيبو في صحبتي. وكنت أنا مع كيبو أيضاً. لم يتسبّب الفيل في أيّ أذى، ونحن الآن قد تبعناه إلى حيث أتى ليرى صديقه الميت، ونحن الآن سنقوم بقتله. إنها غلطتي. لقد خنته.

في تلك اللحظة نجح جوما في العثور على الأثر وأومأ إلى والده وبدأا يتحركان.

فكر ديفيد: أن أبي ليس في حاجة لقتل الأفيال كي يعيش.

ولم يكن جوما ليعثر على الفيل لو لم أكن أنا قد رأيته. كانت له فرصة معه من قبل فجرحه وقتل صديقه. أنا وكيبو وجدناه، ولم يكن ينبغي علي أن أخبرهما، وأن أحتفظ بذلك سراً إلى الأبد، وأن أتركهما مخمورين في المزرعة. لقد كان جوما ثَمِلاً للغاية حتى أننا لم نستطع إيقاظه. لسوف أحتفظ بكل شيء سراً إلى الأبد. لن أخبرهما بأي شيء أبداً بعد ذلك. لو قتلاه فسوف يبدّد جوما نصيبه من ثمن العاج في الشراب أو في مجرد اقتناء زوجة جديدة. لماذا لم تساعد الفيل عندما كان في مقدورك ذلك؟ كل ما استطعت أن

Twitter: @ketab_n

تفعله أنك لم تذهب معهما في اليوم التالي، لكن، لم يكن ذلك ليمنعهما. فقد كان لا بد أن ينطلق جوما بحثاً عنه. لم يكن ينبغي أن تجدهما أبداً. على الإطلاق، لم يكن ينبغي أبداً. فلتكن على وعي بذلك وتتذكّره. لا تقل أيّ شيء لأحد على الإطلاق. أبداً لا تقل أي شيء مرة أخرى.

انتظره والده حتى استعاد نفسه وقال برقة شديدة:

ـ «لقد استقرّ هنا، ولن يبرح هذا المكان، سوف نهاجمه في أيّ وقت الآن».

قال ديفيد بهدوء شديد: «ملعون صيد الأفيال!».

سأله والده: «ماذا قلت؟».

قال ديفيد بتؤدة: «ملعون صيد الأفيال».

قال والده: «كن حذراً ولا داعي للسباب». ونظر إليه بفتور.

فكر ديفيد: تلك مسألة أخرى. إنه ليس غبياً. إنه يعلم كلّ شيء عن موقفي الآن، ولن يثق بي بعد ذلك أبداً. لا بأس، لا بأس، لا أريده أن يثق بي بعد ذلك، لأنني لن أخبره أو أخبر أحداً بأيّ شيء! مرة أخرى أبداً. أبداً أبداً أبداً.

كان ذلك عندما توقّف عن الكتابة في عملية الصيد هذا الصباح، عرف أنه لم يكتب ذلك الجزء كما ينبغي بعد. لم يتوصل إلى وصف بشاعة الجمجمة عندما وصلوا إليها في الغابة، ولا إلى وصف تلك الأنفاق التي حفرتها الخنافس تحت الأرض والتي بدت مثل المتاحف المهجورة أو سراديب الموتى عندما حرّك الفيل الجمجمة من مكانها. لم يصف بياض لون العظام بإمعان كبير ولا آثار القيل ولا ردّ فعله إزاء مشهد القتل، ولو أنه تتبّعهما لكان في استطاعته أن يرى كيف تصرّف الفيل، ولكان في قدرته أن يرى ما كان الفيل قد رآه. لم يصف أيضاً مدى الاتّساع الكبير لممرّ واحد للأفيال الذي كان يُعدّ بمثابة طريق رئيسي يشقّ الغابة، ولا ذلك الانطباع الذي أحدثته الأشجار العتيقة بفروعها المتآكلة وكأنها لوحة مرسومة بالجرافيت، ولا الممرات الأخرى التي تتقاطع مع ذلك الممرّ الرئيسي التي كانت تشبه خريطة مترو باريس. لم يصف كيف كانت الإضاءة في الغابة من خلال قمم الأغصان العالية المتشابكة، ولم يوضح أشياء أخرى معيّنة كان ينبغي عليه أن يكتبها كما كانت عليها. البعد الزمني ليس مهماً ما دامت الأبعاد تتغير، والمهم أن تُتذكر الأشياء بالحالة التي كانت عليها. لكن تغيّر مشاعره تجاه جوما وتجاه والده وتجاه الفيل كان هو الجزء المعقّد بالإضافة إلى الإنهاك الشديد الذي نجم عن ذلك. عندما أحس بالتعب بدأ يستوعب الموقف. بدأ الإحساس بالاستيعاب والفهم، وكان يدرك ذلك وهو يكتب، لكن

Twitter: @ketab_n

هذا الفهم الحقيقي المخيف داهمه تماماً في لحظة تعبه، ولا ينبغي عليه أن يصوغه من خلال تمكّنه من حرفية الكتابة، بل من خلال تذكّره للأشياء الواقعيّة التي تجعله واضحاً جلياً. غداً سيستعيد كلّ هذه الأمور تماماً ثم يواصل الكتابة.

وضع الكراسات التي يخط فيها مكانها في الحقيبة وأغلقها وخرج من باب حجرته ومشى حتى واجهة الفندق حيث كانت تجلس ماريتا وهي تقرأ.

سألته: «أتريد الإفطار؟».

- «أعتقد أنني في حاجة إلى شراب».

قالت: «هيا نتناوله في البار. فالجوّ رطب هناك».

ذهبا إلى البار، وجلسا على مقعدين من مقاعد البار الطويلة وصبّ ديفيد كأساً من زجاجة ويسكي «هيج بنش» وأكمله بالصودا.

- «ماذا عن كاترين؟».

- «لقد مضت وهي سعيدة جدّاً ومرحة».

- «وكيف حالك؟».

- «سعيدة وخجولة وهادئة إلى حدّ كبير».

- «خجلة إلى الحدّ الذي لا أستطيع معه أن أقبّلك».

احتضن كل منهما الآخر واستطاع أن يحسّ بأنه بدأ يستجمع شتات نفسه. لم يكن يعرف تماماً إلى أيّ مدى هو موزّع ومشتّت، لأنه عندما كان يبدأ في الكتابة، فإنه كان يكتب من صميم قلبه الذي لا يمكن أن ينشطر نصفين أو يتأثّر أو يخدش. كان متأكداً من ذلك، وكان ذلك هو مكمن قوته حتى لو تمزّق كلُّ كيانه.

جلسا على البار بينما كان الصبيّ يعدّ المائدة، وبدأت بشائر النسيم تأتي من البحر. بعد ذلك جلسا إلى المائدة تحت أشجار الصنوبر، وشعرا بالنسيم مرة أخرى، بينما كانا يتناولان الطعام والشراب.

قال ديفيد: «هذه النسمات الباردة تأتي مباشرة من كورديستان. العواصف الاستوائية ستصل إلينا سريعاً».

قالت الفتاة: «لن تهبّ اليوم، لا داعي لأن نشغل بالنا بها اليوم».

- «لم يحدث تقلّب في الجوّ منذ أن تقابلنا في مقهى «كان»».

- «أما زال بإمكانك أن تتذكر أشياء مضى عليها زمن طويل؟».

Twitter: @ketab_n

- «تبدو أبعد من زمن الحرب».

قالت الفتاة: «كنت في حرب الثلاثة أيام الماضية. خرجت من نطاقها هذا الصباح».

قال ديفيد: «أنا لم أفكر في ذلك قط».

قالت ماريتا: «لقد انتهيت من قراءة كتابك، إلا أنني لم أستطع أن أتعرف عليك، فأنت لم تعبّر بوضوح عما تعتقده».

ملأ كأسها وأعاد ملء كأسه.

قال: «لا يتسنى لي أن أعرف إلا فيما بعد. لم أحاول التظاهر رغم أنني فعلت، لقد توقّفت عن التفكير فيها أثناء الكتابة، أنا فقط أحسست ورأيت وكتبت وفكرت بشكل عملي. هذا هو السبب في أنه ليس أفضل كتاب. لأنني لم أكن أكثر ذكاء».

- «إنه كتاب جيّد جداً. فالأجزاء التي حدثت في الطائرة رائعة، وكذلك الإحساس بالآخرين والطائرات نفسها».

قال ديفيد: «أنا أجيد الكتابة عن الآخرين، من الناحية الحرفية والعملية. أنا لا أقول ذلك بقصد التباهي والإدّعاء، لكن، لا أحد يا ماريتا يعرف شيئاً عن نفسه عندما يكون داخل إطار الموضوع ذاته. نفسك هنا لا تستحقّ التفكير، وقد يكون ذلك مخجلاً في الوقت ذاته».

- «لكنك تعرف بعد ذلك».
- «بالتأكيد، أحياناً».
- «أيمكنني أن أقرأ القصة السرديّة؟».

صبّ ديفيد النبيذ في كأسه ثانية.

- «ماذا قالت لك عنها، وبأي قدر؟».
- «قالت إنها ستحيطني علماً بكل شيء. فهي تحكي الأحداث بطريقة رائعة وأنت تعرف».

قال ديفيد: «أفضّل كثيراً ألاّ تقرأيها. لن تجني منها إلا المتاعب، لم أكن أعرف وأنا أكتبها أنك ستظهرين في حياتي، ولا أستطيع تصوّر أن تحكي هي لك ذلك، ولا ينبغي عليّ أن أدعك تقرأينها أيضاً».

- «إذن لا ينبغي عليّ قراءتها».

Twitter: @ketab_n

- «أودّ منك ذلك. وأنا لا أريد أن أصدر إليك أوامر».

قالت الفتاة: «إذن ينبغي عليّ أن أقول لك».

- «هل سمحت لك بقراءتها؟».

- «نعم. قالت ينبغي عليّ ذلك».

- «لعنة الله عليها!».

- «لم تفعل ذلك بقصد سيّء. كان ذلك عندما كانت متعبة جداً».

- «وهكذا فقد قرأتها كلّها؟».

- «نعم. إنها رائعة. إنها أروع من الكتاب الأخير، والقصص الموجودة فيها أروع من الكتاب، أو من أيّ شيء».

- «ما رأيك في الجزء الخاص بمدريد؟».

تبادلا النظرات، وبلّلت شفتيها، ولم يرفع بصره عنها، فقالت بحرص شديد: «لقد عرفت كل شيء عن ذلك، لأنني على شاكلتك تماماً».

عندما كانا مستلقيين معاً قالت ماريتا: «ألا تفكّر فيها وأنت تمارس الحبّ معي؟».

- «كلا، يا غبيّة!».

- «ألا تريدني أن أفعل ما تفعله؟ لأنني على دراية بكل هذه الأمور، وأستطيع القيام بها».

- «كفّي عن الكلام، واستشعري اللحظة فقط».

- «أستطيع القيام بذلك أفضل منها».

- «كفّي عن الكلام».

- «لا تعتقد أنه ينبغي عليك...».

- «لا تتكلّمي».

- «لكن لا ينبغي عليك...».

- «لا ينبغي لأحد ذلك، خاصّة ونحن...».

كانا راقدين وكلٌّ منهما متشبّث بالآخر، وملتصقٌ به التصاقاً شديداً، ثم التصاقاً رقيقاً، وقالت له ماريتا: «ينبغي عليّ أن أذهب، لكنني سأعود. أرجو أن تنام، من أجلي».

قبّلته، وعندما عادت كان نائماً. كان في نيّته أن يظلّ متيقّظاً في انتظارها، لكنه نام

Twitter: @ketab_n

أثناء ذلك. استلقت بجانبه وقبّلته، وعندما لم يستيقظ رقدت في حضنه بهدوء تامّ وحاولت أن تنام أيضاً، لكنها لم تنعس وقبّلته بحنان شديد مرة أخرى، ثم بدأت تداعبه وهي تدفع بثدييها على صدره. تقلّب في أثناء نومه، وها هي مستلقية في تلك اللحظة ورأسها منخفض تحت صدره، وأخذت تداعب بلطف، ساعية إلى القيام بحميميّات صغيرة واستكشافات.

كانت فترة ما بعد الظهر هذه طويلة وباردة، ونام ديفيد، وعندما استيقظ كانت ماريتا قد انصرفت، وسمع صوت الفتاتين في الشرفة. ارتدى ملابسه، وفتح مزلاج باب حجرة عمله، خارجاً من باب تلك الحجرة سائراً على الممر الحجري. لم يكن هناك أحد سوى الخادم، الذي كان يجمع أدوات شرب الشاي، ووجد الفتاتين في البار.

Twitter: @ketab_n

الفصل الثالث والعشرون

كانت الفتاتان تجلسان على البار وأمامهما زجاجة «بيرييه جويه» في وعاء الثلج، وبدت كلتاهما جميلة وجذابة.

وقالت كاترين: «المسألة تبدو لي مثل لقائي مع زوج سابق. إن ذلك يجعلني أشعر بتكلّف بالغ». لم تَبْدُ أبداً بمثل هذا المرح أو بمثل هذا الجمال البالغ. وأكملت كلامها قائلة: «يجب أن أقول إن الأمر مريح لك». ونظرت إلى ديفيد بنوع من التقدير ينطوي على التهكُّم.

قالت ماريتا: «ألا تَرَيْنَ أنه على ما يرام؟». ونظرت إلى ديفيد واحمرّت خجلاً.

قالت كاترين: «ومن اللطيف أن تحمّري خجلاً. تطلّع إليها، يا ديفيد».
قال ديفيد: «إنها تبدو على ما يرام تماماً. وكذلك أنت».

قالت كاترين: «تبدو في سن السادسة عشرة. قالت إنها أخبرتك عن قراءتها للقصّة السردية».

قال ديفيد: «أعتقد أنه كان من الواجب أن تسأليني».

قالت كاترين: «أعرف أنه كان ينبغي. لكن عندما بدأت قراءتها واكتشفت أنها مسلية اعتقدت أنّ من الضروري أن تقرأها هيرس أيضاً».

ـ «كنتُ قد رفضتُ ذلك».

قالت كاترين: «لكن النقطة الهامة في الأمر، أنه لو حدث وقال لا، بصدد أيّ شيء، يا ماريتا، فهو يصرّ على موقفه. ألا يعني هذا شيئاً؟».

Twitter: @ketab_n

قالت ماريتا: «أنا لا أُصدّق ذلك». وابتسمت لديفيد.

ـ «ذلك لأنه لم يصل في كتابة يومياته حتى تاريخ اليوم. عندما يفعل ستكتشفين ذلك».

قال ديفيد: «لقد انتهيتُ من اليوميات».

قالت كاترين: «تلك قذارة. كانت تلك هديّتي ومشروعنا».

قالت الفتاة: «يجب أن تكتبها، يا ديفيد. ستكتب، أليس كذلك؟».

قالت كاترين: «لأنها تريد أن تكون حاضرة فيها، يا ديفيد. وسيكون الأمر أفضل كثيراً عندما يكون لديك فتغة سمراء أيضاً».

صبّ ديفيد لنفسه كأساً من الشمبانيا. رأى ماريتا تنظر إليه، محذّرة، فقال لكاترين: «سأواصل الكتابة في اليوميات، عندما أنتهي من كتابة القصص. ماذا فعلت في يومك؟».

ـ «قضيت يوماً رائعاً. اتخذت قرارات، وخطّطت للأشياء».

قال ديفيد: «آه يالله!».

قالت كاترين: «كلها خططٌ مستقبليّة. ولا داعي لأن تنزعج منها. لقد كنت تفعل ما تتوق لفعله تماماً طوال اليوم، وكنت أنا سعيدة بذلك، لكن من حقي أن أقوم ببعض الخطط».

سألها ديفيد بصوت فاتر: «أي نوع من الخطط؟».

ـ «أولاً ينبغي علينا أن نبدأ دراسة كيفية نشر الكتاب، سآخذ النسخة الخطّية لتُضرب على الآلة الكاتبة إلى آخر ما وصلت إليه في الكتابة، ونرى كيف ستكون الرسوم المصاحبة. ينبغي عليّ أن أبحث عن الرسامين وأجهّز الترتيبات».

ـ «إذن فقد كان يومك مشحوناً جداً، لكنك تعرفين، بالتأكيد، أنك لن تحصلي على النسخة الخطّية لكي تُضرب على الآلة الكاتبة، إلا إذا انتهى من يكتبها من مراجعتها وجعلها جاهزة للضرب».

ـ «ليس هذا مهماً، لأنني أحتاج فقط إلى نسخة أولية لأعرضها على الرسّامين».

ـ «هكذا. وإذا لم أكن أنجزت كتابتها بعد؟».

ـ «ألا تريد لها أن تُنشر؟ أنا أُريد، ولا بدّ أن يبدأ أحدما في القيام بشيء عمليّ».

Twitter: @ketab_n

- «من هم الرسامون الذين فكرت فيهم اليوم؟».

- «رسامون مختلفون من أماكن مختلفة. ماري لورنسين، ياسين، ديرين، دافي وبيكاسو».

- «ديرين، يا للمسيح!».

- «ألم تلاحظ صورة رائعة لي ولماريتا رسمها لورنسين كانت موجودة في السيارة عندما توقّفنا لأول مرة عند (اللوب) في طريقنا إلى نيس؟».

- «لم يكتب أحد ذلك».

- «حسناً اكتبه أنت، فبالتأكيد سيكون أكثر فائدة وثقافة من تلك المجموعة من المواطنين في (كرآل) أو ما شئت أن تسمّيها، الذين يغطّيهم الذباب والقرف في وسط أفريقيا، وأبوك السكران يترنح ويتشمّم البيرة دون أن يدري أيّ البشاعات تسبّب فيها».

قال ديفيد: «سنبدأ المباراة إذن».

قالت ماريتا: «ماذا قلت، يا ديفيد؟».

قال لها: «قلت أشكرك كثيراً لتناولك الغداء معي».

قالت كاترين: «ولماذا لا تشكرها على الباقي؟ لا بدّ أنها قد قامت بشيء مثير جعلك تنام كالميت حتى وقت متأخر من بعد الظهر. أشكرها من أجل ذلك على الأقل!».

قال ديفيد للفتاة: «أشكرك لذهابك معي للسباحة».

قالت كاترين: «أوه هل ذهبتما للسباحة؟ أنا سعيدة جداً بذلك».

قالت ماريتا: «لقد سبحنا لمسافة طويلة. وتناولنا غداء شهيّاً جداً. هل أكلت جيداً، يا كاترين؟».

قالت كاترين: «أظن ذلك، لا أذكر».

سألتها ماريتا برقة: «أين كنت؟».

قالت كاترين: «في سان رافاييل. أذكر أنني توقّفت هناك. لكنني لا أستطيع تذكر شيء عن الغداء. أنا لا أنتبه أبداً عندما آكل وحدي. لكنني متأكدة تماماً أنني تناولت الغداء هناك، أعرف أنه كانت لديّ النيّة لذلك».

سألتها ماريتا: «هل كانت القيادة لطيفة في طريق عودتك؟ فقد كان الجوّ لطيفاً بعد الظهر».

Twitter: @ketab_n

قالت كاترين: «لا أعرف. لم ألحظ ذلك. كنت أفكّر في الكتاب وكيفية نشره والشروع في ذلك. لا بدّ أن نبدأ فيه، ولا أدري لماذا يغدو ديفيد متصلّباً في اللحظة التي أبدأ فيها تنسيق بعض الأشياء القليلة. لقد تحوّلت المسألة كلّها إلى نوع من الهزل لدرجة أنني فجأة خجلت من أنفسنا جميعاً».

قالت ماريتا: «مسكينة يا كاترين. لكنك وقد خطّطت لكل شيء الآن فلا بدّ أن تشعري بالتحسّن».

قالت كاترين: «أنا كذلك فعلاً. شعرت بمنتهى السعادة عندما عدت. كنت على يقين أنني سأجلبُ لك السرور خاصة وقد أنجزت شيئاً له أهمية أيضاً، فإذا بديفيد يسفّهني ويشعرني بأنني غبيّة أو منبوذة، لا أستطيع أن أفهم إذا كنت عملية ومعقولة».

قال ديفيد: «أعرف، يا ديفيل. كلّ ما أردته فقط ألا يحدث خلط في العمل».

قالت كاترين: «بل أنت الذي تخلط. ألا ترى ذلك؟ تتأرجح إلى الأمام والخلف، محاولاً كتابة القصص، في حين أن المطلوب منك مواصلة الكتابة في القصة السردية التي تعني الكثير جداً بالنسبة لنا. كانت تسير على ما يرام وكنا سنصل إلى أكثر الأجزاء إثارة. لا بد أن يبيّن لك أحد ما بأن كتابة القصص ما هي إلاّ منفذ للهرب من واجبك».

نظرت إليه ماريتا ثانية فعرف أنها تحاول أن تخبره بأشياء أخرى فقال: «ينبغي عليّ أن أذهب لأغتسل. احكي لماريتا عن باقي الموضوع وسوف أعود».

قالت كاترين: «لدينا موضوعات أخرى لنتحدّث عنها. آسفة لأنني كنت وقحة بالنسبة لك يا ماريتا. حقيقة، لم أستطع أن أكون لطيفة معك».

أخذ ديفيد كل ما قيل معه إلى الحمّام فاغتسل وبدّل ملابسه بأخرى نظيفة، قميص خاص بالصيادين وبنطلون، كان الجو لطيفاً حينئذٍ في المساء، وماريتا جالسة على البار تنظر إلى المرآة.

قالت ماريتا: «ذهبتْ لترى حجرتك».

- «كيف حالها؟».

- «كيف يتسنّى لي أن أعرف، يا ديفيد؟ فهي الآن ناشرة عظيمة. اعتزلت الجنس. لم يعد يسعدها كثيراً، تقول إن ذلك أمر طفوليّ في الحقيقة. ولا ترى أنه كان يعني أي شيء بالنسبة لها على الإطلاق. لكن ربما تقرر ممارسته مع امرأة أخرى أذا عادت لذلك ثانية. فهناك متعة كبيرة مع امرأة أخرى».

Twitter: @ketab_n

- «بحق المسيح لم أكن أن أتصور أن الأمور تتجّه إلى ذلك المصير».

قالت ماريتا: لا تنزعج. لا تهتمّ بماذا أو كيف حدث ذلك، أنا أُحبّك وسوف تقوم بالكتابة غداً».

عادت كاترين وقالت: «تبدوان رائعين معاً، وأنا فخورة جداً، أشعر كما لو أنكما من ابتكاري. هل كان جيداً معك اليوم، يا ماريتا؟».

قالت ماريتا: «لقد تناولنا غداءً لطيفاً. أرجو أن تكوني واضحة، يا كاترين».

قالت كاترين: «أوه، أنا أعلم أنه عاشق يحقّق الشبع. هو كذلك دائماً. مثل كؤوس المارتيني التي يُعدّها، أو عندما يسبح أو يتزحلق أو ربما يطير، أنا لم أره أبداً في طائرة. كلهم يقولون إنه كان رائعاً. والمسألة على ما أظن مجرد ألعاب بهلوانية سخيفة، لم تثر اهتمامي قط».

قالت ماريتا: «كنت كريمة جداً لتدعينا نقضي يوماً معاً، يا كاترين».

قالت كاترين: «يمكنكما أن تقضيا بقية حياتكما معاً، إذا لم يملّ أحدكما الآخر. لم تعد بي حاجة ماسّة لكليكما».

كان ديفيد يراقبها في المرآة، وعلى حين بدت هادئة، حلوة، وطبيعية، أمكنه أن يرى ماريتا تتطلع إليها بحزن شديد.

- «يروقني أن أنظر إليكما رغم ذلك وأودّ أن أسمعكما تتكلمان إذا عنّ لكما أن تفتحا فميكُما».

قال ديفيد: «كيف حالك؟».

قالت كاترين: «هذا جهد عظيم منك، أنا في أحسن حال».

سألها ديفيد: «ألديك خطط جديدة؟» وأحس كما لو أنّه يودعها وهي ترحل على متن سفينة.

واصلت كاترين كلامها: «ليس غير ما قلته لك. ومن المحتمل أنها ستجعلني مشغولة للغاية».

- «لماذا كانت كل هذه الضجّة حول امرأة أخرى؟».

أحس بماريتا تلكزه فوضع قدمه على قدمها ليعرفها أنه يقصد ذلك.

قالت كاترين: «لم تكن ضجة. إنما كانت محاولة أخيرة من جانبي لأرى إذا كنت

Twitter: @ketab_n

افتقدت أيّ شيء. فربما أكون قد افتقدت شيئاً».

قال ديفيد: «كلنا عرضة للخطأ».

ولكزته ماريتا مرة ثانية.

قالت كاترين: «أُريد أن أرى. وأنا على دراية كافية الآن بصدد ذلك، لذا فأنا قادرة على أن أتكلّم. لا تقلق على فتاتك السمراء. فهي ليست من الصنف الذي يروقني على الإطلاق. إنها على شاكلتك. وهي من النوع الذي يعجبك، ولطيفة جداً في الحقيقة، لكن ليس بالنسبة لي. فأنا لا أنجذب إلى ذلك الصنف المتصعلك».

قالت ماريتا: «ربما أكون متصعلكة».

- «تلك كلمة مهذّبة جداً لتلك الصفة».

- «لكنّني للعلم أكثر منك أنوثة، يا كاترين».

- «هيا استمرّي وأظهري لديفيد أيّ نوع من المتصعلكات أنت، فقد يعجبه ذلك».

- «هو يعرف أيّ نوع من النساء أنا».

قالت كاترين: «ذلك رائع. أنا سعيدة لأنكما استطعتما أخيراً أن تتكلّما. وأنا أُفضّل النقاش بالفعل».

قالت ماريتا: «أنت في الحقيقة لست امرأة على الإطلاق».

قالت كاترين: «أعرف ذلك. لقد حاولت أن أشرح ذلك لديفيد بما فيه الكفاية. أليس ذلك صحيحاً، يا ديفيد؟».

نظر ديفيد إليها ولم يقل شيئاً.

- «ألم أفعل؟».

قال: «نعم».

قالت كاترين: «لقد حاولت فعلاً أن أشطر نفسي نصفين في مدريد لأكون فتاة، وكانت النتيجة أنني تمزّقت إلى أشلاء. والآن أعيش هذا التمزّق التامّ، أنت فتاة وولد معاً، حقيقة أنت كذلك. ليس هناك داعٍ لأن تتحوّلي، ولن يقتلك هذا فأنا لم أمت. وأنا لا شيء الآن. كلّ ما أردته من أجل ديفيد ومن أجلك حتى تسعدا. وكل ما عدا ذلك كان من اختراعي».

قالت ماريتا: «أعرف ذلك وأُحاول أن أقوله لديفيد».

Twitter: @ketab_n

- «أعلم أنك تفعلين. لكن ينبغي عليك أن لا تكوني مخلصة لي ولا لأيّ شيء. لا تفعلي ذلك. فلا أحد يرغب في ذلك، وربما كنتِ أنتِ غير راغبة حقاً. لكنني أقول لك لا تكوني كذلك. أريدك أن تكوني سعيدة. وأن تجعليه سعيداً. بإمكانك أن تفعلي هذا، أما أنا فلا، أعلم ذلك».

قالت ماريتا: «أنت أحسن فتاة رأيتها».

- «أنا لست كذلك. لقد انتهيت قبل أن أبدأ».

قالت ماريتا: «كلا، بل أنا التي كذلك. لقد كنتُ غبيّة وفظيعة».

- «لم تكوني غبيّة. كل ما قلتِه صحيح. دعينا نكفّ عن الكلام ونصبح صديقتين. هل نستطيع؟».

فسألتها ماريتا: «أنستطيع حقاً؟».

قالت كاترين: «أنا أرغب في ذلك. ولكن على ألاّ نصبح مثل البلطجية القساة. أرجو أن تأخذ وقتك في الكتابة، يا ديفيد. وأنت تعرف أن كل ما أبغيه لك هو أن تكتب بأفضل ما تستطيع، ذلك ما بدأناه معاً. لقد تخطيت الموقف الآن، مهما كان الأمر».

قال ديفيد: «كنت متعبة ليس إلا، ولا أظنّ أنك تناولت أيّ غداء».

قالت كاترين: «ربما فعلاً، لكن من المحتمل أن آكل. ألا يمكننا أن ننسى كل ما حدث ونصبح أصدقاء؟».

فكر ديفيد: وهكذا. أصبحوا أصدقاء، وقد لا تعني شيئاً كلمة «أصدقاء». وحاول ألا يفكر لكنه تكلم واستمع في ذلك الجوّ غير الواقعي الذي أصبح واقعاً. لقد سمع كلا منهما تتحدّث عن الأخرى وعرف ما ينبغي أن تعرفه كلٌّ منهما عما تفكر فيه الأخرى وربما كما قالت كلّ منهما له. على هذا النحو كانت صداقتهم في الواقع، متفاهمين في عدم اتفاقهم أساساً، واثقين في عدم ثقتهم الكاملة ببعضهم، مستمتعين بصحبة كل منهم للآخر، لقد استمتع بصحبتهما أيضاً لكنه الليلة سئم ذلك.

في الغد ينبغي عليه أن يعود إلى عالمه، ذلك العالم الذي كانت كاترين تغار منه، وأحبّته ماريتا واحترمته. لقد كان سعيداً بعالمه في القصة حيث عرف أنه من المفيد أن يبقى هناك. والآن ها هو بعيد عن العالم الذي يهتمّ به، وفي غمار إجازة مزدحمة بالجنون، والآن جاء دور المبالغة العملية. لقد سئم كل ذلك، سئم من تعاون ماريتا مع غريمتها. لم تكن كاترين غريمته، فيما عدا أنها كانت مثله تماماً في السعي وراء مطلب لا يمكن تحقيقه أو العثور عليه، وهو الحب، ومن ثم كانت غريمة له. إنها تحتاج إلى منافس بشكل

Twitter: @ketab_n

ملحّ دائماً، ولا بد أن تحتفظ بشخص إلى جوارها، وكانت هي الأقرب والأسهل للهجوم، وهي تعلم بكوامن الضعف والقوة وكل الأخطاء لدفاعنا. كانت تلوي خاصري بمهارة ثم تكتشف أنه خاصرها، ويظل القتال الأخير مستعراً دائماً، والغبار الذي يتصاعد منه ما هو إلا غبارنا نحن.

كانت كاترين ترغب في لعب الطاولة مع ماريتا بعد العشاء. ودائماً ما كانتا تلعبانها بجدّية، ومقابل نقود، وعندما ذهبت كاترين لتحضرها قالت ماريتا لديفيد: «أرجوك ألاّ تحضر إلى حجرتي الليلة بعد كلّ الذي حدث».

- «عظيم».
- «ألا تفهم؟».
- «دعينا نتخطّى تلك الكلمة». قال ذلك وعاوده إحساسه بالهدوء لاقتراب موعد عمله.
- «هل أنت غاضب؟».

قال ديفيد: «نعم».

- «مني؟».
- «كلا».
- «لا يمكنك أن تغضب من شخص مريض».

قال ديفيد: «أنت ما زلت صغيرة، حتى تعرفي أن الإنسان المريض هو الذي يضجرنا دائماً. امرضي أحياناً وسترين بنفسك».

- «أتمنّى لو لم تكن غاضباً».
- «أتمنّى لو لم أكن رأيت إحداكما على الإطلاق».
- «كلا! أرجوك يا ديفيد».
- «تعلمين أن هذا ليس صحيحاً. كل ما في الأمر أنني أستعدّ للعمل».

ذهب إلى حجرة النوم، وأضاء مصباح القراءة المجاور للسرير وأراح نفسه وشرع يقرأ أحد كتب و. هـ. هدسون. كان اسمه «طبيعة الأراضي المنخفضة»، وقصد أن يقرأه بسبب عنوانه غير الموحي على الإطلاق. كان على وعي تامّ بأن الوقت سيأتي ليحتاج إلى كلّ الكتب الجيّدة التي أدّخرها. استغرق في قراءة الكتاب الذي لم يصبه بالملل. كان سعيداً بالقراءة ليخرج من نطاق حياته ويعيش مع هدسون وأخيه يركبان جواديهما خلال زغب الأعشاب البيضاء التي ترتفع حتى الصدر تحت ضوء القمر، وتدريجياً أخذ صوت نرد

Twitter: @ketab_n

الطاولة وصوت الفتاتين يغدو حقيقة مرة أخرى. وبعد برهة، خرج ليعدّ لنفسه كأساً من الويسكي ليعود به إلى قراءته، بدت له الفتاتان عندما رآهما تلعبان كأنهما بشر حقيقيون، وتتصرّفان بشكل طبيعيّ، وليستا شبحين في رواية غير معقولة استحضرهما على غير رغبة إلى متن الرواية.

عاد إلى الحجرة وقرأ وشرب الويسكي ببطء شديد، وما أن خلع ملابسه وأطفأ النور ونام تقريباً حتى سمع كاترين تدخل إلى الحمام. خيل إليه أنها دخلت الحمّام منذ وقت طويل قبل أن يشعر بها تأتي إلى السرير وهو راقد في سكون يتنفس بانتظام وتمنّى حقيقة أن ينام.

سألته: «هل أنت مستيقظ، يا ديفيد؟».

ـ «أظن ذلك».

قالت: «لا تستيقظ. أشكرك لأنك نمت هنا».

ـ «دائماً ما أفعل».

ـ «من حقّك ألاّ تفعل».

ـ «لكنني أفعل».

ـ «أنا سعيدة لأنك فعلت ذلك. تصبح على خير».

ـ «تصبحين على خير».

ـ «ألك أن تقبّلني قبلة المساء؟».

قال: «بالتأكيد».

قبّلها وشعر بأنها كاترين كما كانت من قبل، مثلما كانت تبدو أحياناً عندما تعود إليه لفترة.

ـ «أنا آسفة لفشلي مرة أخرى».

ـ «دعينا لا نتكلم في هذه الأمور».

ـ «هل تكرهني؟».

ـ «كلا».

ـ «ألا يمكن أن نبدأ من جديد بالطريقة التي خطّطت أنا بها للأمور؟».

ـ «لا أعتقد ذلك».

ـ «إذن لماذا حضرت إلى هنا؟».

ـ «لأن هذا المكان يخصُّني».

ـ «أليس هناك سبب آخر؟».

Twitter: @ketab_n

- «اعتقدت أنك ربما تكونين وحيدة».
- «أنا كذلك بالفعل».
قال ديفيد: «كل إنسان يشعر بالوحدة».
- «من المزعج أن نكون في الفراش معاً ووحيدين».
قال ديفيد: «ليس هناك أيُّ حل. كل خططك وتنظيماتك لا تساوي شيئاً».
- «أنا لم أضعها حيّز التنفيذ».
- «كلّها خطط مجنونة. لقد سئمت هذه الأشياء المجنونة، أنت لست الإنسانة الوحيدة التي تُصاب بالانهيار».
- «أعرف. لكن ألا يمكن أن نحاول ثانية مرة واحدة فقط، وسأكون على ما يرام حقاً؟ بإمكاني ذلك وكنتُ قد أصبحتُ تقريباً كذلك».
- «لقد سئمت الأمر كله، يا ديفل. سئمته تماماً».
- «ألا تحاول مرة أُخرى فقط من أجلها ومن أجلي، ومن أجلنا نحن الاثنين؟».
- «ليس يجدي ذلك شيئاً، خاصّة وقد سئمت الأمر كلّه».
- «قالت إنك تمتّعت بيوم رائع، وأنكما كنتما مبتهجين حقاً، ولم يصبكما اليأس. لماذا لا تحاول مرة أُخرى من أجلنا نحن الاثنين؟ أنا أرغب في ذلك كثيراً».
- «أنت ترغبين كثيراً في الحصول على كل شيء، وعندما تحصلين عليه، ينتهي كل شيء ولا تبالين في الأمر».
- «كنت مسرفة في الثقة ذلك الوقت، وأصبحت لا أُطاق. أرجوك، هل بإمكاننا محاولة ذلك ثانية؟».
- «دعينا ننام، يا ديفيل، ولا نتكلم بصدد ذلك».
قالت كاترين: «قبّلني مرة أُخرى، أرجوك، وسأنام لأنني أعرف أنك ستفعل ذلك. أنت دائماً تفعل أيّ شيء أُريده لأنك في الحقيقة تريد أن تفعله أيضاً».
- «أنت تريدين كل شيء لك فقط، يا ديفل».
- «ليس ذلك صحيحاً، يا ديفيد. وعلى أيّ الأحوال أنا أنت وهي. ذلك هو السبب الذي جعلني أفعلها. أنا كلّ الناس. وأنت تعلم، أليس كذلك؟»
- «هيا للنوم، يا ديفل».
- «سأنام. لكن ألا تسمح وتقبّلني أولاً، حتى لا نكون وحيدين؟».

Twitter: @ketab_n

الفصل الرابع والعشرون

في الصباح، كان فوق سفح الجبل المنحدر مرة أخرى. لم يعد الفيل يرتحل كما كان، لكنه كان يتحرّك عندئذٍ بلا هدف ويأكل أحياناً، وكان ديفيد قد عرف أنهم اقتربوا منه جداً. حاول أن يتذكّر كيف كانت مشاعره. لم تكن قد نشأت بينه وبين الفيل أية محبة بعد. يجب أن يتذكّر ذلك. كان قد انتابه شعور بالأسف فقط نتيجة لإحساسه بالتعب نجم عنه وعي لمسألة السنّ. ورغم كونه صغيراً جداً، فقد تعلّم أنه ينبغي عليه أن يكون في حكمة العجائز. كان يفتقد كيبو ويفكر في قتل جوما لصديق الفيل، الأمر الذي جعله يتحيّز ضد جوما ويحسّ بالأخوة نحو الفيل. عرف عندئذٍ ما يكمن من معنى كبير من رؤية الفيل في ضوء القمر، وتتبّعه له هو وكيبو واقترابه منه جداً لدرجة سمحت له أن يرى كلا النابين الكبيرين، لكنه لم يكن يعلم أنه لا شيء يمكن أبداً أن يكون بمثل هذه الجودة ثانية. والآن أصبح على يقين أنهما لا بدّ أن يقتلا الفيل ولا شيء يستطيع فعله إزاء ذلك. لقد خدع الفيل عندما عاد إلى المزرعة ليخبرهما عن مكانه. من الممكن أن يقتلاني ويقتلا كيبو أيضاً لو كنّا حصلنا على ناب، فكر في ذلك واكتشف أنه غير صحيح. من المحتمل أن الفيل ذهب ليبحث عن المكان الذي ولد فيه والذي سوف يقتلانه فيه. هذا كلّ ما هم في حاجة إليه حتى يصبح الأمر مؤكداً. كانا يودان لو يقتلانه في المكان الذي قتلا فيه صديقه. وتكون تلك نكتة عظيمة، ولا بد أن تسعدهما. هذان الصديقان اللعينان القاتلان.

كانوا قد وصلوا إلى حافة دغل كثيف حينذاك والفيل أمامهم مباشرة. استطاع ديفيد أن يشم رائحته وكذلك استطاع جميعهم أن يسمعوا الضجّة الناجمة عن تكسيره لفروع الأشجار ووقوعها على الأرض. وضع أبوه يده على كتف ديفيد ليدفعه إلى الوراء، ويجعله ينتظر بعيداً ثم أخذ حفنة من الرماد من جراب في جيبه ونثرها في الهواء. اتّجه

Twitter: @ketab_n

الرماد ناحيتهم وهو يتساقط، وهزّ والده رأسه إلى جوما وانحنى ليتبعه داخل الدغل الكثيف. راقب ديفيد ظهريهما وخلفيتّهما، تظهران وتتلاشيان أمام بصره. لم يستطع أن يسمعهما وهما يتحركان.

وقف ديفيد ساكناً وأخذ ينصت إلى الفيل وهو يأكل، واستطاع أن يشم رائحته بشدة مثلما حدث في تلك الليلة المقمرة، عندما وقف قريباً منه ورأى نابيه الرائعين. بعد ذلك وبينما كان واقفاً هناك، والسكون مخيماً، لم يستطع أن يشم رائحة الفيل. ثم دوت صرخة عالية حادة وطلقة من عيار ٣٠٣ ر ـ ثم طلقتين ثقيلتين من بندقية والده عيار ٤٢٥ ر ـ وما أن تلاشى صوت التكسير والتهشيم، حتى اندفع إلى الأمام متجهاً ناحية الأعشاب الكثيفة. فوجد جوما يقف مترنحاً والدماء تنزف من جبهته وتغطي كل وجهه، ووالده شاحب اللون مضطرباً.

قال والده: «اندفع ناحية جوما وأسقطه على الأرض. فأصابه جوما في الرأس».

ـ «وأين أصبته أنت؟».

قال والده: «حيث أمكنني التصويب بإحكام. اتبع آثار الدماء».

كان هناك الكثير من الدم. ومن جرح كان بارتفاع ديفيد انبثق الدم ولوّث جذوع الأشجار والأوراق والأعشاب، وجرح آخر أقلّ ارتفاعاً سال منه دم أسود داكن، رائحته كريهة، ممزوج بمحتويات المعدة.

قال والده: «لقد أُصيب في الرئتين والأمعاء، سنجده ملقى على الأرض أو ثابتاً في مكانه ـ أرجو ذلك».

وجدوه ثابتاً، وفي حالة من المعاناة واليأس، حتى أنه لم يعد يستطيع التحرك. كان قد اصطدم بالدغل الكثيف الذي يأكل منه، واندفع عبر ممرّ إلى الغابة المفتوحة، على حين كان ديفيد ووالده يجرون خلفه متتبّعين آثار الدماء على الأرض. ولما وصل الفيل إلى الغابة الكثيفة استطاع ديفيد أن يراه أمامه مباشرة يقف بلونه الرمادي وحجمه الضخم مستنداً إلى جذع شجرة. استطاع ديفيد أن يرى جذعه فقط، وتحرك أبوه ناحيته مباشرة وتبعه هو ومرّا بمحاذاة الفيل، وكأنهما يمرّان بجوار سفينة ضخمة، ورأى ديفيد الدماء تندفع من جانبيه وتنسال على جسده فرفع والده بندقيته، وأطلقها عليه فأدار الفيل رأسه ذا الأنياب العظيمة بثقل وببطء ونظر إليهما، وعندما أطلق عليه والده دفعة ثانية من البندقية ترنّح الفيل مثل شجرة تهوي، وسقط على الأرض أمامهما. لكنه لم يكن ميتاً. كان بين الحياة والموت، ملقى على الأرض في تلك اللحظة، وكتفه مكسورة. لم يكن يتحرك،

Twitter: @ketab_n

لكن عينيه كانتا ما زال فيهما حياة، ونظر إلى ديفيد. كانت أهداب عينيه طويلة، وتفيض عيناه بنوع من الحياة لم يره ديفيد من قبل أبداً.

قال والده: «أطلق الرصاص على فتحة الأذن بعيار ثلاثة صفر ثلاثة، هيا».

قال ديفيد: «أطلق أنت عليه».

أقبل جوما وهو يعرج وتسيل منه الدماء، وجلد جبهته يتدلّى فوق عينه اليسرى، وعظام أنفه ظاهرة، وإحدى أُذنيه ممزقة، فأخذ البندقية من ديفيد دون كلام ودفع بفوهة البندقية داخل فتحة الأذن تقريباً، وأطلق النار مرتين بعد أن شدّ ترباس البندقيّة إلى الخلف والأمام بغضب. اتسعت عين الفيل بشكل كبير بعد الطلقة الأولى ثم بدت محملقة، واندفع الدم من الأذن يجري في مجريين لامعين على جلده الرمادي المكرمش. كان لون الدم مختلفاً، وفكر ديفيد أنه ينبغي عليه أن يتذكر ذلك، وتذكّره بالفعل، لكن ذلك لم يكن ذا نفع بالنسبة له. وفي تلك اللحظة تخلت عن الفيل كلّ العظمة والهيبة وكل تلك الروعة، ولم يبق منه سوى كومة ضخمة مكرمشة.

قال والده: «لقد تمكّنا منه، يا ديفي، شكراً لك. والآن من الأفضل أن نشعل ناراً حتى يمكنني أن أداوي جرح جوما. تعال هنا أيّها المغفّل، سوف تعوضك هذه الأنياب كثيراً».

أقبل جوما عليه بشبه ابتسامة ومعه ذيل الفيل الذي لا يوجد به أيّ شعر على الإطلاق. تبادلا نكات قذرة وبعدها بدأ والدي يتكلم بسرعة باللغة السواحلية: كم نبعد عن الماء؟ كم يلزم من الوقت للذهاب لإحضار أُناس لنزع هذه الأنياب ونقلها من هنا؟ كيف حالك، أيها الخنزير العجوز الذي لا يساوي شيئاً؟ ما الذي كسرك؟

ومع الإجابات المعهودة قال والده: «سنذهب أنا وأنت لإحضار الحقائب حيث تركناها عندما انطلقنا خلف الفيل. على حين يقوم جوما بجمع الخشب وإشعال النار. الإسعافات الطبية في حقيبتي. ينبغي أن تحضر الحقائب قبل حلول الظلام. لن يتلوث الجرح. فهو ليس كجروح المخالب. هيّا بنا».

كان والده قد شعر بما أحسه ديفيد تجاه الفيل، وفي تلك الليلة والأيام الطويلة التالية حاول أن يستعيد فيه نفس الصبيّ الذي كان قبل أن يكتشف أنه كره صيد الأفيال. لم يضع ديفيد في القصة أي تقرير عن نوايا والده، التي لم تتضح أبداً، في القصّة، لكنه استخدم فقط الأحداث، الاشمئزاز، الوقائع، ومشاعر الجزّارين، واستخراج الأنياب، والجراحة الخشنة لجوما المغلفة بالازدراء، والمزاح الساخر للتغلّب على الألم والتخلص من شبحه

Twitter: @ketab_n

حيث لم يكن يوجد مخدّر، والمسؤولية الإضافية التي أُلقيت على عاتق ديفيد والثقة التي أولوه إياها ورَفَضَها، وضعها في القصة دون أن يشير إلى مغزاها. حاول أن يجعل الفيل يحيا عندما استقرّ بجوار الشجرة في معاناته الأخيرة غارقاً في الدم الذي كان قد فاض لعدة مرات من قبل، لكنه كان دائماً ما يتوقّف، وفي تلك اللحظة تعاظم لديه هذا الإحساس حتى أنه لم يستطع أن يتنفّس، القلب الكبير يدفع بالدم ليغرقه، بينما كان يراقب الرجل الذي جاء ليجهز عليه. كان ديفيد فخوراً للغاية بالفيل الذي اشتمّ رائحة جوما وطارده في الحال. كان يتمنّى لو أن الفيل قتل جوما، لو أن والده لم يطلق النار عليه، وهكذا فقد دفع بجوما بين الأشجار بخرطومه، وأخذ يهاجمه وهو يقاوم الموت، ويشعر بأن ذلك ما هو إلا مجرد جرح ولن يلبث أن يجفّ، وما لبث أن لفظ أنفاسه الأخيرة بسبب ذلك. في ذلك المساء وبينما كان ديفيد يجلس بجوار النار وينظر إلى جوما بوجهه المشوّه وضلوعه المحطّمة التي عوّقت حركة تنفسه، تساءل عما إذا كان الفيل قد عرفه عندما حاول أن يقتله. تمنى لو أن الفيل فعل ذلك. أصبح الفيل مثله الأعلى حينذاك، كما كان والده بالنسبة له لفترة طويلة وكما كان يعتقد. أنا لا أعتقد أنه كان باستطاعته فعل ذلك لأنه كان عجوزاً جداً ومتعباً. كان من الممكن أن يقتل جوما أيضاً. لكنه لم ينظر إلي كما لو أنه يريد قتلي. لكن نظرته كانت حزينة بنفس الطريقة التي أحسستها. لقد زار صديقه العزيز في اليوم نفسه الذي مات فيه.

كان على علم بأنها مجرد قصة صبيّ صغير. عندما انتهى من كتابتها، أعاد قراءتها واكتشف الثغرات التي ينبغي عليه أن يكملها، ليشعر من يقرأها أنها حدثت حقاً، كما وقعت، ووضع علامات أمام هذه الثغرات على الهامش.

تذكر كيف أن الفيل فقد كل كيانه بمجرد أن كفّت عينه عن الحياة، وكيف بدأ جسد الفيل ينتفخ عندما عاد هو ووالده بالحقائب، رغم برودة الجو في المساء. لم يعد هناك فيل بالمعنى الحقيقي، مجرد جسد ضخم ميت رمادي مكرمش منتفخ، ونابين صفراوين مرقشين باللون البني، قتل بسببهما. كان النابان ملطخين بالدماء الجافة. وكشط بظفره جزءاً منه يُماثل قطعة من الشمع ووضعها في جيب قميصه. كان ذلك كل ما ناله من الفيل فيما عدا بداية معرفته لمعنى الوحدة.

بعد المجزرة حاول والده أن يتحدث إليه بجوار النار.

قال له: «لقد كان قاتلاً كما تعلم، يا ديفي. وجوما يقول ليس هناك أحد يعلم عدد الناس الذين قتلهم».

- «وهل كان الجميع يحاولون قتله؟».

Twitter: @ketab_n

قال والده: «بالطبع، خاصة وله مثل هذين النابين».

- «كيف تسنى له أن يكون قاتلاً إذن؟».

قال والده: «بالطريقة التي تعجبك تماماً. أنا آسف لأنك مضطرب جداً من أجله».

قال ديفيد: «كنت أتمنى أن يقتل جوما».

فقال والده: «أعتقد أن ذلك شيء مبالغ فيه، فجوما صديقك كما تعلم».

- «لم يعد صديقي بعد».

- «لا داعي لأن تقول له ذلك».

قال ديفيد: «هو يعلم ذلك».

- «أعتقد أنك تسيء الحكم عليه». قال ذلك وغادرا المكان.

أخيراً بعد أن عادوا بالنابين في سلام، وبعد كل الأحداث التي وقعت، أسند النابان إلى حائط بيت مبنيّ من الطين والبوص ولامست أطرافهما السقف، لأنهما كانا في غاية الطول وسميكين، لدرجة لا يصدقها أحد إلا إذا لمسهما، ولم يستطع أحد أن يصل إلى ارتفاعهما ويلمس الطرف المحني إلا والده، ولهذا السبب اعتبر جوما ووالده، وهو بمثابة الأبطال، وكذلك كلبه كيبو اعتبر كلب الأبطال، وكذلك الرجال الذين حملوا الأنياب اعتبروا أبطالاً، قال والده وهو منتشٍ قليلاً:

- «ألا تريد أن تحقّق السلام يا ديفيد؟».

- «لا مانع». قال ذلك لأنه عرف أن هذا كان بداية عدم البوح أبداً بما كان قد قرّره.

قال والده: «أنا سعيد جداً، فهذا أفضل كثيراً وأسهل».

بعد ذلك جلسوا على مقاعد قديمة في ظل شجرة تين كبيرة، والأنياب مستندة إلى حائط الكوخ، وشربوا الجعة الوطنية في أكواب من الفخار، كانت تقدمها فتاة صغيرة وأخوها الصغير، ولا يسبيان أي نوع من الإزعاج، فيما عدا أنهما خدم الأبطال، يجلسان على الأرض بجوار الكلب البطولي، لبطل يشد نفسه مزهواً كالديك، زهواً يرقى لمستوى زهو الأبطال. جلسوا يشربون الجعة على حين بدأت الطبول الكبيرة تقرع وبدأت الطبلة الكبيرة (نجوما) تنظم الإيقاع.

خرج من حجرة عمله، وكان سعيداً وجائعاً ومزهواً، في حين كانت ماريتا في انتظاره بالشرفة، جالسة في الشمس الساطعة للصباح الباكر ليوم يعرف أنه يوم غير مضطرب. كان صباحاً جميلاً، هادئاً وبارداً. والبحر هناك في أسفل، هادىء ساكن، وعبر الخليج كان

Twitter: @ketab_n

هناك المنحنى الأبيض لـ «كان» والجبال الداكنة في الخلفية.

قال للفتاة السمراء عندما نهضت: «أنا أُحبّك كثيراً». وأحاطها بذراعيه وقبّلها. وقالت له: «انتهيت من القصة».

قال: «بالتأكيد، ولم لا؟».
قالت: «أنا أُحبك وأنا فخورة للغاية».

تمشيا معاً وتطلعا إلى البحر وذراع كل منهما حول خصر الآخر.
ـ «كيف حالك يا فتاة؟».

قالت ماريتا: «أنا على ما يرام وسعيدة جداً. هل كنت تعني حقاً أنك تحبّني، أم كان ذلك بمناسبة الصباح؟».

قال ديفيد وهو يقبّلها: «كان ذلك بمناسبة الصباح».
ـ «أأستطيع قراءة القصة؟».
ـ «يا لروعة هذا اليوم أيضاً!».

ـ «ألا أستطيع قراءتها حتى أشاركك شعورك ولا تكون سعادتي لمجرد أنك سعيد فقط، كما لو كنت كلبك؟».

أعطاها المفاتيح، وعندما أحضرت الكراسة، وقرأت القصة في البار، قرأها ديفيد وهو جالس إلى جوارها. كان يعلم أن ذلك سلوك مرذول وأحمق. لم يفعله من قبل مع أحد، بل كان ضد كل ما اعتقده بصدد الكتابة، لكنه لم يفكر في ذلك إلا في اللحظة التي وضع ذراعه حول الفتاة وأخذ ينظر إلى الكتابة على الورقة المسطرة. لم يستطع مقاومة رغبته في قراءتها معها، لم يستطع مقاومة رغبته في مشاركتها الشيء الذي لم يشارك فيه أحداً أبداً، والذي يعتقد أنه لا يمكن أن يُشارك.

عندما انتهت ماريتا من القراءة أحاطته بذراعيها وقبلته بشدة حتى أسالت الدم من شفتيه. تطلّع إليها وتذوّق طعم دمه وهو شارد الذهن وابتسم.

قالت: «آسفة يا ديفيد، أرجو أن تسامحني. فأنا في غاية السعادة ومزهوة أكثر منك».

قال: «هل أعجبتك؟ هل استطعت أن تشمّي رائحة المزرعة، والرائحة النظيفة للمكان في الداخل، ووصلك الإحساس برقّة المقاعد الرجالية القديمة، حقيقة كان الكوخ نظيفاً من الداخل، والأرض مكنوسة».

Twitter: @ketab_n

- «هو كذلك بالطبع، فعلت ذلك في القصة الأخرى، بل إنني أستطيع رؤية رأس كيبو مرفوعاً بزاوية في زهو، ذلك الكلب الأسطوري. وأنت كنت بطلاً رائعاً أيضاً. هل لطخ الدم جيبك؟».

- «نعم. وزال مع العرق».

قالت ماريتا: «دعنا نذهب إلى المدينة لنحتفل بهذا اليوم. فهناك الكثير الذي يمكن أن نقوم به اليوم».

وقف ديفيد عند البار وصبّ لنفسه كأساً من الهيج وأضاف الصودا الباردة إلى الكأس، وأخذها معه إلى الحجرة، حيث شرب نصفها وأخذ حماماً بارداً. ثم ارتدى بنطلوناً وقميصاً، وانتعل حذاء ليذهب إلى المدينة. شعر بأن القصة جيّدة، وأحس ناحية ماريتا بشعور أفضل. ولم يعد مؤرّقاً من المبدأ الأخلاقي الحادّ الذي انتابه في ذلك الحين، وانتابه نوع من الصفاء دون أيّ حزن.

إن كاترين تفعل ما يحلو لها أن تفعله، ولها أن تفعل ما تريد أن تفعل. تطلّع إلى بعيد واستشعر السعادة القديمة المفتقدة. إنه يوم يصلح للطيران حقاً. تمنّى لو يكون هناك مطار، يستطيع استئجار طائرة منه، ويأخذ ماريتا إلى أعلى، ويريها ما يمكن أن يفعله في يوم مثل هذا. من الممكن أن يكون شيئاً ظريفاً. من الممكن أن نتزحلق على الجليد. كان من الممكن ذلك منذ شهرين مضيا. يا للمسيح! من الممتع أن تنتهي من القصة اليوم، وتجدها تنتظرك هناك. ماريتا موجودة هناك بدون غيرة مدمرة من العمل، ولندعها تعرف ما تحاول الوصول إليه، وإلى أي مدى حققت ذلك. إنها تعلم في الحقيقة وليس مجرد إدّعاء. أنا أحبها فعلاً، وأنت لاحظت ذلك، أيها الويسكي، وأنت شاهدي، أيتها الصودا، ولقد كنت مخلصاً لك، أيها الشراب في عادات الحب وممارسته. فكل شيء يكون على ما يرام، إذا كان الشراب على ما يرام. إحساس أحمق وغبيّ ذلك الذي ينتابني، لكنه يتوافق مع ذلك اليوم لذا فاستمرّ فيه.

قال لماريتا عند باب حجرتها: «هيّا، يا فتاة. ما الذي يحمل جسدك الرائع هذا، بالإضافة إلى ساقيك الجميلتين؟».

قالت: «أنا جاهزة، يا ديفيد».

كانت ترتدي قميصاً ضيقاً وبنطلوناً. ووجهها مشرق. ومشطت شعرها الأسود ونظرت إليه.

Twitter: @ketab_n

ـ «عندما تكون مرحاً، يبدو كل شيء رائعاً».

قال: «يوم رائع بالفعل، ونحن محظوظان جداً».

قالت بينما كانا يتجهان نحو السيارة: «أتعتقد ذلك؟ هل تعتقد حقيقة أننا محظوظان؟».

قال: «نعم. أعتقد أن الأمر قد تغيّر هذا الصباح أو ربما أثناء الليل».

Twitter: @ketab_n

الجزء الرابع

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الفصل الخامس والعشرون

كانت سيارة كاترين في موقف الانتظار بالفندق، تقف على الجانب الأيمن للممرّ المبلّط بالحصى عندما عادا بالسيارة الازوتا، فأوقفها ديفيد خلفها، ونزلت ماريتا مارّة بجوار السيارة الصغيرة الزرقاء المنخفضة ثم فوق الممر المبلط بالحصى دون أن تتكلم.

مرّا بحجرة ديفيد المغلقة الباب المفتوحة النوافذ، ثم وقفت ماريتا عند باب حجرتها قائلة: «إلى اللقاء».

سألها: «ماذا ستفعلين بعد الظهر؟».

قالت: «لا أدري. سأكون هنا».

سار حتى بلغ الممرّ المؤدّي إلى الفندق ودخل من الباب الرئيسي. كانت كاترين جالسة على البار تقرأ صحيفة «الهيرالد الباريسية» وأمامها كأس ونصف زجاجة نبيذ على البار. رفعت بصرها إليه.

سألته: «لماذا عدتما؟».

قال ديفيد: «لقد تناولنا الغداء في المدينة وعدنا».

- «وكيف حال عاهرتك؟».

- «ليس لديّ عاهرة بعد».

- «أعني تلك التي تكتب القصص من أجلها».

- «آه. القصص».

- «نعم. القصص التافهة الكئيبة المقبضة للصدر عن فترة مراهقتك مع والدك السكران الزائف».

Twitter: @ketab_n

- «لم يكن زائفاً في الحقيقة».
- «ألم يسلب مال زوجته وجميع أصدقائه؟».
- «لا. لم يسلب سوى ماله حقيقة».
- «أنت بالتأكيد تجعل منه شيئاً جديراً بالازدراء في هذه المخطوطات الأخيرة أو تلك الصور الكتابية التافهة أو النوادر التافهة التي تكتبها عنه».
- «تعنين القصص».

قالت كاترين: «وتسمّيها قصصاً».

- «نعم».

قال ديفيد ذلك وصبّ لنفسه كأساً باردة من النبيذ البارد المنعش في ذلك اليوم السعيد المبهج، في الحجرة الساطعة بالشمس في ذلك الفندق النظيف المريح، وما أن ارتشف النبيذ حتى شعر بأنه يعجز عن إعادة الحياة إلى قلبه الميّت البارد.

قالت كاترين: «أترغب أن أذهب وأحضر هيرس؟ فليس هناك داعٍ لأن تجعلها تظن بأنه قد حدث سوء تفاهم بيننا بصدد يوم مَنْ هذا، أو أننا قررنا تناول الشراب المنعزل معاً».

- «لست بحاجة إلى أن تحضريها».
- «لكنني أرغب في ذلك. لقد قامت برعايتك اليوم. والحقّ، يا ديفيد، أنّي لم أصبح عاهرة بعد. أنا أتكلّم وأتصرف كعاهرة فقط».

بينما كان ديفيد ينتظر عودة كاترين تناول كأساً أخرى من الشمبانيا وقرأ الطبعة الباريسية من صحيفة النيويورك هيرالد التي تركتها على البار. ولما لم يكن لشرب النبيذ وحده المذاق نفسه، فقد بحث عن السدادة في المطبخ ليضعها فوق الزجاجة قبل أن يعيدها إلى الثلاجة. لكنه حين لم يحسّ بثقل الزجاجة عرضها للضوء الآتي من النافذة القريبة فوجد بها كمية قليلة من النبيذ فصبّها في كأس وشربها ووضع الزجاجة على الأرض. ورغم أنه شرب النبيذ دفعة واحدة وبسرعة فإنه لم يحدث له أيُّ شيء.

حمد الله على أنه انتهى من القصص الآن. إن السبب في نجاح روايته الأخيرة هو شخصياتها، ودقة التفاصيل التي جعلتها قابلة للتصديق، كان عليه، حقاً، أن يتذكّر التفاصيل فقط، أما الشكل فقد أتى من خلال ما اختار أن يتلافاه. بعد ذلك، بالطبع، كان باستطاعته أن يقترب بها من وجهة النظر التي يريدها مثل حاجز الكاميرا، ثم يدعمها حتى

Twitter: @ketab_n

تصبح مكثفة لتنبعث منها الحرارة ويبدأ الدخان في التصاعد. كان على علم بأنه استطاع أن يصل إلى هذا المستوى الآن.

إن ما قالته كاترين عن القصص عندما كانت تحاول إهانته جعله يعاود التفكير في والده وفي كل الأشياء التي حاول فعلها، بأقصى ما يستطيع حيالها. قال لنفسه: والآن، يجب أن تكون أكثر نضجاً وتواجه ما ينبغي عليك أن تواجهه، دون أن تكون سريع الغضب أو تهين أحداً لم يفهم أو يتقبل ما كتبته. إنها تفهمه بمستوى أقل وأقل. لكنك كتبت جيداً ولا شيء يستطيع أن يقلل من شأنك ما دمت قادراً على العمل، حاول أن تساعدها الآن، ولتنس ما أصابك. غداً ستنتهي من مراجعة القصة وتجعلها مضبوطة تماماً.

لكن ديفيد لم يكن يريد أن يفكر في القصة. لقد اهتم بالكتابة أكثر من أيّ شيء آخر، واهتم بأشياء كثيرة، لكنه كان يعلم أنه عندما كان يكتبها لم يكن ينبغي عليه أن يقلق بشأنها ولا أن يقوم بالتعديل فيها أو تناولها من جديد. كلّ ما عليه لم يكن أكثر من أن يفتح باب الحجرة المظلمة ويرى كيف تظهر الصور على الفيلم السالب. قال لنفسه: اتركها وشأنها. أنت غبيّ أحمق، ولكنك تعرف ذلك جيّدا.

ارتدّت أفكاره إلى الفتاتين وتساءل عما إذا كان ينبغي أن يذهب يبحث عنهما ويرى ماذا يريدان أن تفعلا، أو عما إذا كانتا ترغبان في الخروج للسباحة. على أيّ الأحوال، فهذا هو اليوم المخصّص له ولماريتا، وربما تكون في انتظاره. من المحتمل أنه ما زال هناك شيء يمكن إنقاذه في ذلك اليوم بالنسبة لهم جميعاً. ربما تدبّران شيئاً، ينبغي أن يذهب ليسألهما عما تريدان أن تفعلاه. قال لنفسه: هيا إذن، لا تقف هنا تفكّر في ذلك، هيا اذهب وابحث عنهما.

كان الباب الموصل إلى حجرة ماريتا مغلقاً فطرقه.

كانتا تتحدّثان، وعندما طرق الباب توقّف الكلام.

قالت ماريتا: «من الطارق؟».

سمع كاترين تضحك وقالت: «ادخل أيّاً كنت».

سمع ماريتا تقول لها شيئاً فقالت كاترين: «ادخل، يا ديفيد».

فتح الباب. كانتا مُستلقيتين متجاورتين على السرير الكبير، والملاءة تغطيهما حتى ذقنيهما.

قالت كاترين: «أرجو أن تدخل، يا ديفيد، لقد كنا في انتظارك».

نظر ديفيد إليها، إلى الفتاة السمراء الجادّة، والأخرى الشقراء الضاحكة. نظرت

Twitter: @ketab_n

ماريتا إليه محاولة أن تقول له شيئاً، في حين كانت كاترين تضحك.

ـ «ألا تريد أن تنضمّ إلينا أيضاً، يا ديفيد؟».

قال ديفيد: «جئت لأسألكما عما إذا كنتما ترغبان في السباحة أو أي شيء آخر؟».

قالت كاترين: «أنا لا أُريد. كانت هيرس مستلقية على السرير نائمة فدلفت إلى السرير معها. كانت أمينة جداً، وطلبت مني أن أتركها. لا تعتقد أنها غير مخلصة لك. ولا حتى بأقل القليل. لكن ألا ترغب في الانضمام إلينا، وبذلك يمكننا أن نصبح مخلصتين لك؟».

قال ديفيد: «كلا».

قالت كاترين: «أرجوك يا ديفيد، إنه ليوم رائع جداً».

سأل ديفيد ماريتا: «أتريدين الذهاب للسباحة؟».

قالت الفتاة من تحت الملاءة: «أودّ ذلك».

قالت كاترين: «يا لكما من متزمتين؟ فلتكونا معقولين، وتعال إلى الفراش يا ديفيد».

قالت ماريتا: «أُريد الذهاب إلى السباحة. أرجوك أن تخرج، يا ديفيد».

سألتها كاترين: «ولماذا لا يراك؟ لقد رآك على الشاطىء».

قالت ماريتا: «سوف يراني عند الخليج، أرجوك أن تخرج يا ديفيد».

خرج ديفيد وأغلق الباب دون أن ينظر إلى الخلف، وسمع ماريتا تتحدّث بصوت منخفض إلى كاترين، وسمع ضحكات كاترين. سار على الممر المبلط بالحصى حتى بلغ الجزء الأمامي من الفندق وأخذ يتطلّع إلى البحر. كانت هناك بعض النسمات الخفيفة في تلك اللحظة، وأخذ يراقب ثلاث مدمرات فرنسية وزورقاً حربياً، شكلها أنيق ولونها داكن، وكأنها محفورة على سطح المياه الزرقاء، وهي تتحرّك في تشكيلات في مهمة ما. كانت بعيدة جداً فبدت كأنها صور ظلّيّة متميزة من خلال حجمها، إلى أن ظهر قوس أبيض عندما ضاعفت سفينة من سرعتها لتغيّر التشكيل، كان ديفيد يراقب السفن حتى وصلت الفتاتان إليه.

قالت كاترين: «أرجو ألاّ تتضايق».

كانتا ترتديان ملابس مناسبة للذهاب إلى البحر، وكانت كاترين تحمل حقيبة بها المناشف، وكرسياً حديدياً صغيراً فوقه أثواب الشاطىء.

Twitter: @ketab_n

قال لها ديفيد: «هل أنت ذاهبة للسباحة أيضاً؟».

- «إذا لم تكن غاضباً مني».

لم يقل ديفيد شيئاً وأخذ يراقب السفن وهي تغير تشكيلاتها، حيث خرجت مدمرة من التشكيل بزاوية حادة مخلفة وراءها خطاً أبيض من المياه المتموجة نتيجة لحركتها المقوّسة. بدأت تطلق ساتراً من الدخان وأخذت تقتفي أثر شيء في حركة دائرية متسعة بينما كانت تخفّف من سرعتها.

قالت كاترين: «لقد كانت مجرّد نكتة. فقد كنا نتبادل نكاتٍ جارحة. أنت وأنا فعلنا ذلك».

سألت ماريتا: «ماذا تفعل هذه السفن، يا ديفيد؟».

قال: «مناورات بحرية ضد الغواصات، على ما أعتقد. ربما تكون هناك غواصات تشاركها. من المحتمل أنها أتت من طولون».

قالت كاترين: «كانت في سانت مكسيم أو سان رافاييل، لقد رأيتها بالأمس».

قال ديفيد: «لا أدري السبب في هذه السحابة من الدخان، ربما تكون هناك سفن أخرى لا نستطيع رؤيتها».

قالت ماريتا: «ها قد وصلت الطائرات. أليست رائعة؟».

كانت طائرات بحرية صغيرة جداً وأنيقة، واقتربت ثلاث منها حول الهدف بالقرب من سطح المياه.

قالت كاترين: «عندما كنّا هنا في بداية الصيف قاموا بمناورة بحرية بالذخيرة الحيّة بالقرب من «البروكرول». وكانت مرعبة. كانت النوافذ تهتزّ. هل سيستعملون قنابل الأعماق الآن، يا ديفيد؟».

- «لا أدري. ولا أعتقد ذلك إذا كانوا يتعاونون مع غواصات؟».

سألت كاترين: «أستطيع الذهاب للسباحة، أليس كذلك يا ديفيد؟ سأكون بعيدة، ويكون بإمكانكما السباحة طوال الوقت وحدكما».

قال ديفيد: «لقد طلبت منك ذلك».

قالت كاترين: «هذا صحيح. قلت ذلك. إذن دعونا الآن نكون أصدقاء وسعداء. إذا اقتربت الطائرات فسيكون بإمكان الطيارين أن يرونا عند الخليج، وسيسعدهم ذلك».

Twitter: @ketab_n

بينما كان ديفيد وماريتا يسبحان بعيداً، وكاترين تعرض جسمها للشمس على الشاطىء لم تقترب الطائرات من الشاطىء. مرت الطائرات بسرعة يتردّد صداها ثلاثاً، ومحرّكاتها «الرون» تزأر فجأة أثناء تحليقها فوقهم، ثم أخذت تتلاشى عندما اتجهت ناحية سانت مكسيم.

عاد ديفيد وماريتا من سباحتهما إلى الشاطىء وجلسا على الرمال بجوار كاترين.

قالت كاترين: «إنهم لم يتطلّعوا إليّ أبداً. لا بد أنهم أولاد جادّون»

قال ديفيد: «وما الذي كنت تتوقّعينه؟ طيران للتصوير؟».

لم تتكلم ماريتا كثيراً منذ أن غادروا الفندق ولم تعلق على هذا.

قالت لها كاترين: «كانت الأمور لطيفة عندما كان ديفيد يعيش معي حقيقة. أستطيع أن أتذكر عندما كنت أُحبّ كل شيء يفعله ديفيد. لا بدّ أن تحاولي حبّ هذه الأشياء أيضاً، يا هيرس. هذا إذا لم يهجرك».

سألت ماريتا: «هل تنوي أن تهجرني. يا ديفيد؟».

قالت كاترين: «لقد جرّب كل شيء كتبه في قصصه تلك. تعوّد أن تكون لديه خبرات عديدة. أنا بالتأكيد أتمنى أن تعجبي بقصصه، يا هيرس».

قالت ماريتا: «إنها تعجبني».

لم تنظر إلى ديفيد، ولكنه رأى وجهها الهادىء الأسمر وشعرها المبتل بمياه البحر وبشرتها الناعمة الحلوة وجسدها الجميل بينما كانت جالسة تتطلّع إلى البحر.

- «ذلك عظيم» قالت كاترين ذلك بتكاسل وأخذت تنهيدة عميقة متكاسلة، بينما كانت تتمدّد على ثوب من أثواب الشاطىء فوق الرمل الذي كان ما زال ساخناً من أثر شمس بعد الظهر. وأردفت قائلة: «لأن ذلك هو ما سوف تحصلين عليه. لقد تعوّد أن يفعل أشياء كثيرة جداً ويفعلها كلها بمنتهى الجمال. لقد عاش حياة رائعة، وكل ما يفكر فيه الآن هو أفريقيا ووالده السكران ومقتطفاته الصحفية، قصاصاته. ألم يُطلعك قط على قصاصاته، يا هيرس؟».

قالت ماريتا: «لا يا كاترين».

قالت: «سيطلعك عليها. حاول أن يطلعني عليها مرة في (لجرودي روا) لكنني وضعت حداً لذلك. هناك المئات منها، وكل إنسان، غالباً، لديه صورة، وكانت كلها

Twitter: @ketab_n

الصور نفسها، إنها حقيقة أسوأ من حمل كارت بوستال داعر ندور به. أعتقد أنه يقرأها لنفسه، ويخدعني بذلك، أعتقد أن مكانها ربما يكون في سلّة مهملات. دائماً ما لديه سلة مهملات. لقد قال هو نفسه إنه من المهمّ جداً بالنسبة للكاتب أن تكون لديه. . . ».

قالت ماريتا: «دعينا نذهب ونسبح. أعتقد أنني أبرد».

قالت كاترين: «أعني أن سلة المهملات شيء مهمّ جداً بالنسبة للكاتب. دائماً ما فكرت في أن أجعل منه إنساناً رائعاً حقاً، أكون جديرة به. لكنه لا يضع أبداً أي شيء يكتبه في سلة المهملات. إنه يكتب في تلك الكراسات السخيفة للأطفال ولا يرمي أيّ شيء. فقد يشطب بعض الأشياء ويكتب على جوانب الصفحات. المسألة كلها دجل في الحقيقة. إنه يخطىء في الهجاء وقواعد اللغة أيضاً. أتعرفين، يا ماريتا، إنه لا يعرف حتى قواعد اللغة؟».

قالت ماريتا: «مسكين يا ديفيد».

قالت كاترين: «وبطبيعة الحال فلغته الفرنسية أسوأ. لا ترينه أبداً يحاول الكتابة بها. إنه يلفق الكلمات خلال الحديث، وهو سعيد بلغته العامية. لكنّه في الحقيقة جاهل».

قال ديفيد: «يا للأسف!»

قالت كاترين: «كنت أعتقد أنه إنسان رائع. حتى اكتشفت أنه لا يستطيع أن يكتب ملحوظة بسيطة بلغة صحيحة، لكنني أعتقد أنك ستكونين قادرة على الكتابة له بالفرنسية».

قال ديفيد بابتهاج: «اخرسي».

قالت كاترين: «إنه لا يجيد إلا تلك النوعيّات من الكلمات فقط. نتف مبتذلة من العامية المهجورة قبل أن يعرفها. يتكلّم بعبارات فرنسيّة، لكنه لا يستطيع أن يكتبها على الإطلاق. ماريتا، إنه جاهل حقاً، وعليك أن تواجهي ذلك. وخطّ يده مزعج للغاية، لا يستطيع أن يكتب مثل إنسان مهذّب أو يتكلم مثله بأيّة لغة. وخاصة لغته».

قالت ماريتا: «مسكين يا ديفيد!».

قالت كاترين: «لا أستطيع أن أقول إنني قد وهبته أحسن سنوات عمري، لأنني عشت معه فقط منذ مارس، على ما أعتقد، لكنني بالتأكيد وهبته أجمل شهور حياتي، تلك الشهور التي نلت فيها أغلى المتعة، وبالتأكيد جعلها هو ممتعة أيضاً. لم أكن أتمنى أن تنتهي بمثل هذا الضياع. لكن ماذا يمكنك أن تفعلي إذا اكتشفت أن الرجل جاهل،

Twitter: @ketab_n

ويمارس العادة السرّية، في سلة مهملات مليئة بالقصاصات من صحيفة تسمى «الأوريجنال روميك»، أو شيء من هذا القبيل؟ إن ذلك يثبط همة أية فتاة، وبصراحة أنا لن أكفّ عن ذلك الأمر».

قال ديفيد: «خذي القصاصات وأحرقيها. قد يكون ذلك أفضل شيء، ألا ترغبين الآن في السباحة، يا ديفل؟».

نظرت إليه كاترين نظرة استخفاف.

سألته: «كيف عرفت أنني فعلت ذلك؟».

- «فعلت ماذا؟».

- «أحرقت القصاصات».

سألتها ماريتا: «هل فعلت يا كاترين؟».

قالت كاترين: «بالطبع، فعلت».

وقف ديفيد وأخذ ينظر إليها. أحسّ بالخواء تماماً. كان الأمر بمثابة الوصول إلى منحنى فوق طريق جبلي، وفجأة يتلاشى الطريق وتجد نفسك مباشرة أمام جرف. وقفت ماريتا أيضاً في تلك اللحظة. وكاترين تنظر إليها ووجهها هادىء ومتّزن.

قالت ماريتا: «دعنا نذهب ونسبح. سوف نسبح حتى تلك العلامة ونعود».

قالت كاترين: «أنا سعيدة لأنكما أصبحتما سعيدين في النهاية. لقد كنت أُريد أن أرحل منذ مدّة طويلة. الجو يميل إلى البرودة في الواقع. لقد نسينا أننا في سبتمبر».

Twitter: @ketab_n

الفصل السادس والعشرون

ارتديا ملابسهما على الشاطىء وصعدا الممرّ، ودافيد يحمل الحقيبة وبداخلها أدوات الشاطىء، إلى حيث كانت تقف السيارة القديمة بين أشجار الصنوبر، وركبا السيارة. وقادها ديفيد عائداً إلى الفندق مع بداية المساء. كانت كاترين هادئة، وبدوا بالنسبة لمن يراهما إنهما عائدان من رحلة بعد الظهر في أحد الشواطىء الخاصّة لمنطقة الايسترال. كانت البواخر الحربية ما تزال على مرمى البصر عندما غادرا السيارة بموقف الانتظار في الفندق، والبحر يبدو من خلال أشجار الصنوبر أزرق هادئاً. كان المساء جميلاً وصافياً مثلما كان الصباح.

مشيا إلى مدخل الفندق وأخذ ديفيد حقيبة أدوات الشاطىء إلى المخزن ليضعها هناك.

قالت كاترين: «دعني أخرج الأشياء، فلا بدّ أن تجف».

قال: «أنا آسف» واستدار خارجاً من باب المخزن متجهاً إلى حجرة عمله عند نهاية الفندق. داخل الحجرة فتح حقيبته الكبيرة فاكتشف أن مجموعة الكراريس التي كتب فيها القصص وأربع مظاريف كبيرة مليئة بقصاصات الصحف قد اختفت. أما مجموعة الكراريس للقصة السردية فكانت موجودة. أغلق الحقيبة بالمفتاح وبحث في كل أدراج الدولاب وفي أنحاء الغرفة، لم يصدق أن القصص يمكن أي تختفي. لم يصدق أنها يمكن أن تفعل ذلك. على الشاطىء عرف أنها يمكن أن تفعل ذلك، لكن الأمر بدا مستحيلاً، ولم يستطع تصديقه. لقد كانا لطيفين معها وحريصين وقلقين عليها كأنها في فترة نقاهة من خطر أو إنقاذ أو كارثة، وبدا من المستحيل إمكانية حدوث ذلك حقاً.

Twitter: @ketab_n

ورغم أنه تيقّن في تلك اللحظة من حدوث ذلك، فإنه كان ما زال يعتقد أن المسألة مجرّد نكتة سخيفة. ومن ثم، وكله إحساس بالخواء المميت في قلبه، أعاد فتح الحقيبة وفتّشها، وبعد أن أغلقها أعاد تفتيش الحجرة مرة أخرى.

الآن لم يعد هناك خطر ولا إنقاذ، إنها الكارثة ولا شيء غير ذلك، لا بد أن تكون أخفتها في مكان ما، من الممكن أن تكون في غرفة المخزن، أو في حجرتهما، أو ربما وضعتها في حجرة ماريتا. لا يمكن في الحقيقة أن تدمّرها. لا يمكن لبشر أن يفعل ذلك لكائن إنسانيّ. ظلّ غير مصدّق بأنها قد فعلت ذلك، وأحسّ بالغثيان داخل نفسه عندما أغلق الباب بالمفتاح.

كانت الفتاتان في البار عندما أقبل ديفيد. تطلّعت إليه ماريتا واكتشفت أن هناك شيئاً ما، أما كاترين فقد رأته قادماً من خلال المرآة، لم تنظر إليه، بل إلى انعكاس صورته في المرآة.

سألها ديفيد: «أين وضعتها، يا ديفل؟».

نحّت وجهها عن المرآة ونظرت إليه قائلة: «لن أقول لك، إنها في رعايتي».

قال ديفيد: «لا بد أن تقول لي، فأنا أحتاجها جداً».

قالت: «كلا، أنت لست في حاجة إليها. لم تكن تساوي شيئاً وأنا كرهتها».

قال ديفيد: «وحتى حكاية كيبو. لقد أحببت كيبو. ألا تذكرين؟».

- «فليذهب هو الآخر أيضاً. كنت سأمزّق القصّة وأحتفظ بها، لكنني لم أستطع العثور عليها. على أيّ الأحوال لقد قلت إنه مات».

رأى ديفيد ماريتا وهي تنظر إليها ثم تشيح ببصرها. ثم نظرت إليها وقالت: «أين أحرقتها، يا كاترين؟».

قالت كاترين: «لن أقول لك أنت الأخرى، فأنت جزء من الشيء نفسه».
سألها ديفيد: «هل أحرقت القصص مع القصاصات؟».

قالت كاترين: «لن أقول لك، فأنت تتحدث إليّ مثل رجل شرطة أو كأننا في مدرسة».

- «قولي لي، يا ديفيل، أريد أن أعرف فقط».

قالت كاترين: «لقد دفعت ثمنها. دفعت ثمن كتابتها».

Twitter: @ketab_n

قال ديفيد: «أعرف. هذا كرم كبير منك. أين أحرقتها، يا ديفل؟».

- «لن أقول لك».

- «لا. أرجو أن تقولي لي».

- «اطلب منها أن تخرج».

قالت ماريتا: «ينبغي عليّ أن أنصرف في الحقيقة، سأراك فيما بعد يا كاترين».

قالت كاترين: «ذلك حسن. إنها ليست غلطتك، يا هيرس».

جلس ديفيد على مقعد البار الطويل بجوار كاترين، التي أخذت تنظر في المرآة وتراقب ماريتا أثناء خروجها.

سألها ديفيد: «أين أحرقتها، يا ديفل. يمكنك أن تقولي الآن».

قالت كاترين: «لم تكن لتفهم - ذلك هو سبب رغبتي في خروجها».

قال ديفيد: «أعرف، أين أحرقتها، يا ديفل؟».

قالت كاترين: «في البرميل الحديدي ذي الثقوب الذي تحرق فيه السيدةُ القمامةَ».

- «هل احترق كل شيء تماماً».

- «نعم. بل وصببت عليه بعض الكيروسين، كان حريقاً ضخماً واحترق كل شيء. ديفيد، لقد فعلت ذلك من أجلك. ومن أجلنا جميعاً».

قال ديفيد: «أنا متأكد من ذلك. هل احترق كل شيء تماماً؟».

- «آه نعم، يمكننا الذهاب إلى هناك لكي تلقي نظرةً إذا كنت تريد، لكن ليس لذلك أهمية. فلقد احترقت كل الأوراق وأصبحت سوداء، وقلبتها بعصا».

قال ديفيد: «سأذهب فقط وألقي نظرة».

قالت كاترين: «لكنك ستعود».

قال ديفيد: «بالتأكيد».

تم الحريق في برميل حرق القمامة الذي كان من قبل برميلاً للكيروسين سعته خمسة وخمسون جالوناً، وبه ثقوب جانبية. أما العصا التي كانت قد قلبت بها الرماد والتي ما تزال آثار سواد الحريق على أحد طرفيها، فما هي إلا يد مكنسة قديمة استعملت لهذا الغرض من قبل. كان البرميل محاطاً بالحجارة وكان يستعمل لحفظ الكيروسين. وكان في البرميل قطع صغيرة متفحمة من غلاف الكراسات الأخضر، وقصاصات جرائد، وقطع متفحمة من ورق مكتوب عليه بالحبر تُشبه تلك الخاصّة بمؤسسة روميك. وعلى إحدى هذه القطع المحروقة

Twitter: @ketab_n

استطاع أن يرى خانة التاريخ لمؤسسة آر. آي. كان الرماد مقلّباً بعناية، لكن مما لا شك فيه أن هناك بعض الأشياء لم تحترق جيّداً. وكذلك قصاصات متفحّمة لو أراد أن يفحصها فستحتاج إلى صبر. مزّق الورقة المطبوعة لمؤسسة آر. آي. إلى قطع صغيرة وأسقطها في برميل الكيروسين السابق الذي قلبه رأساً على عقب. اكتشف أنه لم يتعامل أبداً مع مؤسسة «رود آيلاند»، وبينما كان يسند يد المكنسة إلى الحائط لاحظ وجود دراجته، وأن إطاراتها في حاجة إلى الملء بالهواء. عاد إلى المطبخ ولم يجد به أحداً، فتقدّم ناحية الصالون حيث انضم إلى زوجته في البار.

قالت كاترين: «ألم يكن الحال كما قلت لك بالضبط؟».

- «نعم».

قال ذلك ثم جلس على أحد مقاعد البار الطويلة ووضع مرفقيه على البار.

قالت كاترين: «أعتقد أن النار كانت كافية لإحراق القصاصات. ولقد فكرت في الحقيقة أنّ عليّ تنظيف المكان».

قال: «لقد قمت بذلك فعلاً».

- «يمكنك الآن مواصلة الكتابة في القصة السردية، ولن يكون هناك شيء يزعجك. يمكنك البدء في الصباح».

قال ديفيد: «بالتأكيد».

قالت كاترين: «أنا سعيدة لأنك تقبّلت الأمر بتعقل. لم يكن في استطاعتك أن تتعرّف على مدى عدم أهميّتها وأنها لا تساوي شيئاً، وكان علي أن أوضح لك ذلك».

- «ألم يكن في استطاعتك الاحتفاظ بقصّة كيبو، الذي أعجبت به؟».

- «قلت لك إنني حاولت أن أفتشّ عنها. لكن إذا أردت إعادة كتابتها فيمكنني أن أحكيها لك كلمة كلمة».

- «سيكون ذلك مضحكاً».

- «ولم لا يكون حقيقة؟ سترى. أتريد أن أحكيها لك الآن؟ بإمكاننا إذا كنت تريد؟».

قال ديفيد: «لا. ليس الآن، ألا يمكنك كتابتها؟».

- «أنت تعلم، يا ديفيد أنني لا أُجيد الكتابة، لكن يمكنني أن أحكيها لك في أيّ

Twitter: @ketab_n

وقت تشاء. لا داعي لأن تهتم بالقصص الأخرى، فهي لا تستحقّ. أليس كذلك؟».

- «لماذا فعلت ذلك حقاً؟».

- «لكنني أُساعدك. يمكنك أن تذهب إلى أفريقيا لتكتبها مرة ثانية، عندما تصبح وجهة نظرك أكثر نضجاً. والمنطقة لا يمكن أن تكون قد تغيّرت كثيراً جداً. وأرى أن المسألة تكون ألطف لو كتبت عن أسبانيا بدلاً من ذلك، فلقد قلت أنت إن المنطقة هنا تشبه أفريقيا تقريباً، بالاضافة إلى ميزة اللغة المتحضّرة».

صبّ ديفيد لنفسه كأساً من الويسكي ووجد زجاجة مياه بيرييه ففتحها وصبّ شيئاً منها في الكأس. تذكر اليوم الذي مرّ فيه على المكان الذي تعبأ فيه مياه بيرييه في سهل على الطريق المؤدي إلى أيجيس مورتس وكيف... ثم قال لكاترين، «أرجو ألاّ نتكلم عن الكتابة».

قالت كاترين: «أنا أودّ أن أتكلم. عندما تكون للكتابة دلالتها، وينتج عنها أغراض صحيحة، كنت دائماً تكتب بشكل جيّد، حتى بدأت في تلك القصص. أسوأ ما فيها كانت القذارة والذباب والقسوة والوحشية. ويبدو أنك تمرّغت فيها. ثم تلك القصة عن المذبحة عند فوهة البركان، والقسوة الفظيعة التي يتّسم بها والدك».

سألها ديفيد: «ألا يمكن ألا نتكلّم عن القصص؟».

قالت كاترين: «أنا أُريد أن أتكلم عنها. أُريد أن أجعلك تتحقّق من السبب في ضرورة حرقها».

قال ديفيد: «أرجو أن تكتبيها. أفضل كثيراً ألاّ أسمعها الآن».

- «لكنني لا أستطيع الكتابة، يا ديفيد».

قال ديفيد: «بل تستطيعين».

قالت كاترين: «كلا. لكنني سأحكيها لشخص ما يستطيع كتابتها. لو أنك كنت صديقاً ودوداً، فقد كنت ستكتبها من أجلي. إذا كنت تحبّني حقاً فسيسعدك أن تفعل ذلك».

قال ديفيد: «كل ما أودّه هو أن أقتلك، والسبب الوحيد الذي يمنعني من ذلك، هو أنك مجنونة».

- «لا يمكن أن تتحدّث إلي على هذا النحو، يا ديفيد».

Twitter: @ketab_n

- «كلا؟».
- «أجل، لا يمكنك، لا يمكنك. هل تسمعني؟».
- «أسمعك».
- «إذن فاسمعني أقول لك، إنك لا يمكنك أن تقول لي أشياء مثل هذه. لا يمكنك أن تقول لي مثل هذه الأشياء الفظيعة».

قال ديفيد: «أنا أسمعك».
- «لا يمكنك أن تقول أشياء مثل هذه، لا أقبل ذلك، سأطلّقك».
- «بكل سرور وترحاب».
- «إذن سأظلّ زوجة لك، ولن أمنحك الطلاق أبداً».
- «سيكون ذلك منتهى اللطف».
- «وسأفعل أي شيء أرغب في فعله لك».
- «لك أن تفعلي».
- «سوف أقتلك».

قال ديفيد: «لن تهزّي شعرة منّي».
- «أنت لا تستطيع أن تتكلم مثل إنسان مهذّب في لحظة مثل هذه».
- «ما الذي يمكن أن يقوله إنسان مهذّب في مثل هذه اللحظة؟».
- «أن يعبر عن أسفه».

قال ديفيد: «لا بأس. أنا آسف. أنا آسف إذ قابلتك أصلاً. أنا آسف لأنه حدث وتزوجت بك...».

- «وأنا كذلك».

- «أرجوك كفى. يمكنك أن تحكي القصّة لأيّ واحد يكتبها لك. أنا آسف إذ حدث وقابل أبوك أمك وأنجباك. أنا آسف إذ أنك وُلدت وكبرت. أنا آسف لكل شيء فعلناه خيراً كان أم شراً...».

- «أنت لست كذلك».

قال ديفيد: «كلا. سأسكت. أنا لم أقصد أن ألقي خطبة».
- «أنا آسف فقط من أجل نفسك».

قال ديفيد: «ممكن، لكن يا ديفيل، ما السبب الذي جعلك تحرقينها؟ تحرقين القصص؟».

Twitter: @ketab_n

قالت: «كان ينبغي أن تُحرق. أنا آسفة إذا لم تكن تفهم».

كان قد فهم حقيقة قبل أن يسألها، وكان على يقين عندما طرح السؤال أنه إنشائي. كان يكره هذه الأسئلة الإنشائية التي تنمّ عن عدم الثقة، والتي تعوّد أن يستعملها، وأصبح خجولاً لوقوعه في ذلك. شرب الويسكي ومياه بيريه ببطء بينما كان يفكر في عدم مصداقية الأمر، وأن كل شيء كان قد استوعبه قد أعرض عنه. وقد كان يطبق باحكام نظامه الخاص، على قدر ما يستطيع من الدقة والإحكام عندما كان يتعامل في الأيام الخوالي مع الآلات والأسلحة الموجودة على الطائرة، المحرّك والمدافع، لم تكن هناك ضرورة آنذاك لأنها كانت تعمل بكفاءة تامة.

أما الآن فهناك ضرورة لأن ما قاله لكاترين عن قتلها قاله بنيّة صادقة تماماً، وليس على سبيل الاستعراض. كان خجلاً من الكلام المسترسل الذي كان يشبه الخطبة بعد الكلمات التقريرية التي قالها. لكن لم يكن هناك شيء يمكن أن يفعله إزاء هذا القرار الذي اتخذه بصدق إلا بتطبيق نظامه، لذا فقد كان لزاماً عليه أن ينفّذه إذا ما فقد السيطرة على نفسه. صبّ لنفسه كأساً أخرى من الويسكي ومياه بيريه، وأخذ يراقب الفقاقيع التي كانت تحدث ثم تنفجر. وفكر: لعنة الله عليها!

قال: «أنا آسف لكوني متصلّباً. أنا أفهم بالطبع».

قالت: «أنا سعيدة جداً، يا ديفيد. سأسافر في الصباح».

- «إلى أين؟».
- «إلى هنداي ثم إلى باريس لبحث موضوع الفنّيين من أجل الكتاب».
- «حقاً؟».
- «نعم. أعتقد أنه ينبغي عليّ أن أفعل. لقد ضيّعنا الكثير من الوقت، واليوم أحرزتُ بعض التقدّم وأودّ المحافظة عليه».
- «كيف ستسافرين؟».
- «بالسيارة البيجاتي».
- «لا ينبغي أن تقودي السيارة بمفردك».
- «أرغب في ذلك».
- «لا ينبغي عليك، يا ديفل. حقيقة، لن أسمح بذلك».
- «أيمكنني الذهاب بالقطار؟ فهناك قطار إلى بايوني. ومن هناك أستطيع استئجار سيارة أو من بيارتز».

Twitter: @ketab_n

- «أيمكننا أن نتكلم بهذا الشأن في الصباح؟».
- «بل أريد أن أتحدّث فيه الآن».
- «لا ينبغي أن تسافري، يا ديفيل».

قالت: «سأسافر، ولن تستطيع أن تمنعني».

- «أنا فقط أفكّر في أفضل وسيلة».
- «كلا، أنت لا تفعل ذلك. أنت تحاول أن تمنعني».
- «لو صبرتِ فسنذهب معاً».
- «أنا لا أريد أن نذهب معاً. أريد أن أذهب غداً وفي السيارة البجاتي. إذا لم توافق سأسافر بالقطار، لا تستطيع منع أي إنسان من السفر بالقطار. لقد بلغت سنّ الرشد وليس معنى أنني متزوجة بك أن تجعل مني أَمة لك أو تشتريني. سأسافر ولن تستطيع منعي».
- «هل ستعودين؟».
- «أخطّط لذلك».
- «أفهم».
- «أنت لم تفهم وهذا سيّان عندي. فهذا مشروع مدروس ومتناسق، هذه الأمور ليست مجرد أنْ يُلقى بها...».
- «في سلّة المهملات».

قال ديفيد ذلك وتذكّر نظامه الخاص به ورشف الويسكي والبيرييه.

سألها: «هل ستقابلين محاميك في باريس؟».

- «إذا كان هناك شأن لرؤيته. وأنا عادة ما أُقابل محاميّ. إذا لم يكن لديك محامٍ فهذا لا يعني أن كل إنسان آخر ليس له الحقّ في مقابلة محاميه. هل ترغب في أن يقوم أحد محاميّ في عمل أي شيء لك؟».

قال ديفيد: «كلا. اللعنة على محاميك!».

- «هل لديك ما يكفي من نقود؟».
- «لديّ ما يكفي من النقود».
- «حقاً، يا ديفيد؟ ألم تكن القصص تساوي الكثير؟ لقد ضايقني ذلك كثيراً جداً وأنا أعرف مدى مسؤوليتي. سأبحث عن مخرج، وأنفّذ بالضبط ما ينبغي عليّ أن أفعله».

Twitter: @ketab_n

- «ما الذي ستفعلينه؟».
- «أنفّذ ما ينبغي عليّ عمله بالضبط».
- «بالضبط كما افترضت أن تفعليه؟».
- «سوف أقدر ثمنها وأدفع لك الضعف في المصرف».

قال ديفيد: «هذا كرم كبير. لطالما كنت كريمة».

- «أُريد أن أكون عادلة، يا ديفيد، ومن الممكن أنها تقدر مادياً بأكثر مما تقدر من الناحية الفنية».

- «من الذي يستطيع أن يقدّرها فنياً؟».
- «هناك أناس يفعلون ذلك. هناك أُناس يقدّرون كل شيء».
- «أي نوع من الناس؟».

- «لا أعرف، يا ديفيد، لكنني أستطيع تصوّر بعض الناس أمثال نقاد (الاتلانتك مانتلي)، و (الهاريرز) و (النوفيل ريفيو فرانسيس)».

قال ديفيد: «سأخرج لفترة. هل أنت على ما يرام؟».

قالت كاترين: «أنا على ما يرام تماماً، فيما عدا شيء واحد، وهو أنني ربما أكون قد ارتكبت خطأ في حقك، وينبغي علي أن أُصحّحه، وهذا هو سبب سفري إلى باريس، ولم أكن أُريد أن أقول لك».

قال ديفيد: «لا داعي لمناقشة أشياء ثانوية. وهكذا فأنت تريدين السفر بالقطار؟».

- «لا، أُريد السفر بالسيارة البجاتي».

- «لا بأس. سافري بالسيارة البجاتي. لكن قودي بحرص ولا تسافري عن طريق التلال».

- «سأسافر من الطريق الذي أرشدتني إليه، وسأتخيل أنك معي طوال الوقت، وأتحدث إليك، ونحكي حكاياتنا وكيف أنني أنقذت حياتك. أنا دائماً ما أفعل ذلك. ومعك ستغدو المسافة قصيرة جداً وقليلة الجهد ولن تزيد السرعة عن المعتاد، ستكون رحلة ممتعة».

قال ديفيد: «عظيم. خذي الأمر بسهولة على قدر ما تستطيعين. اقضي الليلة الأولى في «نيم» إلاّ إذا رحلت مبكراً. إنهم يعرفوننا في فندق الأمبراطور».

Twitter: @ketab_n

ـ «أعتقد أنني سأبيت في كراكون».

ـ «لا، يا ديفيل، أرجوك».

ـ «ربما لا أستطيع الرحيل مبكراً وأصل إلى كراكون. سأمرّ على آرل ومونبليه ولا أضيع وقتي في «نيم».

ـ «إذا استيقظت متأخرة فتوقّفي في «نيم»».

قالت: «يبدو الأمر طفولياً للغاية».

قال: «سأذهب معك. لا بدّ».

ـ «كلا. أرجوك. فمن المهم أن أقوم بذلك وحدي. من المهم حقاً، ولا أُريدك أن تفعل ذلك».

قال: «لا بأس. لكن ينبغي عليّ أن أذهب».

ـ «كلا، أرجوك. لا بدّ أن تثق بي، يا ديفيد. سأقود بحرص، ومباشرة دون توقُّف».

ـ «لن تستطيعي، يا ديفيل، فالظلام يحلّ مبكراً الآن».

قالت كاترين: «لا ينبغي أن تقلق. أنت لطيف لأن تدعني أذهب. دائماً ما كنت لطيفاً. وعندما كنت أفعل أي شيء فإنني دائماً ما كنت أطمع في صفحك. سأفتقدك بشدة، بل أنا أفتقدك بالفعل. في المرة القادمة سنقود السيارة معاً».

قال ديفيد: «كان يومك مشحوناً. أنت متعبة. على الأقل دعيني أُجرّب سيارتك البيجاتي حتى المدينة وأعود بها».

توقف عند باب حجرة ماريتا وقال: «أتريدين الذهاب لنزهة؟».

قالت: «نعم».

قال لها: «إذن هيّا».

Twitter: @ketab_n

الفصل السابع والعشرون

ركب ديفيد السيارة وصعدت ماريتا بجانبه، فانطلقت السيارة على امتداد الطريق حيث كانت بعض الرمال قد زحفت من الشاطىء، فخفف من سرعتها وأوقفها، وأخذ يراقب أعشاب البردي أمامه على اليسار، والشاطىء الخالي والبحر على يمينه، والطريق الإسفلت أمامه. انطلقت بالسيارة ثانية على الطريق حتى رأى جسراً أبيض اللون يكاد يندفع إليه، فخفّف من سرعته وقدر المسافة ورفع قدميه من فوق دواسة السرعة، وضغط على الفرامل عدة مرات برفق. لم تفقد السيارة توازنها من أثر كل ضغطه على الفرامل وقوة الاندفاع المرتدّة ولم تنحرف أيضاً، وأوقف السيارة قبل الجسر تماماً، ثم انطلق مزة ثانية على الطريق المؤدي إلى «كان».

قال: «أحرقتها كلها».

قالت ماريتا: «أوه يا ديفيد». وكانا قد وصلات إلى «كان» في تلك اللحظة والأضواء تتلألأ، فأوقف ديفيد السيارة تحت الأشجار أمام المقهى الذي تقابلا فيه لأول مرة.

سألته ماريتا: «أليس من الأفضل أن نذهب إلى أيّ مكان آخر؟».

قال ديفيد: «لا يهمّ. لن يحدث ذلك أيّ فرق».

فاقترحت ماريتا: «أم أنك تفضّل القيادة».

قال: «أودّ أن أبرّد المحرّك. أردت فقط أن أرى ما إذا كانت السيارة في حالة جيّدة بالنسبة لها حتى تقودها».

Twitter: @ketab_n

- «أهي مسافرة؟».
- «تقول ذلك».

جلسا إلى منضدة في الشرفة تحت الظلال المرقطة لأوراق الشجر، وأحضر الخادم لمارينا «تيوبيب» ولديفيد ويسكي بالصودا.

قالت ماريتا: «أتريدني أن أرحل معها؟».

- «أتعتقدين حقيقة أنّ من الممكن أن يحدث لها أيّ شيء؟».

- «كلا، يا ديفيد. أعتقد أنها كانت قد قامت بالتخريب لفترة ما».

قال ديفيد: «من الممكن، لقد حرقت كل شيء على الإطلاق فيماعدا القصّة السردية المكتوبة عنها».

قالت ماريتا: «إنها قصة رائعة».

قال ديفيد: «لا تجامليني. فلقد كتبتها مثلما كتبت كلّ ما أحرقته. لا داعي للمجاملة حتى تواسيني».

- «يمكنك إعادة كتابتها».

قال لها: «كلا، ما دامت قد كُتبت فلا يمكنك تذكُّرها. في كل مرة تعيدين قراءتها تبدو لك عظيمة ومفاجأة غير معقولة. لا يمكن أن تصدق أنك كتبت ذلك. لأنها إذا كتبت مرة فلن يمكنك أبداً أن تكتبها مرة أخرى، إن المرء لا تتاح له إلاّ فرصة واحدة لفعل شيء واحد. والفرص تتاح مرات محدودة في حياة الإنسان.

- «مرات ماذا؟».
- «مرات محدودة».
- «لكنك تستطيع تذكّرها. يجب أن تتذكّرها».
- «لست أنا ولا أنت ولا أيّ إنسان. لقد ضاعت. فما دمت قد كتبتها مرة، فلن أستطيع كتابتها مرة أُخرى. لقد ضاعت».

- «إنها شريرة».

قال ديفيد: «كلا».

- «ماذا إذن؟».

قال ديفيد: «بل متهوِّرة. كلُّ ما حدث اليوم سببُه أنّها كانت متهوّرة حقاً».

Twitter: @ketab_n

- «آمل أن تكون عطوفاً معي أيضاً».

- «إذن عليك أن تبقيْ إلى جانبي ومساعدتي في عدم قتلها. ألا تعرفين ما سوف تفعله؟ سوف تدفع لي ثمن القصص وبذلك لا أكون قد فقدت شيئاً».

- «كلا».

- «بل ستفعل. ستجعل محاميها يقدّرون ثمنها بطريقة مبالغ فيها ثم تدفع لي ضعف هذا التقدير».

- «الحقّ، يا ديفيد، أنها لم تقل ذلك».

- «لقد قالت ذلك، ويبدو كأنه قرار نهائي. التفاصيل فقط هي التي تحتاج إلى البحث، أو دفع ما يزيد على ضعف قيمة التقدير، أو ما يظهرها بشكل أكثر كرماً ويعمل على إسعادها».

- «لا يمكنك أن تدعها تقود السيارة وحدها، يا ديفيد».

- «أعرف ذلك».

- «وما الذي ستفعله؟».

قال ديفيد: «لا أدري. لكن دعينا نجلس هنا لبرهة قصيرة. ليس هناك داعٍ للعجلة الآن، أعتقد أنها أُجهدت واستغرقت في النوم، كم أتوق للنوم، معك، وأستيقظ لأجد كتاباتي كلها موجودة، ولا أكون في حاجة لمعاودة كتابتها».

- «ستنام، وفي يوم من الأيام عندما تصحو ستعمل بكل الروعة التي عملت بها هذا الصباح».

قال ديفيد: «أنت رائعة للغاية. لكنك بالتأكيد تعرّضت لكمٍّ لا بأس به من المتاعب منذ أن حضرت إلى هنا في تلك الليلة، أليس كذلك؟».

قالت ماريتا: «لا تحاول أن تبعدني عن الموضوع. فأنا أعرف ما أنا فيه».

قال ديفيد: «بالتأكيد. كلانا يعرف. أتريدين شراباً آخر؟».

- «إذا كنت ترغب». ثم قالت: «لم أكن أعرف أنها ستكون معركة عندما حضرت».

- «ولا أنا كذلك».

- «إن المعركة فقط بالنسبة لك حقاً، هي بينك وبين الزمن».

Twitter: @ketab_n

- «ليس مع الزمن، بل مع كاترين».

- «فقط لأن زمانها مختلف. إنها مذعورة بسببه. لقد قلت الليلة إن كل ما حدث كان مجرد اندفاع. ذلك لم يكن صحيحاً بل كان متوقّعاً. وأنت سوف تنتصر بمرور الأيام».

بعد فترة طويلة نادى الخادم فدفع ثمن الشراب وترك بقشيشاً جيّداً، وما أن أدار محرك السيارة وأضاء الأنوار، وفكّ فرامل اليد، حتى داهمه ما قد كان قد حدث حقيقة. لقد تجسّدت أمامه كلّ الأحداث بشكل واضح غير مضبّب حينما تطلّع لأول مرة في برميل الحريق ورأى الرماد الذي قُلب بيد المكنسة. تتبّع الأنوار الكاشفة بحرص خلال طرقات المدينة الهادئة الخالية في السماء حتى وصل إلى الميناء ومنها إلى الطريق. شعر بكتف ماريتا إلى جواره وسمعها تقول: «أعرف، يا ديفيد، ما تعاني منه، ولقد آلمني ذلك كثيراً جداً».

- «لا تدعي ذلك يؤلمك».
- «أنا سعيدة أنك فعلت ذلك. ليس أمامنا سبيل إلا أن نكتبها».
- «عظيم».
- «سوف نكتبها حقيقة». ثم قالت بالفرنسية «أنت وأنا».

Twitter: @ketab_n

الفصل الثامن والعشرون

في الفندق، أقبلت السيدة عندما وصل ديفيد وماريتا إلى الصالة الرئيسية. كان في يدها خطاب.

قالت: «لقد أخذت السيدة القطار من بيارتيز، وتركت هذا الخطاب للسيد».

سألها ديفيد: «متى رحلت؟».

قالت السيدة إيرول: «بعد خروجك مباشرة أنت والسيدة. أرسلت الصبي إلى المحطة لشراء تذكرة وحجز مقعد».

بدأ ديفيد قراءة الخطاب.

قالت السيدة: «ماذا تريدان أن تأكلا؟ دجاج بارد وسلاطة؟ بيض مخفوق كبداية. يوجد كذلك لحم ضأن إذا رغب السيد، ماذا يفضل هو يا سيدتي؟».

كانت ماريتا والسيدة تتحدثان معاً، على حين كان ديفيد قد انتهى من قراءة الخطاب، فوضعه في جيبه ونظر إلى السيدة إيرول وقال: «هل بدت على ما يرام عندما رحلت؟».

- «ربما لا، يا سيدي».

قال ديفيد: «سوف تعود».

- «أجل، يا سيدي».

- «وسنقوم برعايتها جيداً».

«نعم يا سيدي». وشرَعت بالبكاءِ قليلاً فيما كانت تُقَلِّب العجّة، وأحاطها ديفيد

Twitter: @ketab_n

بذراعيه وقبّلها. وقالت: «إذهب وتحدّث مع السيّدة، ودعني أعدُّ المائِدَة. أورول والصبي في نابول يخلطان لعبة ورق «البلوت» بالسياسة.

قالت ماريتا: «سأعدّها. افتح النبيذ من فضلِك يا ديفيد. ألا تظنّ أنّ علينا أن نتناول قنينة من «اللانسون؟».

أغلق غطاءَ مجمّع الثلج، وفيما هو يحمل الزجاجةَ الباردة، فكّ الختمَ وحلّ السّلك. وبتأنٍّ، حرّك الفلّينة بين إبهامِه وسبابته، متحسّساً بإبهامِه قَرْصَةَ الغطاءِ المعدني ووعد الزجاجةِ الطويل الباردِ المُستدير. ونزع بلطفٍ الفلّينة وملأ ثلاث كؤوس. ووقفت السيّدة وراءَ الفرن حاملةً كأسَها، ورَفع الجميع كؤوسهم. لم يعرف ديفيد نَخبَ ماذا يشرب، ولهذا تفوّه بالكلمات الأولى التي خَرَجت وكانت: «نخبنا ونخب الحرّية».

شرب الجميع، ثم قدّمت السيّدة العجّة، وبعدها شربوا ثانيةً دونَ أن يتبادلوا الانخاب.

قالت ماريتا: «أرجوك يا ديفيد أن تأكل».

قال: «حسناً»، وشرب قليلاً من النبيذ وأكل على مهل جزءاً من العجّة.

قالت ماريتا: «كُلْ ولو شيئاً قليلاً. سيكون نافعاً لك».

نظرت السيّدة إلى ماريتا وهزّت برأسها، ثم قالت له: «إنّ عدم تناولك الطعامَ لن يُجدي نفعاً».

قال ديفيد: «بالتأكيد». وأخذ يأكل ببطء وعناية ويشرب الشمبانيا التي كانت تبدو طازجة في كل مرة يصبّها في الكأس.

سأل: «أين تركت السيارة؟».

قالت السيدة: «عند المحطة. ركب الصبي معها وعاد بالمفاتيح، إنها في حجرتك».

- «هل كانت عربة القطار مزدحمة؟».

- «لا. لقد أوصلها إلى خارج المحطة. لم يكن هناك سوى مسافرين قليلين. ستجد مكاناً».

قال ديفيد: «ليس قطاراً سيئاً!».

قالت السيدة: «كل شيئاً من الدجاج، واشرب مزيداً من النبيذ. افتح زجاجة

Twitter: @ketab_n

أخرى . فامرأتك عطشانة جداً» .

قالت ماريتا : «أنا لست عطشانة» .

قالت السيدة : «بل عطشانة . اشرب الآن وخذ الزجاجة معك ، فأنا أعرف ذلك الصنف ، إنه مفيد بالنسبة له أن يشربه» .

قال ديفيد للسيدة : «لا أريد أن أشرب الكثير جداً ، يا عزيزتي . لأن غداً سيكون يوماً سيئاً ، ولا أريد أن أشعر أنه أكثر سوءاً .

ـ «لن تكون كذلك . أرجوك أن تأكل الآن لتسعدني» .

استأذنت السيدة لعدة دقائق ولكنها غابت ربع ساعة . أكل ديفيد نصيبه من الدجاج كله والسلاطة في النهاية . وبعد عودتها تناولوا جميعاً كأساً من النبيذ ، ثم ألقى ديفيد وماريتا تحية المساء على السيدة بشكل رسميّ وخرجا إلى الشرفة يتطلّعان إلى الليل . كان الاثنان على عجلة من أمرهما ، وكان ديفيد يحمل زجاجة النبيذ المفتوحة في دلو التثليج . فوضعه فوق الموقد وأخذ ماريتا بين ذراعيه وقبّلها . تعانق الاثنان بحرارة ولم يقولا شيئاً ، ثم التقط ديفيد الدلو ومضيا إلى حجرة ماريتا .

كان السرير معدّاً لشخصين في تلك اللحظة ، ووضع ديفيد الدلو على الأرض قائلاً : «إنها السيدة التي فعلت ذلك» .

فقالت ماريتا : «أجل ، شيء طبيعي» .

استلقيا معاً ، والليل البارد بالخارج والنسمات اللطيفة آتية من البحر ، وقالت ماريتا : «أنا أحبّك ، يا ديفيد ، وأصبح ذلك مؤكّداً جدّاً الآن» .

فكر ديفيد : مؤكد . مؤكد . لا شيء مؤكد .

قالت ماريتا : «فيما قبل ، وقبل أن أستطيع أن أقضي طوال الليل معك ، فكرت وفكرت ، بأنه قد لا يعجبك ذلك النوع من الزوجات اللاتي لا يستطعن النوم» .

ـ «أي نوع من الزوجات أنت؟» .

ـ «سترى . زوجة سعيدة الآن» .

شعر أنه قد مضى وقت طويل قبل أن يستغرق في النوم ، لكن لم يكن الأمر كذلك في الواقع ، وعندما استيقظ عند أول ضوء رماديّ رأى ماريتا إلى جواره في السرير ، وكان سعيداً بذلك ، إلى أن تذكّر ما حدث . كان حريصاً على ألاّ يوقظها ، لكنها عندما تقلّبت

Twitter: @ketab_n

قبّلها قبل أن ينزل من السرير. ابتسمت وقالت: «صباح الخير، يا ديفيد» فقال: «عاودي النوم يا حبّي العزيز».

قالت: «حاضر». وتكورت حول نفسها بسرعة مثل حيوان صغير، برأسها الداكن، ونامت وعيناها مغمضتان بعيداً عن الضوء وأهدابها الطويلة تتضاد مع لون بشرتها الوردي البني في ضوء الصباح الباكر. نظر إليها ديفيد وفكر كم هي جميلة، واستطاع أن يتبيّن أن حيويتها لم تفارق جسدها عندما نامت. فكر، يا لجمالها بلونها هذا، ويا لنعومة بشرتها غير المعقولة، التي تشبه بشرة اليابانيات.

ثم أخذ يراقب اللون وهو يغدو أكثر عمقاً على وجهها كلما ازدادت قوة الضوء. هزّ رأسه وحمل ملابسه على ذراعه اليسرى وفتح الباب وأغلقهُ خارجاً إلى صباح جديد، سائراً عاري القدمين على بلاطات الممرّ التي لم تزل مبللة من أثر الندى.

في حجرته الخاصة به وبكاترين، أخذ حمّاماً، وحلق ذقنه، ووجد قميصاً نظيفاً وبنطلوناً قصيراً فارتداهما، وألقى نظرة على حجرة النوم الخالية، أول صباح يتواجد فيه هنا ولا تكون كاترين حاضرة على الإطلاق، ثم اتّجه إلى المطبخ الخالي فوجد علبة من السقمريّ المحفوظ، ففتحها، وأخذها مع زجاجة بيرة «تيوبورج» إلى البار.

فتح زجاجة البيرة وأمسك غطاء الزجاجة بين إبهامه الأيمن وبطن إصبعه السبابة وأخذ يضغط عليه حتى انثنى والتقى طرفاه، فوضعه في جيبه، عندما لم يجد سلة للقمامة ليرميه فيها، ثم رفع الزجاجة التي لم تزل باردة، وبلّل ملمسها يده، ثم شم نكهة سمك السقمرّي في العلبة المفتوحة، ثم تناول جرعة كبيرة من البيرة الباردة ووضع الزجاجة على البار، وأخرج ظرفاً من جيبه، وأخرج خطاب كاترين وبدأ يعيد قراءته.

«ديفيد، أعرف أنها ستكون مفاجأة سيّئة بالنسبة لك. أسوأ من أن تصدم شخصاً ما، ولنقل طفلاً، بسيارة. مجرد صدمة بمقدمة السيارة، ربما تكون صدمة بسيطة، ثم تتوالى الأحداث بعد ذلك، يتجمّع الناس على الصراخ. والنسوة الفرنسيات يصرخن: «أيتها السائقة الرعناء»، حتى لو كان الطفل هو المخطىء. لقد فعلت ذلك وأعلم أنني فعلتها ولم أستطع إلا أن أفعلها. من الفظيع جداً أن يكون ذلك مقبولاً، لكنه حدث.

«باختصار سوف أعود ونحاول أن نجعل كل الأمور مستقرّة بقدر استطاعتنا. لا تقلق على الإطلاق. سأقوم بعمل الاتصالات والمكاتبات بخصوص كتابي، وما عليك إلا أن تنهيه فقط وسأحاول أن أكرّس جهدي لهذا الأمر. كان يجب أن أحرق القصص الأخرى وما اعتبرته أنت شيئاً سيّئاً كان أفضل شيء، ولا ينبغي علي أن أقول لك ذلك، أنا

Twitter: @ketab_n

لا أطلب منك الصفح، لكن أرجو لك حظاً سعيداً وسأحاول أن أبذل قصارى جهدي بقدر ما أستطيع.

لقد كانت هيرس طيبة بالنسبة لك ولي، لكلينا، وأنا لا أكرهها.

لم أكن أودّ أن أنهي خطابي كما أبغي، لأن ذلك سيبدو صعب التصديق للغاية، لكنني سوف أقولها بأيّ حال من الأحوال، طالما أنني كنت وقحة ومنافية للمنطق، كما تبيّن لكلينا متأخراً. أنا أُحبك ودائماً ما سأظل أُحبّك، وأنا آسفة. يا لها من كلمات لا فائدة منها».

كاترين

بعد أن انتهى من قراءة الخطاب أعاد قراءته مرة ثانية.

لم يقرأ من قبل أبداً أي رسائل من كاترين، لأنه منذ الوقت الذي تقابلا فيه في بار «سريلون» بباريس حتى تزوجا في الكنيسة الأمريكية بافينو هوش، كان يرى كل منهما الآخر يومياً، لكن أن يقرأ هذا الخطاب الأول منها للمرة الثالثة، فهو يكتشف أنها لا زالت قادرة على تحريك مشاعره، وقد حدث ذلك بالفعل.

أعاد الخطاب إلى جيبه، وأكل قطعة أخرى من سمك السقمريّ من العلبة المليئة بمرقة السمك والزيت، وأنهى البيرة الباردة، ثم ذهب إلى المطبخ لإحضار قطعة من الخبز ليغمسها في مرق علبة السردين، وزجاجة طازجة من البيرة. لا بد أن يحاول العمل اليوم، لكنه بالتأكيد سيفشل. لقد كان هناك الكثير من العواطف المتدفقة، والكثير جداً من التدمير، والكثير جداً من كل شيء، بالإضافة إلى تحوُّل إخلاصه. لا يهم كيف تبنّى ذلك في سلوكه، ولا يهم كيف سهّل ذلك الأمور بالنسبة له، لكن كان هناك شيءٌ حزين وعنيف زاد هذا الخطاب من حدّته.

فكّر: لا بأس يا بورن، بينما كان يشرع في شرب زجاجة البيرة الثانية، لا داعي لأن تمضي الوقت مفكراً في سوء هذه الأمور لأنك تعرف. أمامك ثلاثة اختيارات. أولاً: حاول أن تتذكّر تلك القصص التي تلاشت، أن تكتبها مرة أُخرى. ثانياً، يمكنك محاولة كتابة قصة جديدة. ثالثاً، مواصلة الكتابة في تلك القصة السردية الرائعة. عليك أن تشحذ همّتك وتبدأ بأفضل شيء. أنت دائماً تقامر عندما تثق في نفسك. أنت لا تثق في أيّ شيء أبداً يمكن أن تتكلم عنه، فيما عدا نفسك، هكذا قال أبوك، وأنت قلت ذلك. وقال، لست أنا، يا ديفي الذي يُقهر، لكن اعتمد على نفسك أحياناً، أنت يا صاحب القلب الحديدي.

Twitter: @ketab_n

أيها الوحش الصغير! كان يقصد أن يقول: يا صاحب القلب البارد، لكنه حوّرها بفمه المتدلي الرقيق، أو ربما كان يقصدها: لا تخدع نفسك ببيرة تيوبورج.

إذن عليك أن تسلك أفضل سبيل، واكتب قصة جديدة وجيّدة بقدر ما تستطيع. وتذكّر أنّ ماريتا قد أضيرت بشكل سيّء مثلك. بل ربما أسوأ، فقامر إذن. فهي تهتمّ بما ضاع، قدر اهتمامك أنت.

Twitter: @ketab_n

الفصل التاسع والعشرون

عندما تعب أخيراً من الكتابة في ذلك اليوم، كان الوقت قد تجاوز الظهر. بدأ بكتابة جملة عندما شرع في الكتابة في حجرة عمله، وأكملها، لكنه لم يستطع أن يكتب شيئاً بعدها، شطبها وبدأ جملة أخرى، لكنه وصل إلى مرحلة من التقييم لم يكن قادراً معها على كتابة الجملة التي تليها رغم أنه يعرفها. ومرة أخرى كتب جملة تقريرية بسيطة أولية، وكان من المستحيل أن يكتب الجملة الثالثة على الورق. بعد مضيّ ساعتين كان الوضع على الحال نفسه، لم يستطع أن يكتب أكثر من جملة واحدة، وكانت أيضاً جملة بسيطة للغاية، وسقيمة جداً، ظل على ذلك الحال لمدة أربع ساعات قبل أن يعرف أن الحلّ يكمن في عدم قدرته على تحمّل ما حدث. اعترف بذلك لكن دون أن يقبله، وأغلق الكراسة ووضعها مكانها بما على سطورها من شطب كثير وذهب يبحث عن الفتاة.

كانت تقرأ في الشرفة وعندما نظرت إليه ورأت وجهه، قالت: «كلا؟».

- «بل أسوأ من كلا».
- «كلا على الإطلاق».
- «لم أكتب شيئاً على الإطلاق».

قالت ماريتا: «دعنا نتناول شراباً».

قال ديفيد: «لا بأس».

كانا داخل البار واليوم يوشك على نهايته. كان يوماً جميلاً كسابقه وربما أجمل يوم منذ انتهاء الصيف، وكل يوم دافىء يُعدّ شيئاً ممتازاً. فكر ديفيد: لا ينبغي أن تضيع مثل هذا اليوم، ينبغي أن تحاول جعله يوماً طيباً وتستغلّه بقدر الإمكان. خلط شراب المارتيني وصبّه، وعندما تذوقاه كان طعمه مثلجاً وجافاً.

Twitter: @ketab_n

قالت ماريتا: «كنت على صواب عندما حاولت الكتابة هذا الصباح، لكن دعنا لا نفكر في ذلك أكثر من اللازم اليوم».

قال: «لا بأس».

تناول زجاجة الويسكي، وأداة تقليب الثلج، وصبّ الماء المذاب في الثلج، واستعمل كأسه الفارغة في إعداد شرابين آخرين.

قال: «يوم رائع. ماذا ينبغي أن نفعل؟».
قالت ماريتا: «دعنا نذهب للسباحة الآن، وهكذا لا نضيع اليوم».

قال ديفيد: «عظيم، أينبغي أن أُخبر السيدة بأننا سنتأخّر بالنسبة للغداء؟».

قالت ماريتا: «لقد جهزت لنا غداء بارداً، وأعتقد أنك تفضل السباحة ما دام ليس هناك عمل».

قال ديفيد: «ذلك ذكاء. كيف حال السيدة؟».
قالت ماريتا: «لون عينها متغيّر قليلاً».
- «كلا».
وضحكت ماريتا.

انطلقا بالسيارة على الطريق، وحول اللسان الممتدّ داخل الغابة وتركا السيارة في ظل شجرة صنوبر، وحملا حقيبة الغداء ومعدات الشاطىء وسارا على الممرّ الترابي حتى وصلا إلى الخليج الصغير. كانت هناك نسمات قليلة آتية من ناحية الشرق، والبحر كان أزرق داكناً وهما يسيران خلال الصخور المتحجرة لأشجار الصنوبر. كانت الصخور حمراء ورمال الشاطىء صفراء مكرمشة، والماء صافياً وفي لون الكهرمان فوق الرمال. عندما وصلا إليه، وضعا السلة والحقيبة القماش في ظل صخرة كبيرة وخلعا ملابسهما وتسلّق ديفيد الصخرة ليقفز من فوقها. وقف هناك عارياً بنيّ اللون في الشمس وهو ينظر إلى البحر.

ناداها: «أتريدين أن تقفزي؟».
هزت رأسها: «سأنتظرك».
صاحت: «كلا» ثم نزلت إلى الماء حتى فخذيها.
صاح ديفيد من أعلى: «كيف الماء؟».
- «أكثر برودة من أيّ وقت. بارد تقريباً».
قال: «عظيم».

Twitter: @ketab_n

وبينما كانت تسير في الماء وهي تراقبه، وصل الماء إلى ما فوق وسطها، ولمس ثدييها. أما هو فقد وقف مشدوداً، على أصابع قدميه، وبدا كأنه معلق دون أن يسقط ثم قفز إلى أسفل في الماء الذي أحدث فوراناً مثل الذي يحدثه الدلفين في الفتحة التي يعاود الصعود منها. وسبحت هي تجاه الدائرة التي أحدثها ووقف هو إلى جوارها ورفعها إلى أعلى واحتضنها ثم أطبق بفمه بمائه المالح على فمها.

قال بالفرنسية: «البحر جميل، وأنت كذلك».

سبحا بعيداً عن الشاطىء هناك في المياه العميقة، واستلقيا على ظهريهما وأخذا يسبحان. كانت المياه أبرد من أيّ وقت، لكنها دافئة قليلاً عند السطح، وكانت ماريتا تسبح وظهرها مقوس إلى أعلى ورأسها تحت الماء، فيما عدا أنفها. وكان ثدياها يهتزّان من أثر حركة المياه الرقيقة الناجمة عن النسمات الخفيفة. كانت عيناها مغلقتين بسبب الشمس وديفيد بجانبها في الماء ذراعه تحت رأسها. وقبّل حلمة ثديها الأيسر ثم الأيمن:

قال: «طعمها مثل طعم البحر».

- «دعنا ننام هنا».

- «أتستطيعين؟».

- «من الصعب جداً أن أحافظ على ظهري مقوساً هكذا».

- «دعينا نسبح ذهاباً وإياباً».

- «لا بأس».

أبعدا في البحر أكثر من أي مرة سابقة، حتى أنهما استطاعا رؤية ما وراء المنطقة المرتفعة، وسبحا أيضاً حتى استطاعا رؤية الخطّ الأرجواني المنكسر للجبال خلف الغابة. استلقيا على سطح الماء وأخذا يراقبان الساحل. ثم سبحا ببطء. وقفا ليستريحا في الماء وافتقدا رؤية الجبال والمنطقة المرتفعة ثم سبحا ببطء وقوة حتى وصلا إلى مدخل الخليج ثم ارتميا على الشاطىء.

سألها ديفيد: «هل أنت متعبة؟».

قال ماريتا: «جداً، لم نسبح هذه المسافة الطويلة من قبل».

- «هل ما زلت تحسّين بتثاقل؟».

- «أوه أنا على ما يرام».

سار ديفيد على الشاطىء حتى الصخرة، وأحضر إحدى زجاجتي التافل ومنشفتين.

قال لها وهو يجلس بجوارها على الرمال: «تبدين مثل عجل البحر».

Twitter: @ketab_n

ناولها زجاجة التافل فشربت منها وناولته إياها ثانية. أخذ جرعة كبيرة، ثم تمدّد على الرمال الناعمة الجافة في الشمس، وسلة الغداء إلى جوارهما وزجاجة النبيذ التي يشربان منها مباشرة.

قالت ماريتا: «لم تكن كاترين تشعر بالتعب».

- «لم تكن تشعر بحق الجحيم، لأنها لم تسبح إلى مثل هذه المسافة».

- «حقاً؟».

- «لقد سبحنا لمسافة طويلة، يا فتاة. لم أصل إلى تلك المسافة أبداً لأرى هذه الجبال من قبل».

قالت: «لا بأس. ليس هناك أيّ شيء تفعله من أجلها اليوم، لذا لا داعي لأن تفكّر فيها يا ديفيد!».

- «أجل».

- «أما تزال تحبّني».

- «نعم. كثيراً جداً».

- «ربما ارتكبت خطأ كبيراً في حقك وأنت تبدي تعاطفاً معي فقط».

- «أنت لم ترتكبي أيّ خطأ، وليس ذلك مجرّد تعاطف معك».

أخذت ماريتا ملء يدها من الفجل وأكلته ببطء شديد وشربت بعض النبيذ. كان الفجل صغيراً وطازجاً وذا نكهة حرّيفة.

قالت: «لا ينبغي أن تقلق بصدد العمل، أنا على يقين أنه سيكون على ما يرام».

قال ديفيد: «بالتأكيد».

قطع قلب خرشوفة بالسكين، وأكل قطعة من الخبز، بعد أن غمسها في مرق الخردل الذي صنعته السيدة.

قالت ماريتا: «أمن الممكن أن أشرب التافل؟» وتناولت جرعة كبيرة من النبيذ ووضعت الزجاجة على الأرض بجوار ديفيد، وقد ثبتت قاعدتها جيداً فوق الرمال، وسندتها إلى السلّة.

وقالت: «غداء جيّد ذلك الذي أعدّته لنا السيدة، أليس كذلك يا ديفيد؟».

- «بل غداء رائع. هل ضربها أيرول على عينها حقاً؟».

Twitter: @ketab_n

- «ليست ضربة حقيقية».
- «إنها سليطة اللسان جدّاً معه».

- «هناك فارق في السنّ، ومن حقه أن يضربها لو أنها أهانته. هي قالت ذلك. وفي النهاية، هي بعثت لك برسائل».
- «أيّ رسائل؟».
- «رسائل تعبّر عن الحب».

قال ديفيد: «إنها تحبك فعلاً».

- «كلا، يا أحمق، إنها تقف فقط في جانبي».

قال ديفيد: «لم يعد هناك أيّ جبهات».

قالت ماريتا: «كلا. ونحن لم نحاول أن نخلق جبهات. هكذا حدث الأمر».

- «وحدث على ما يرام».

ناولها ديفيد إناء الماء، ونصف الخرشوفة، والفوطة، وأخذ الزجاجة الثانية من الثافل، وكانت ما تزال باردة، فتناول منها جرعة طويلة من النبيذ. وقال: «لقد أجبرنا على ذلك. امرأة مجنونة قضت على عائلة برون».

- «هل نحن عائلة برون؟».

- «بالتأكيد. نحن عائلة برون، ربما يأخذ الأمر فترة لكتابة القصص، لكن ذلك ما نحن عليه فعلاً. أتودّين مني أن أكتبها من جديد؟ أعتقد أنني أستطيع كتابتها».

- «لست في حاجة إلى كتابتها».

قال ديفيد: «سأكتبها على الرمال».

ناما جيداً وبشكل طبيعي خلال الفترة المتأخرة من بعد الظهر، وعندما كانت الشمس على وشك المغيب استيقظت ماريتا فرأت ديفيد نائماً في سريرها إلى جوارها. كانت شفتاه مغلقتين وهو يتنفس ببطء شديد، ونظرت إلى جفنيه وكانت قد رأتهما مرتين فقط منسدلين عندما نام عندها من قبل، وتطلعت إلى صدره وجسده وذراعيه إلى جانبيه. اتّجهت إلى باب الحمّام وتطلّعت إلى نفسها في مرآة الباب الطويلة، ثم ابتسمت للمرآة. عندما ارتدت ملابسها ذهبت إلى المطبخ وتحدثت مع السيدة. وبعد ذلك، وكان ديفيد لا يزال نائماً، جلست بالقرب منه على السرير. كان شعره في الغسق أبيض مقارنة بوجهه الأسمر، وانتظرته حتى يستيقظ.

Twitter: @ketab_n

جلسا إلى البار، وكان الاثنان يشربان الويسكي والصودا. كانت ماريتا تشرب بحرص شديد، قالت: «أعتقد أنه ينبغي عليك أن تذهب إلى المدينة كل يوم وتحضر الصحف، وتتناول شراباً وتقرأها. أتمنّى لو كان هنا نادٍ أو مقهى كبير تقابل فيه أصدقاءك».

- «ليس لديّ أصدقاء».

- «حسناً، أعتقد أنه سيكون من اللطيف بالنسبة لك كلّ يوم أن تكون بعيداً لفترة عندما لا تكون تعمل. فلقد كنتَ مطارداً من الفتيات. وأنا أودّ دائماً أن يكون لك أصدقاء من الرجال. هذا أسوأ شيء فعلته كاترين».

- «ليس عن قصد وكانت غلطتي أنا».

- «ربما يكون ذلك صحيحاً، لكن أتعتقد أنه سيكون لنا أصدقاء؟ أصدقاء مخلصون».

- «إننا أصدقاء بالفعل».

- «هل يكون لنا أصدقاء آخرون؟».

- «ربما».

- «وهل سيبعدونك عني لأنهم يعرفون أكثر مما أعرفه أنا؟».

- «لن يكونوا أكثر منك معرفة».

- «ربما سترى فيهم نوعيات جديدة أكثر شباباً وجدة، وتكون قد مللت مني».

- «لن يكونوا كذلك، وأنا لا أُريد ذلك».

- «سأقتلهم لو فعلوا. أنا لن أفرط فيك بمثل هذه السهولة التي فعلتها هي».

- «ذلك عظيم».

- «أودّ أن يكون لك أصدقاء من الرجال، أصدقاء من أيام الحرب، تتناقش معهم، تلعب معهم الورق في النادي. لكننا لا نريد أن يكون لنا أصدقاء من النساء. أليس كذلك؟ سيكن فتيات جميلات، متجدّدات، وسيقعن في حبّك على الفور ويتفهّمنك، وما إلى ذلك، وهكذا!».

- «أنا لا أجري وراء النساء. وأنت تعرفين ذلك».

Twitter: @ketab_n

قالت ماريتا: «إنهن متجدّدات بصفة دائمة. كلّ يوم هناك جديد منهن. ولا أحد أبداً يستطيع أن يكتفي بالتحذير. وأنت بصفة خاصة».

قال ديفيد: «أنا أُحبك، وأنت شريكتي أيضاً. لكن خذي الأمر بسهولة. على الأقل ابقي معي».

- «أنا معك».

- «أعرف ذلك وأُحب أن أنظر إليك، وأنا على وعي بأنك هنا، وأننا سننام معاً ونكون سعيدين».

في الظلام استلقت ماريتا فوقه وشعر بنهديها فوق صدره وذراعيها خلف رأسه ويديها تتلمسانه وشفتيها فوق شفتيه. قالت ماريتا في الظلام: «أنا فتاتك، فتاتك، لا تقلق ما دمت أنا فتاتك دائماً. فتاتك المخلصة التي تحبك».

- «أجل يا حبّي العزيز. نامي جيّداً، نامي جيّداً».

قالت ماريتا: «نم أنت أوّلاً، وسأعود خلال دقيقة».

كان نائماً عندما عادت ودلفت تحت الملاءة ورقدت إلى جواره. كان نائماً على جنبه الأيمن يتنفس بهدوء وانتظام.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الفصل الثلاثون

استيقظ ديفيد مع أول شعاع ضوء دخل من النافذة. كان الجوّ ما زال رماديّ اللون بالخارج، وهناك بعض جذوع أشجار الصنوبر مختلفة عن تلك التي تعوّد أن يراها عندما يستيقظ وبينها وبين البحر مسافة. كانت ذراعه اليمنى متصلّبة لأنه نام عليها. عندما تنبّه لنفسه، اكتشف أنه في سرير غريب عليه، ورأى ماريتا ممددة نائمة إلى جواره. تذكّر كل شيء ونظر إليها بحبّ وغطى جسدها البنيّ اللون المنعش بالملاءة وقبّلها برقّة شديدة، وارتدى بيجامته وخرج يتمشى في ندى الصبح الباكر، وخياله يصوّر له كيف ستكون معه في حجرته. أخذ حمّاماً بارداً، وحلق ذقنه، وارتدى قميصاً وبنطلوناً قصيراً. توقّف عند باب حجرة ماريتا وفتحه بحرص. وقف وتطلّع إليها وهي نائمة، فأغلق الباب بنعومة وتوجّه إلى حجرة عمله. أخرج أقلامه وكراسة جديدة. برى خمسة أقلام رصاص، وبدأ يكتب قصّة والده والثورة الشعبية وحرب الماجي ماجي، التي كان قد بدأها برحلة عبور البحيرات المرّة. انتهى من العبور، وأكمل الرحلة الشاقّة لليوم الأول. وعندما أشرقت الشمس ربطها بالجزء الذي كان ينبغي أن يكتبه في الظلام. وما أن انتهى من نصفها حتى بدأ السراب وأصبحت الحرارة غير محتملة. مع مرور الوقت، كان الصباح يتقدّم ونسمات الريح الشرقية تهبّ خلال أشجار الصنوبر قادمة من البحر. كان قد انتهى من كتابة الجزء الخاص بأحداث الليلة الأولى في المعسكر المقام تحت أشجار التين حيث كانت المياه تدفع المياه من الجرف وتتحرك بعيداً عن المعسكر في الصباح الباكر في مجرى ينحدر فجأة مع الانحدار الحادّ للجرف.

اكتشف أنه عرف أكثر عن والده من المرة الأولى عندما كتب هذه القصة، وعرف كذلك أن باستطاعته أن يقيس مدى نجاحه من خلال أشياء بسيطة، جعلت والده أكثر

Twitter: @ketab_n

تواجداً وشخصيةً لها أبعاد أكثر مما كان في القصة الأولى. لقد كان محظوظاً في تلك اللحظة. ذلك أن والده لم يكن رجلاً عادياً.

واصل ديفيد الكتابة بشكل جيّد. وواتته الجمل التي كان قد كتبها من قبل كاملة تماماً، فكتبها وصحّحها، ونقحها كأنه يكتب المسودّة النهائية. لم تغب عنه ولا جملة، وكان يضع أغلبها كما هي دون أن يعيد صياغتها. في حوالي الساعة الثانية كان قد أعاد كتابة القصة، وصحّحها ونقّحها، بعد أن استغرقت كتابتها خمسة أيام في المرة الأولى. واصل الكتابة لفترة طويلة حينذاك، ولم تبدر أية بادرة تدلّ على انقطاع تدفّق عباراته إليه سليمة تماماً.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

جنّة عدن

بعد خمسة وعشرين عاماً على موت الكاتب الكبير أرنست همنغواي، صَدَرَ في كندا ونيويورك عملٌ آخر له لم يُنشر في حياته: جنّة عدن. رواية لم تكن قد اكتملت بعد، حين وافى الأجل مؤلّفها.

وقد بدأ همنغواي بكتابة جنّة عدن سنة ١٩٤٦، وكان يرجعُ إليها بين الفينة والأخرى في الوقت الذي كان يكتب فيه «الشيخ والبحر» و «عيدٌ متحرك»، و «الصيف الخطِر»، و «جُزرٌ في التيه». وقد وصف روايته جنة عدن بأنها «سعادة الجنّة التي على الإنسان أن يخسرها».

تحكي الرواية قصة زوجين يقضيان شهر العسل، لكنّ الزوج الشاب يريدُ الكتابة من جديد بعدما تلقى أنباء من ناشرِه عن نجاح كتابه الثاني. غير أن امرأته، على تشجيعها له، ترفضُ أن تحلّ الكتابة مكانها، وهي الصبيّة الشقراءُ التي تعشقُ البحر والشمس والمغامرة. وتروح تنصبُ أمامَ زوجها مغريات الحياة، ومن بينها فتاة أكثر جمالاً وصبىً منها، وتبدأ رحلةٌ طويلة من الإثارة والمخاطرة.

في هذه الرواية يطرحُ همنغواي مفهومه للحبّ، وللكتابة ولعلاقتهما الواحد بالآخر. وإذا كان الكتاب قد نشر بعد خمسة وعشرين عاماً على رحيل همنغواي، فإنّه يبقى، على نحوٍ يثير الدهشة والإعجاب، عملاً أدبياً حديثاً كل الحداثة.